عالم المعرفة

74

مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

تأليف

د. أمين عبدالله محمود

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت
صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990
74

مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

تأليف
د. أمين عبدالله محمود

فبراير 1984

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

مقدمه

لا تزال فلسطين تشكل قضية المصير الأولى للأمة العربية بأكملها. وعلى ترابها سوف تتقرر هوية هذه الأمة ومستقبلها. فإما أن تدرك أمتنا خطورة ما يحاك ضدها من مؤامرات فتهب مدافعة عن وجودها وبقائها، وإما أن تركن للتراخي والاستسلام فينتابها المزيد من التمزق والضياع وتصبح لقمة سائغة في أفواه الطامعين والحاقدين. إن القضية الفلسطينية هي أم القضايا وأساس التحديات التي تواجه العرب جميعا. فالخطر الصهيوني لا يهدد عروبة فلسطين وحدها فحسب، وإنما يمتد تهديده ليشمل الوطن العربي من خليجه إلى محيطه. وها هو التاريخ يروي لنا أخبار المحاولات المتتالية لإقامة مستوطنات يهودية في ليبيا ومصر والجزيرة العربية والخليج والأردن وسوريا والعراق. ومثل هذه المحاولات لم تجر في التاريخ القديم، بل جرت بالأمس القريب، إذ لم يمض عليها سوى فترة قصيرة من عمر الزمن. فالكل مهدد، والكل ينتظر دوره ما لم ينفض الجميع عن كاهله غبار الوهن واللامبالاة ويجابه الخطر بقوة وتصميم.. . وعندها فقط يمكن القول إن تاريخ العرب الحديث قد اتخذ مساره الطبيعي.

والدراسة الحالية ما هي إلا محاولة، القصد منها ربط اليوم العربي ومآسيه العميقة بأصوله وجذوره الممتدة في أعماق الأمس الراحل. فالوجود الصهيوني اليوم في فلسطين والأقطار العربية

المجاورة، لم يأت دون سابق إعداد وتخطيط. فالتهيئة العملية لإنشاء «دولة إسرائيل» بدأت تتخذ أسلوبا جديا منذ مطلع القرن الماضي. وستتناول الدراسة هذه «التهيئة» ضمن إطار زمني تعود بنا بدايته إلى أواخر القرن الثامن عشر وتستمر لتنتهي بنا عند نهاية الحرب الكبرى.

أما الفكرة الرئيسية التي تدور حولها هذه الدراسة، فهي إبراز عمق الصلة التي تربط بين الرأسمالية الغربية والبرجوازية اليهودية، وما ترتب على هذه الصلة من طرح للمشاريع الاستيطانية اليهودية في فلسطين وخارجها.

وتعزو الدراسة في فصلها الأول نشأة النزعة الاستيطانية اليهودية إلى أصول إمبريالية غربية تمثلت في فرنسا وبريطانيا قبل غيرهما من الدول. لقد أدركت هذه الدول الأوروبية ذات الأطماع الإمبريالية التوسعية أن توطين اليهود في فلسطين يؤدي خدمات جليلة لمصالحهما في الشرق. ولذا فإنها بدأت تتسابق في استغلال جميع الوسائل التي تساعدها للاستثمار بتأييد اليهود بشكل عام والمنفذين منهم، بشكل خاص، لمشاريعها المتعلقة بتوطين اليهود. ويصبح هؤلاء المستوطنون-بالتالي-مجرد أداة من أدوات الدولة المهيمنة عليهم يؤمنون مصالحها ويحرسون مواقعها. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هنالك رغبة متزايدة لدى غالبية أوروبا الغربية في اختيار فلسطين-أو غيرها عند الضرورة-ملجأ تتجه إليه هجرات فقراء اليهود الوافدة من روسيا وشرق أوروبا، لتخليص شعوبها من عبء هذه الهجرات ومشاكلها. ولم يكن يهود أوروبا الغربية اقل رغبة من غيهم في التخلص من هذه الهجرات وإيجاد مكان آخر تتجه إليه وتستقر فيه.

أما التبني اليهودي للنزعة الاستيطانية، فقد جاء في أعقاب الاندفاع الإمبريالي الغربي في طرح المشاريع الاستيطانية اليهودية في فلسطين. وستتناول هذه الدراسة في فصليها الثاني والثالث هذه المسألة، فتبين أن الاستجابات اليهودية الأولى للمشاريع الاستيطانية لم تتخذ طابعا جماهيريا واسع النطاق، وإنما اقتصرت على البرجوازية اليهودية ذات المصالح الحيوية المتداخلة مع مصالح الفئات الحاكمة في الدول الغربية الكبرى. ثم تنتقل الدراسة بعد ذلك لتعرض لجوء البرجوازية اليهودية إلى سلاح فعال يتمثل في تبني كوادر فكرية يهودية في أوروبا بغربيها وشرقيها تعمل في خدمتها

وتعبر عن مصالحها من خلال استثمار قوة الكلمة بأعماقها وأبعادها المختلفة بين الجماهير اليهودية البسيطة، أول ضحية من ضحايا الوهم الصهيوني الاستعماري.

ويتناول الفصل الرابع أهم الأفكار والآراء التي طرحها تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية السياسية وتبرز من خلال هذه الأفكار والآراء أهم الملامح الاستعمارية التي تميزت بها الحركة الصهيونية. وبعد استعراض برنامج بازل الصهيوني وقيام المنظمة الصهيونية العالمية، ينتقل بنا هذا الجزء من الدراسة إلى تحليل أهمية الدور الذي قام به هرتزل في المجالين الدبلوماسي والسياسي ونجاحه في توثيق عرى التحالف بين البرجوازية اليهودية والرأسمالية الغربية بحيث أصبحت المسالة اليهودية قضية عالمية ومثار اهتمام الكثير من الحكومات والدول الغربية.

وتنتقل الدراسة بعد ذلك في فصلها الخامس لاستعراض مشاريع الاستيطان اليهودي التي تعرضت لها مناطق متعددة خارج فلسطين، بعضها في العالم العربي وبعضها خارجه. فقد قامت محاولات صهيونية جادة لاستعمار أرض مدين في شمال الحجاز ومنطقة العريش وسيناء، والجبل الأخضر في ليبيا، والبحرين والاحساء في منطقة الخليج العربي بالإضافة إلى قبرص و يوغندة. ويتناول هذا الفصل أيضا محاولات الاستيطان التي تعرضت لها مناطق أخرى كالأرجنتين وإقليم اضنة التركي بالإضافة إلى رودس وأنجولا وموزنبيق والكونغو.

أما الفصل السادس والأخير، فيتناول بشيء من الإيجاز الاستيطان اليهودي في فلسطين وهجراتهم إليها، ولا يتسع المجال لتناول هذين الموضوعين بمزيد من الإسهاب والتفصيل نظرا لوقوعهما خارج النطاق المرسوم لهذه الدراسة. وينتقل هذا الجزء من الدراسة بعد ذلك إلى مناقشة المواقف التي اتخذتها الدول الكبرى إزاء قضية الاستيطان اليهودي في فلسطين، ويبين أهمية الدور الذي قامت به الإمبريالية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى في تبنيها للحركة الصهيونية وإصدارها وعد بلفور الذي كان بمثابة أول اعتراف دولي بالصهيونية السياسية ومشاريعها الاستيطانية.

لقد سعت الدراسة جاهدة إلى رصد الأهداف الحقيقية للتحالف

الإمبريالي الصهيوني وكشف الكثير من مخططاته التي لا يزال العديد من الناس يجهل عمقها وأبعادها. وإن كانت فلسطين هي الضحية الأولى، فهناك أجزاء من ديارنا العربية لا زالت محط أطماع هذا التحالف الحاقد.. والله أعلم بما يخبئه لها القدر!.

ومن الواضح أن هذه الدراسة لم تأل جهدا في الاستعانة بالمصادر الأولية على اختلاف أنواعها. فبالإضافة إلى الوثائق البريطانية والصهيونية لجأت الدراسة إلى مؤلفات ومذكرات العديد من الزعماء الصهاينة والساسة الغربيين الأوائل، والتي يعود بعضها إلى القرن الماضي والبعض الآخر إلى مطلع القرن الحالي. كما حرصت الدراسة على الاستفادة من شتى الكتابات التي تناولت الصهيونية من زواياها المختلفة سواء ما كان منها باللغات الأوروبية أو اللغة العربية. وفيما يتعلق بما ظهر من كتابات بالعربية حول هذا الموضوع، فقد استفادت الدراسة من كتابات صادق العظم حول «الصهيونية والصراع الطبقي» لما اشتملت عليه من تحليلات علمية هادفة كان لها كبر الأثر في فتح العديد من الآفاق الجادة أمام هذه الدراسة. أما كتاب «تاريخ الصهيونية» لصبري جريس ففائدته تكمن في تسجيله الدقيق للتطورات الداخلية لحركة الصهيونية وإبراز أهمية الدور اليهودي فيها. وقد أشارت الدراسة في أكثر من موضع إلى العديد من الدراسات الأخرى التي استعانت بها، كتلك التي قام بها فايز صايغ وأنيس صايغ وعبد الوهاب المسيري وأسعد رزوق وخيرية قاسمية وغيرهم.

ولا يفوتني في هذا المجال أن أعبر عن تقديري وامتناني للصديقين الدكتور شاكر مصطفى والأستاذ يوسف الكاظمي على سعة صبرهما واحتمالهما جلسات النقاش الطويلة حول الكثير من أفكار هذه الدراسة. كما أتوجه بالشكر للدكتور فؤاد زكريا على قراءته للمخطوط وتقديمه الكثير من الاقتراحات البناءة. وكذلك للأستاذ توفيق أبو بكر على جميع الملاحظات الهادفة التي أبداها. كما أنوه بالفائدة الكبيرة التي جنيتها من التحليلات والملاحظات القيمة للصديق عبد الله أحمد علي رضا حول العديد من أفكار هذه الدراسة. أما الأخ الدكتور عبد السلام المجالي فلا يسعني إلا أن أتوجه إليه بالشكر والعرفان على كل ما قدمه لي من عون ومؤازرة لإنجاز هذا الكتاب وإخراجه إلى حيز الوجود.

وإن كان للباحث ما يتمناه في هذا المجال فعسى أن تترك هذه الدراسة أثرا في وجدان القارئ، فيزداد اقتناعا بأن طريق العودة إلى

القدس طويل وشاق.. . وبحاجة إلى المزيد من التضحيات والكد الدائب المستمر ليس من جانب شعب فلسطين وحده، وإنما من جانب الأمة العربية بأجمعها !..

الكويت في أول نوفمبر 1983

أمين عبد الله محمود

١

الاستيطان اليهودي الغربي في ظل التوسع الإمبريالي الغربي (قبل عام ١٨٩٧)

يعود تاريخ الأطماع الأوروبية في فلسطين خلال العصور الحديثة إلى منتصف القرن السابع عشر.. . ففي تلك الفترة كان هنالك صراع مرير بين الدول الأوروبية حول السيطرة على التجارة العالمية والتحكم في طرق مواصلاتها. وكان البيوريتانيون Puritans (المطهرون) آنذاك لا يشكلون الطبقة الحكمة في إنجلترا والأراضي المنخفضة فحسب وإنما كانوا هم أيضا القوة الاقتصادية المنفذة فمنهم كان كبار التجار ورجال الأعمال. ونظرا للصلة الوثيقة التي كانت تربط البيوريتانية باليهودية فقد تهيأ لليهود مجال واسع للمساهمة في النشاط التجاري دون خوف أو وجل من البيوريتانيين. ولم يكن عسيرا على رئيس إنجلترا البيوريتاني آنذاك، اوليفر كرومويل، أن يدرك مدى الفائدة المادية التي كان بمقدور اليهود تقديمها لاقتصاديات بلده وخاصة في المجال التجاري. ولذلك فانه أبدى اهتماما كبيرا بشئون اليهود وأخذ يقدم الكثير من

التسهيلات لهم. وقد نظم عدد من البيوروبتانيين الإنجليز «حركة»[1] بهدف مساعدة اليهود على الاستيطان في فلسطين وقاموا عام 1649 بتقديم عريضة إلى الحكومة الإنجليزية جاء فيها: «إن الأمة الإنجليزية مع سكان الأراضي المنخفضة سيكونون أول الناس وأكثرهم استعدادا لنقل أبناء إسرائيل وبناتها على سفنهم إلى الأرض الموعودة لأجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب كي تصبح إرثا دائما لهم.[2] وبالرغم من أن هذه الحركة ودعوتها لتوطين اليهود في فلسطين لم يتمخض عنها أية نتيجة عملية إلا أنها كانت مؤشرا للقوى الحاكمة في بريطانيا وغيرها كي تولي فلسطين مزيدا من اهتمامها وتدرس بجدية مدى الفائدة المجنية من وراء توطين اليهود فيها سواء كان ذلك في المجالات الاقتصادية أم السياسية. وبالفعل فإن فلسطين ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر وبشكل أوضح في القرن التاسع عشر شهدت نشاطا مكثفا واكب التوسع الإمبريالي الغربي قامت به مجموعات من التجار وعلماء الآثار والمبشرين والرحالة والمغامرين وسنتناول الدراسة هذا النشاط مبينة أهم ما ترتب عليه من نتائج.

كانت فرنسا أول من طرح بشكل جدي فكرة توطين اليهود في فلسطين. فقد أعدت حكومة الإدارة الفرنسية عام 1798 خطة سرية لإقامة «كومنولث يهودي في فلسطين»[3] حال نجاح الحملة الفرنسية في احتلال مصر والمشرق العربي «بما فيه فلسطين» وذلك مقابل تقديم الممولين اليهود قروضا مالية للحكومة الفرنسية التي كانت تمر آنذاك في ضائقة اقتصادية خانقة، والمساهمة في تمويل الحملة الفرنسية المتجهة صوب الشرق بقيادة نابليون بونابرت، وأن يتعهد اليهود ببث الفوضى وإشعال الفتن وإحلال الأزمات في المناطق التي سيرتادها الجيش الفرنسي لتسهيل أمر احتلالها. ودعا أحد زعماء اليهود الفرنسيين إلى تكوين مجلس يضم جميع الطوائف والفئات اليهودية ويتخذ من باريس مقرا له ليعمل بالتنسيق مع حكومة الإدارة الفرنسية من أجل «إعادة بناء وطن يجمع شمل اليهود وينظم حياتهم.»[4] ومضى هذا الزعيم اليهودي في دعوته التي تضمنها منشور أصدره غفلا من التوقيع قائلا فيه:

«إن عددنا يبلغ ستة ملايين [5] في أقطار العالم وفي حوزتنا ثروات طائلة.. . فيجب أن نتذرع بكل ما لدينا من وسائل لإنشاء وطن لنا.. ..

وهذا الوطن الذي ننوي قبوله بالاتفاق مع فرنسا يشتمل على مصر السفلى (الوجه البحري) ويمتد شرقا (منتهيا) بخط يبدأ من بلدة عكا إلى البحر الميت ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر، وموقع هذا الوطن من أنفع المواقع في العالم، ويمكننا من السيطرة على ملاحة البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الجنوبية والشمالية وأثيوبية والحبشة، ثم إن مجاورة حلب ودمشق لنا تسهل تجارتنا، وموقع بلادنا على البحر المتوسط يمكننا من إقامة المواصلات بسهولة مع فرنسا وإيطاليا وإسبانيا.».[6]

ويبدو أن نابليون بونابرت كان مطلعا على الاتصالات الجارية بين زعماء يهود فرنسا وحكومة الإدارة الفرنسية، واتضح له مدى الخدمات التي كان بمقدور اليهود-عامة ويهود فرنسا والشرق خاصة-تقديمها له، ولذا فانه أصدر - بمجرد وصوله إلى مصر عام 1798 - بيانا حث فيه جميع يهود آسيا وأفريقيا على الالتفاف حول رايته من أجل إعادة «مجدهم الغابر» وإعادة بناء «مملكة القدس القديمة» [7]. وما لبث نابليون أن وجه لليهود نداء آخر أثناء حصاره مدينة عكا وذلك في الرابع من أبريل عام 1799، وكان مما ورد فيه: «إن العناية الإلهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا قد جعلت العدل رائدي، وكفلتني بالظفر، وجعلت من القدس مقرها العام، وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يضيرها جوارها لبلد داود» وتابع نابليون نداءه مخاطبا اليهود بقوله: «يا ورثة فلسطين الشرعيين فدعاهم لمؤازرته طالبا منهم العمل على «إعادة احتلال وطنهم» ودعم «أمتهم والمحافظة عليها بعيدا عن أطماع الطامعين لكي يصبحوا أسياد بلادهم الحقيقيين.»[8].

ويعزو المؤرخ بارون S. W. Baron أسباب إصدار نابليون هذا النداء إلى رغبته في استقطاب الجاليات اليهودية في الشرق، وجمعها تحت لوائه لتحارب معه، وتكون عونا له في دعم نفوذه وتثبيت سلطانه.[9] وبالإضافة إلى ذلك، فإن نابليون كان يهمه من وراء هذه الدعوة كسب ثقة يهود فرنسا ودعمهم المادي، في صراعه الذي بات وشيك الوقوع مع حكومة الإدارة الفرنسية. ويضيف بعض المؤرخين إلى نداء نابليون هدفا آخر، وهو تشجيع اليهود على الاستيطان في فلسطين بغية إيجاد حاجز مادي بشري يفصل

ما بين مصر وسوريا. واستغلال ذلك في تسهيل وتدعيم الاحتلال الفرنسي لكل منهما. كما كان نابليون يهدف إلى تهديد مصالح بريطانيا من خلال إغلاق طريق مواصلاتها المؤدى إلى الهند. وهناك إشارات أخرى في بعض المصادر إلى أن نابليون كان يهمه كسب رضا وتأييد حاييم فارحي اليهودي الذي كان يتمتع بنفوذ مالي في عكا ويتولى مسؤولية تزويدها بالمؤن الغذائية.[15]

ولكن دعوة نابليون هذه، سرعان ما فقدت قيمتها بمجرد أن لحقت الهزيمة بالحملة الفرنسية أمام أسوار عكا. ومما يسترعي الانتباه في هذا الصدد أن الجاليات اليهودية الشرقية والأوروبية شكل عام لم تبد اهتماما جديا بدعوة نابليون المتضمنة وعدا بإقامة وطن لليهود في فلسطين. وهذا يؤكد أن التفكير اليهودي باستيطان فلسطين لم يكن قد تبلور بعد، وأن جل اهتمام اليهود في هذه الفترة كان يرتكز على تثبيت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية في البلاد التي كانوا يعيشون فيها دون الانسياق وراء مغامرات قد تعرض وجودهم للخطر.

وبالرغم من تلاشى مشروع نابليون إلا أنه أظهر بوضوح أن محاولات التوسع الإمبريالي الغربي في الشرق العربي بعد نابليون، ستتخذ من مشاريع توطين اليهود في فلسطين ذريعة للتدخل في مصير هذا الجزء من العالم، وستعمل جاهدة على تحقيق هدفها الكبير بإيجاد كيان يهودي حليف يتم تسخيره لخدمة مصالح الإمبريالية الغربية نفسها.

كان نابليون يدرك بفطنته ودهائه ما يجول في أذهان الزعماء اليهود، ولذلك فإننا نجده يتبع أسلوبا آخر لاسترضاء اليهود والحصول على مساعدتهم حينما دعت الحاجة لذلك ثانية. فنابليون كان واثقا أن الصدام بينه وبين روسيا القيصرية أمر لا مفر منه، ولذا فإنه أخذ يهيئ جيشه للزحف على روسيا عبر المسافة الطويلة التي تفصلها عن فرنسا. وترتب على ذلك أن الحاجة قد برزت من جديد للمساهمة اليهودية في تمويل حملته العسكرية المتجهة إلى روسيا. والأهم من ذلك كله أنه كان حريصا على كسب تأييد وولاء اليهود الروس واستغلالهم كطابور خامس خلال الحرب.[11] من أجل ذلك دعا نابليون اليهود في سبتمبر عام 1806 إلى عقد السنهدرين Sanherdrin وهي الهيئة القضائية العليا لليهود التي كانت

قائمة في الأزمنة القديمة، واستمر اجتماعها حتى نهاية فبراير عام 1807 [12] حين أعلن نابليون أن اليهود أصبح لهم كيان رسمي داخل الدولة، وأن الديانة اليهودية أصبحت إحدى الديانات الرسمية في فرنسا، وإن من حق المؤسسات الدينية اليهودية فيها أن تحظى برعاية وحماية الدولة. وتعهد نابليون بإجبار حكام الدول الأوروبية التي يحتلها على منح اليهود من سكانها الحقوق التي منحتهم أ إياها فرنسا كما حدث في هولندا وسويسرا. غير أن هذه الوعود والتعهدات سرعان ما تلاشت بهزيمة نابليون في واقعة واترلو عام 1815.

ويلاحظ أن تبني فرنسا لفكرة توطين اليهود في فلسطين قد بدأت حدتها تفتر في أعقاب الفترة النابليونية، وذلك لانشغال فرنسا عن الشرق بمشاكلها الداخلية واتجاه توسعها نحو مناطق أخرى، مما قلل من حاجتها لخدمات اليهود.

غير أن فكرة توطين اليهود في فلسطين، بدأت تجد اهتماما واسعا لدى الدوائر البريطانية الحاكمة آنذاك. ولعل أهم أسباب الاهتمام البريطاني بالاستيطان اليهودي هو ظهور محمد علي في مصر ومحاولاته التوسعية الرامية آنذاك إلى إقامة إمبراطورية عربية قوية تحل محل السلطنة العثمانية المتهالكة. وكان هذا بالطبع يتعارض مع السياسة البريطانية الرامية إلى عدم المساس بممتلكات الدولة العثمانية، سواء أكان ذلك عن طريق غزو خارجي أم ثورة داخلية. [13] واستطاعت بريطانيا بالتحالف مع النمسا وبروسيا وروسيا وفرنسا. [14] وقف التوسع المصري وإرغام محمد علي على سحب قواته من سوريا، وحصر نفوذه بمصر يحكمها هو وأسرته كمنحة من السلطان العثماني. [15] وقد كتب جورج انطونيوس يقول: إن نمو سلطان محمد علي في مصر ثم امتداده إلى الجزيرة العربية والبحر الأحمر، أكسبه سيطرة في تلك المناطق الواقعة على طريق من أخطر الطرق التجارية في العالم، وله في الوقت نفسه قيمة خاصة بالنسبة للتجارة الإنجليزية. [16] وقد جاء أيضا في رسالة للورد بالمرستون Lord Palmerstone (1784-1865) وزير خارجية بريطانيا ورئيس وزرائها فيما بعد، موجهة إلى سفير بلاده في نابولي بتاريخ 21 مارس عام 1833: «إن هدف محمد على الحقيقي هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي تتكلم العربية، وقد لا يحوي هذا

المشروع ضررا في حد ذاته، ولكنه سيؤدي إلى تقطيع أوصال تركيا وهذا ما لا نرضى عنه، وفضلا عن ذلك فلا نرى سببا يبرر إحلال ملك عربي محل تركيا في السيطرة على طريق الهند. [17]

وقد أدركت بريطانيا أن وجود طائفة تعتمد عليها في بلاد الشام يعتبر أمرا في غاية الأهمية بالنسبة لمصالحها في تلك البلاد، خاصة وأن فرنسا كانت تتمتع منذ عام 1535 بحق حماية الكاثوليك، وروسيا منذ عام 1774 بحق حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية. أما بريطانيا فلم تكن لها طائفة أو جماعة تتحيز لها أو تعتمد عليها في أي مكان من تلك الدولة. ولذا فقد رأت في اليهود أقلية يمكن أن تعتمد عليها في فلسطين، تماما كما فعلت فيما بعد عام 1860 حينما وجدت في الدروز قوة موالية لها، في أثناء فتنة الستين المشهورة التي ذهب ضحيتها عدد كبير من الدروز والموارنة في سوريا ولبنان. ولم يكن من العسير على بريطانيا أن تدرك أنه بإمكانها الاستفادة من التظاهر بالدفاع عن هذه الطائفة أو تلك من المتحيزين لها، للتسرب داخل الدولة العثمانية والحصول على نصيبها من التركة العثمانية فيما لو تعرضت هذه التركة إلى خطر الغزو الخارجي أو الثورة الداخلية.[18] وقد قامت بريطانيا في يوليه عام 1838 بافتتاح أول قنصلية لها في القدس، ولم يمض عقد من الزمن على هذا التاريخ، حتى توالى افتتاح مزيد من القنصليات للدول الغربية مثل بروسيا، وفرنسا، النمسا، وإسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية. وأعلنت بريطانيا أنها أنشأت قنصليتها بهدف رعاية مصالحها في فلسطين والتي كان من ضمنها «تقديم الحماية لليهود هناك عامة»[19] وهو ما أصبح عملا رئيسيا للقنصلية البريطانية لمدة طويلة، ولم يكن خافيا على الكثيرين أن هدف تقديم الحماية لليهود قد استخدمته بريطانيا ذريعة تستطيع بموجبها «التدخل في شئون البلد الداخلية وتقوية مركزها أسوة بفرنسا حامية الكاثوليك» وتمكنت (القنصلية البريطانية) بعد ذلك على أية حال «من إيجاد رعايا لبريطانيا في فلسطين، من خلال الاستجابة بسهولة إلى طلبات منح الحماية التي كان يتقدم بها بعض اليهود من حين إلى آخر خصوصا أولئك الذين كانوا قد فقدوا، لسبب ما، حماية دولتهم الأصلية.»[20]

يعتبر اللورد بالمرستون [21] من أشد المتحمسين لفكرة توطين اليهود في

فلسطين منذ توليه وزارة الخارجية البريطانية وحتى بعد تسلمه رئاسة الوزارة فيما بعد، حيث عبر مرارا عن اعتقاده بان «بعث الأمة اليهودية سيعطي القوة للسياسة الإنجليزية». وقد أصدر بالمرستون عام 1839 تعليماته إلى القنصل البريطاني في القدس وليام يونغ William Young بمنح اليهود في فلسطين الحماية البريطانية لضمان سلامتهم وصيانة ممتلكاتهم وأموالهم. [22] وبتوجيه من بالمرستون قامت صحيفة«جلوب» Globe اللندنية الناطقة بلسان وزارة الخارجية البريطانية بنشر سلسلة من المقالات في نهاية عام 1839 تدعو فيها إلى تكوين دولة يهودية مستقلة في فلسطين، حال توفر عدد كاف من المهاجرين اليهود يسمح بإقامة دولة لهم فيها. [23] وقد قامت جريدة التايمز اللندنية في 10 أغسطس عام 1840 بنشر مقال تحت عنوان «إعادة توطين اليهود» جاء فيه:

«إن اليهود الغربيين بحوزتهم القدرة المالية على شراء أو استئجار فلسطين من السلطان العثماني وإرسال أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود ليستقروا فيها شريطة أن تتكفل الدول الخمس الكبرى[24] بتوفير الحماية اللازمة لهم،» وتمضي الصحيفة قائلة: «إن قيام دولة يهودية سيفصل بين تركيا ومصر وسيدعم النفوذ البريطاني في الليفانت Levant سياسيا وعسكريا واقتصاديا.»[25] وبمعنى آخر فإن هذه الدولة المقترحة ستكون أداة لخدمة مصالح الاستعمار البريطاني في منطقة «الشرق الأدنى».

وكان اللورد شافتسبوري Lord Shhaftesbury (اللورد آشلي سابقا) (1801-1885) الذي كانت تربطه صلة قرابة [26] باللورد بالمرستون من أبرز العناصر البريطانية تشجيعا لهجرة اليهود وتوطينهم في فلسطين. وكان تأثر شافتسبوري واضحا بآراء جيمس بتشينو James Bicheno التي تضمنها كتاب The Restoration of Jews الذي دعا فيه إلى تجميع اليهود من جميع أنحاء العالم في فلسطين وذلك سعيا «إلى حل الأزمات التي تجتاح الدول المسيحية والدولة العثمانية»[27]. وقد لعب شافتسبوري دورا مهما في التأثير على أفكار بالمرستون تجاه هذا الموضوع. ففي أثناء انعقاد مؤتمر لندن عام 1840 قدم مشروعا إلى بالمرستون أسماه مشروع «أرض بغير شعب لشعب بلا أرض» متضمنا أن تتبنى الحكومة البريطانية «إعادة اليهود إلى فلسطين» وإقامة دولة خاصة بهم. وحذر شافتسبوري من أنه لو تقاعست بريطانيا

عن تنفيذ هذا المشروع فإن هنالك احتمالا كبيرا بتنفيذه على يد دولة أخرى كروسيا مثلا، وهذا بالطبع سيهدد مصالح بريطانيا في الشرق.[28] ونتيجة لنفوذ وتأثير شافتسبوري زاد بالمرستون اقتناعا «بأن إعادة توطين اليهود في فلسطين لن تنطوي على حسنات للشعب اليهودي فحسب، بل وللسلطان أيضا، حيث يمكنه الاعتماد على ولاء رعاياه الجدد الذين سوف يعيدون في الوقت نفسه إقليما مهجورا إلى سابق عهده في الرخاء والازدهار.»[29] وتبنى بالمرستون مشروعا أمام الدول المجتمعة في مؤتمر لندن يهدف إلى «خلق كومنولث يهودي في النصف الجنوبي من سوريا-أي فوق المساحة التي شغلتها فلسطين التوراتية.»[30]

غير أن بالمرستون فشل في الوصول إلى أية نتيجة ملموسة من وراء اندفاعه نحو تكوين وطن لليهود في فلسطين. ويعزو المؤرخ جيمس باركس هذا الفشل إلى «كون اليهود الأوروبيين الغربيين مشغولين آنذاك بالكفاح من أجل تحررهم الاجتماعي والحصول على حقوقهم الدينية، وبالتالي فإنهم لم يروا أهمية أو صلة وثيقة بين ما كانوا يعملون من أجله وبين بعث الأمة اليهودية من جديد بالمفهوم السياسي»[31] ولكن حقيقة الأمر-وهذا ما اتضح لبالمرستون فيما بعد-أن اليهود كانوا مقتنعين بعدم جدوى مثل هذه المشاريع نظرا لأن فلسطين لم يكن أمرها بيد بريطانيا إذ إنها كانت تحت حكم الدولة العثمانية التي لم تكن مستعدة لفتح أبواب فلسطين على مصراعيها لاستغلال اليهود لأراضيها وهجرتهم إليها. ولذا فإن كسب تأييد اليهود القوى لإقامة دولة لهم في فلسطين كان مرهونا بتهيئة الظروف المناسبة التي تمكنهم من الحصول على الأرض والسماح لهم بالهجرة إليها دون أي شرط أو قيد، وبعد ذلك يسهل إقناع أعداد كبيرة من اليهود بالهجرة إلى فلسطين. وبطبيعة الحال فإن تحقيق ذلك كان مرتبطا بموافقة الدولة صاحبة الشأن في فلسطين. ولم تكن بريطانيا آنذاك هي تلك الدولة، بل كانت الدولة العثمانية.

ولكي يقضي بالمرستون على مخاوف اليهود، فلقد لجأ إلى ممارسة ضغوط شديدة على الدولة العثمانية لكي تسمح لليهود بالهجرة إلى فلسطين وشراء الأراضي فيها. ففي أغسطس عام 1840 أرسل تعليمات إلى السفير البريطاني في الآستانة بونسونبي M. Ponsonby، يدعوه فيها إلى حث السلطان

العثماني على السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين وإقامة مستوطنات لهم فيها. وكان مما ورد في تلك الرسالة:

«لا شك أنه يوجد لدى اليهود المتشردين في أوروبا إحساس قوى بضرورة العودة إلى فلسطين حينما تكون الظروف مناسبة.. . وإنه لمن الأهمية بمكان أن يشجع السلطان عودة اليهود للاستطيان في فلسطين، إذ إن الثروات التي سيحضرها اليهود معهم ستزيد بالتأكيد من دخل السلطان. كما أن عودة اليهود بدعوة وتشجيع من السلطان سيضمن عدم قيام مشاريع انفصالية من الممكن أن يقوم بها محمد علي أو أحد خلفائه. وإنني أطلب منك بإصرار أن تقنع الحكومة العثمانية بتقديم كل التشجيع اللازم من أجل عودة اليهود إلى فلسطين. [32]

وبعد أسابيع قليلة وفي الرابع من سبتمبر عام 1840 أرسل بالمرستون رسالة أخرى إلى سفير بلاده في الآستانة جاء فيها:

«لا تتقاعس عن متابعة طلبي للباب العالي بدعوة اليهود للعودة إلى فلسطين. إنك قد لا تتصور فيما لو نجح هذا المسعى مدى الاهتمام الذي ستوليه الأوساط المتدينة والمتحمسة لليهود في إنجلترا لأوضاع السلطنة العثمانية. وإنك لا شك تعرف مدى النفوذ والثراء اللذين تتمتع بهما هذه الأوساط، ولا شك أن نجاح هذا المسعى سيكون أيضا ذا فائدة عظيمة للسلطان، إذ إن عددا كبيرا من الرأسماليين اليهود سيهبون لنجدته وإقامة مشاريع تعود على السلطنة بالخير والثراء.»[33]

غير أن بالمرستون فشل في إقناع السلطان بالتخلي عن رفضه السماح لليهود بالهجرة الاستيطانية غير المحدودة إلى فلسطين أو منحهم امتيازات خاصة. [34] وبالرغم من ذلك فقد بقي توطين اليهود في فلسطين أحد الأهداف الأساسية التي تسعى إلى تحقيقها السياسة البريطانية في الشرق العربي. بل وظهر اتجاه تبناه بعض الساسة والمفكرين الإنجليز بالمضي قدما في مشاريع توطين اليهود في فلسطين، حتى ولو اقتضى ذلك احتلال فلسطين نفسها.

ويعتبر شارك هنري تشرتشل Charles H. Churchill (1814-1877) من أشد المتحمسين لإنشاء دولة يهودية في فلسطين. فقد أدرك مدى أهمية فلسطين بالنسبة للمصالح البريطانية أثناء إشراكه في الحملة الإنجليزية ضد محمد

علي عام 1840. ومن هنا لجأ إلى معارضة سياسة بالمرستون الرامية إلى عدم المساس بممتلكات الدولة العثمانية وطالب بتدخل بريطانيا الفوري واحتلالها سوريا وفلسطين، ووضعها تحت حمايتها. وقد كتب تشرتشل هذا في مقدمة كتابه «جبل لبنان» الذي صدر عام 1853 فقال: «إن كنا نريد الإسراع في تقدم المدنية وتوطيد سياسة إنجلترا في الشرق، فمن الواجب أن تقع سوريا ومصر تحت سيطرتها ونفوذها بهذا الشكل أو ذاك». [35] وكان يرى أن هجرات اليهود إلى فلسطين واستيطانهم فيها يهيئهم للقيام بدور حماة المصالح البريطانية في منطقة الشرق، ولكنه كان في نفس الوقت يدرك أن يهود أوربا لا يتوفر لديهم الحماس الكافي للاستيطان الفوري في فلسطين، ولذلك أخذ يقوم باتصالات مكثفة مع الزعماء اليهود، يحثهم على ضرورة الهجرة إلى فلسطين والعمل من أجل إقامة الدولة اليهودية. وقد بدأت اتصالاته هذه منذ وقت مبكر. ففي الرابع عشر من يونيه عام 1841 أرسل رسالة إلى مونتفيوري جاء فيها:

«لا أستطيع أن أخفي رغبتي الجامحة في أن أرى مواطنيك (اليهود) يعملون جاهدين مرة أخرى لبعث وجودهم كشعب، وإنني أعتقد أن هذا الهدف يمكن تحقيقه.. . ولكن هناك شرطين أساسيين لتحقيق هذا الهدف وهما: أولا: أن يتحمل اليهود أنفسهم في شتى أنحاء العالم المسؤولية الكبرى في تحقيق هذا الهدف، وثانيا: تقديم الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا المساعدة الكافية في هذا الصدد.»[36] وهكذا كانت مساعي تشرتشل موجهة بشكل مركز لتهجير اليهود صوب فلسطين والعمل على استقرارهم فيها.

وكان من بين دعاة توطين اليهود في فلسطين أيضا إدوارد ميتفورد E. L. Mifford الذي كان يعتبر من أخلص أنصار بالمرستون. ففي عام 1845 قدم مذكرة إلى الحكومة البريطانية يطلب فيها «إعادة توطين اليهود في فلسطين بأي ثمن، وإقامة دولة خاصة بهم تحت الحماية البريطانية.»، وبمجرد أن يتمكن اليهود «من إقامة مؤسساتهم الخاصة في دولتهم ويحققوا خبرة كافية في شؤون الحكم فإن على بريطانيا أن ترفع وصايتها، وتدعهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم». ومن جملة ما ورد في مذكرة ميتفورد أن إقامة مثل هذه الدولة اليهودية يحقق فوائد كبرى لبريطانيا «بجعل الممرات المائية

لمواصلاتنا البخارية (المتجهة نحو الشرق) بين أيدينا كليا «.. . كما سيحقق لنا مكانة قوية (في الليفانت) نستطيع من خلالها العمل على وقف ودحر أية محاولة من أعدائنا للتحكم في منطقة الشرق»[37] وكان ميتفورد من أوائل «الصهاينة الأغيار» الذين تعرضوا لقضية الوجود البشري الفلسطين، فاقترح إجلاء الفلسطينيين وتوطينهم في أجزاء أخرى من الدولة العثمانية، وكان مما قاله حول هذه القضية: «... فالبلد قليل السكان في الوقت الحاضر بالنسبة إلى مساحته. إلا أن الضغط الذي يولده إدخال كتلة بهذا الحجم من الغرباء على السكان الفعليين قد تترتب عليه نتائج سيئة لذا يستحسن قبل القيام بمحاولة للاستيطان أن يتم إعداد البلاد لاستقبال القادمين. ويمكن تحقيق ذلك بحث الحكومة العثمانية للعمل على جعل السكان المحمديين يتراجعون صوب تلك البلدان الشاسعة والمزروعة جزئيا في آسيا الصغرى، حيث يتم تمليكهم قطعا وحصصا من الأرض مساوية في حسناتها، ومتفوقة إلى حد بعيد في قيمتها بالقياس إلى الأراضي التي تخلوا عنها». [38]

وكان من بين أهم الصهاينة غير اليهود في بريطانيا، الكولونيل جورج جولر George Gawler الذي عمل فترة حاكما لجنوب استراليا. فقد استمر فترة طويلة يطالب بإنشاء مستوطنات يهودية في فلسطين، كمرحلة تسبق مرحلة إقامة كومنولث يهودي في فلسطين تحت وصاية بريطانيا. وكان مما قاله في إحدى المناسبات: «لقد وضعت العناية الإلهية سوريا ومصر بين إنجلترا وبين أعظم مناطق إمبراطوريتها ومراكز تجارتها في الهند والصين والأرخبيل الهندي واستراليا». وأضاف قائلا: «.. .. وتحتاج إنجلترا إلى أقصر خطوط المواصلات وأكثرها أمنا مع المناطق التابعة لها. إن استيلاء أية دولة على مصر وسوريا يهدد تجارة بريطانيا.. . وقد آن الأوان كي تقوم إنجلترا بتنمية سوريا وأحيائها بواسطة أبناء الأرض الحقيقيين، أبناء إسرائيل.»[39] وقد بذل جولر قصارى جهده في توثيق علاقاته مع الشخصيات اليهودية البارزة في بريطانيا وإثارة حماس أفراد الطوائف اليهودية من أجل تأييد ودعم الدولة اليهودية المقترحة في فلسطين، إذ إن هذه الدولة ستكون بمثابة «الحل الحاسم لكل المشاكل والمضايقات والقيود التي تحد من حرية اليهود في أوربا». وقد قام جولر بالاشتراك مع مونتفيوري

وبتشجيع من الحكومة البريطانية بجولة في فلسطين عام 1849 قام خلالها بدراسة تفصيلية عن التجمعات اليهودية هناك.

ويستخلص مما تقدم أنه بالرغم من أن السياسة البريطانية حتى نهاية عهد بالمرستون عام 1855 بقيت تعمل جاهدة من أجل توطين اليهود في فلسطين، إلا أن هذه السياسة لم تنجح في إثارة حماس اليهود «للدولة اليهودية المقترحة» وبالتالي هجرتهم إلى فلسطين، خاصة وأن الدولة العثمانية رفضت الاستسلام للضغوط البريطانية من أجل الموافقة على منح فلسطين لليهود. وسنلاحظ فيما بعد التغيير الذي طرأ على السياسة البريطانية بحيث أصبح تغلغلها الاستعماري في المنطقة أكثر اتساعا مما كان له أكبر الأثر في تشجيع وصول هجرات يهودية متزايدة إلى فلسطين عملت جاهدة على وضع أسس الكيان الاستيطاني فيها.

في أعقاب ثورات عام 1848 وكنتيجة مباشرة للثورة الصناعية، تمكنت الطبقة البرجوازية من تثبيت دعائم سيطرتها السياسية والاقتصادية في غالبية دول أوربا الغربية، وبدأت موجة كبيرة من موجات التوسع الإمبريالي بغية السيطرة على اقتصاديات دول العالم وتحويل هذه الدول إلى مجرد مصادر للمواد الخام اللازمة للصناعات الغربية وأسواق استهلاكية لمنتوجات الغرب. ومن هذا المنطلق أصبحت الدول الغربية وخاصة بريطانيا وفرنسا في أمس الحاجة إلى أنظمة حكم موالية لها في الدول الواقعة تحت نفوذها، ليس فقط لمجرد حماية مصالح الدول الإمبريالية في بلادها، وإنما أيضا للقيام بدور الحارس الأمين لهذه المصالح إذا ما تعرضت للخطر في مناطق أخرى مجاورة. ولذا فإن وجود دولة يهودية يخدم بالتأكيد مصالح الدولة الكبرى ذات السيطرة والنفوذ على فلسطين ليس داخل حدودها فحسب وإنما في منطقة الشرق العربي كله.

ومما جعل قيام هذه الدولة اليهودية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ضرورة إستراتيجية ملحة بالنسبة للدول الغربية وخاصة بريطانيا، اشتداد التنافس الإمبريالي في منطقة الشرق بين بريطانيا وفرنسا. فقد تمكنت فرنسا عام 1854 من الحصول على امتياز شق قناة السويس وأخذت تتصرف كما لو أن مصر أصبحت منطقة نفوذ خاصة بها. وبالإضافة إلى ذلك فقد بدأ الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث-في محاولة لكسب دعم

وتأييد الشعب الفرنسي-يعلن عن نواياه الاستعمارية لاحتلال منطقة الشرق العربي بما فيها سوريا وفلسطين.

أما بالنسبة لبريطانيا فقد اتخذت موقفا متشددا إزاء تزايد النفوذ الفرنسي في المشرق العربي، وقامت بمقاومة مشروع قناة السويس مشككة في جدواه الاقتصادية بحيث لم تلق أسهم هذا المشروع رواجا كبيرا عندما طرحت في الأسواق. فقد بلغ مجموع هذه الأسهم 400 ألف سهم بيع منها في فرنسا 110 , 207 أسهم وبيع في خارج فرنسا 427 , 15 سهما والباقي 643 , 177 سهما اشتراها خديوي مصر بعد م ن اقترض ثمنها من فرنسا.

وبالرغم من معارضة بريطانيا-في بادئ الأمر-لمشروع شق قناة السويس، فإن الموقف البريطاني سرعان ما بدأ يتغير بعد أن أصبحت هذه القناة الممر الحيوي للتجارة مع الهند. ففي عام 1975 قامت حكومة دزرائيلي البريطانية بعقد صفقة مع الخديوي إسماعيل، تم بمقتضاها شراء الأسهم ا المصرية في قناة السويس بمبلغ 4 ملايين جنيه إسترليني، وقد برر دزرائيلي هذه الصفقة أمام مجلس العموم البريطاني فيما بعد بأنها «عملية سياسية» للحد من تزايد النفوذ الفرنسي في مصر. [(40)]

ولم يقتصر مجال النفوذ البريطاني على قناة السويس، وإنما تعداه أيضا عام 1878 إلى احتلال قبرص ثم مصر عام 1882 ولم تبد فرنسا أية معارضة إذ إن بريطانيا تغاضت عن الاحتلال الفرنسي لتونس عام 1881.

وهكذا بدأت كل من بريطانيا وفرنسا تتخلى تدريجيا عن سياستها التقليدية إزاء الدولة العثمانية القاضية بعدم المساس بممتلكاتها. فبالنسبة لبريطانيا أصبح تأمين نفوذها في مصر يحتل المقام الأول في سياستها بالمشرق العربي. كما أن فرنسا كانت تعمل جاهدة على انتزاع مكاسب لها في هذه المنطقة أيضا.

وفي الوقت الذي بدأ يتبلور فيه التحالف بين الإمبريالية الغربية والبرجوازية اليهودية بشكل أكثر وضوحاً، فإن هذا التحالف لم يعد يقتصر على نظريات وآراء مجردة بل تعدى ذلك ليصبح ممارسة عملية، فالتمويل اليهودي للمشاريع الإمبريالية أصبح حقيقة واقعة، وخير شاهد على ذلك صفقة أسهم قناة السويس. كما أن المخاوف التي أبداها اليهود في النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يعد لها أساس متين بعد الاحتلال الإمبريالي

الفعلي لمناطق مجاورة لفلسطين والتواجد العسكري فيها، بحيث أصبح الوجود البريطاني في مصر وقبرص مبعث طمأنينة وتشجيع للمهاجرين اليهود إلى فلسطين على اعتبار أن القوات البريطانية جاهزة لحمايتهم فيما لو تعرض وجودهم في فلسطين للخطر.

ولم تكن فرنسا أقل حماسا من بريطانيا لإقامة دولة يهودية في فلسطين تحت الحماية الفرنسية. ففي أعقاب حرب القرم برز اهتمام متجدد بتوسيع رقعة النفوذ الفرنسي داخل «الليفانت» وأخذ بعض المفكرين والكتاب السياسيين في فرنسا يرفعون لواء الدعوة للمناداة بفلسطين «إقليميا يهوديا» على نحو مماثل للدعوة الصادرة بجعل لبنان «إقليما مسيحيا» تحت الحماية الفرنسية. [41] وقد أبدى نابليون الثالث اهتماما ملحوظا بفكرة توطين اليهود في فلسطين خاصة حينما حصلت فرنسا على امتياز شق قناة السويس. [42] وبرز هذا الاهتمام على لسان عدد من الشخصيات الفرنسية المقربة لنابليون الثالث، وكان من بينهم جان دونان [43] الذي كانت تربطه صلات وثيقة أيضا بعدد كبير من حكام أوروبا والمسؤولين فيها. وقد قام دونان بنشاطات واسعة في فرنسا وخارجها لكسب تأييد الرأي العام الفرنسي، والأوروبي من أجل الاستيطان اليهودي في فلسطين. وكان من أهم إنجازاته إنشاء «جمعية استعمار فلسطين» في باريس وقد نجح في الحصول على موافقة الإمبراطورة أوجينى زوجة نابليون الثالث لتتولى رئاسة هذه الجمعية. [44] وكان متاثرا بنجاح شركة الهند الشرقية فدعا إلى تأسيس شركة فرنسية على غرارها لتشرف على إنشاء مستوطنات تجارية في فلسطين تتحول فيما بعد إلى مستوطنات دائمة ويكون سكانها من اليهود الغربيين. وفي هذا الصدد شن حملة واسعة لتأليب الرأي العام الفرنسي والأوروبي للضغط على الباب العالي كي يوافق على السماح لهذا المشروع بالتنفيذ. [45]

وفي عام 1860 دعا ايرنست لاهران Ernest Laharanne الذي كان يعمل سكرتيرا خاصا لنابليون الثالث-خلال تصاعد الاستعمار الفرنسي في لبنان-إلى البحث عن الوسائل الكفيلة بتثبيت دعائم الوجود الفرنسي في منطقة الشرق العربي. ومن هذه الوسائل-في رأيه-«إعادة» بناء الدولة اليهودية في فلسطين تحت الحماية الفرنسية. وقد نشر آراءه بهذا الخصوص في كتابه

الذي حمل عنوان: «المسالة الشرقية الجديدة-الإمبراطورية المصرية والعربية وإعادة إحياء القومية اليهودية». واقترح لاهران قيام فرنسا بتوطين اليهود في فلسطين يؤازرها في ذلك دعم وجهد رجال البنوك والتجار اليهود في العالم ويجري اكتتاب مالي يهودي عام يتيح لليهود المجال «لشراء وطنهم القديم» من الدولة العثمانية. ويتولى لاهران بعد ذلك إيضاح الفوائد التي تعود على الإمبريالية الغربية من وراء هذا المشروع بقوله:

«أي قوة في أوروبا ستعترض على الخطة الداعية إلى اتحاد اليهود من أجل شراء أرض أجدادهم القديمة ؟ ومن ذا الذي سيعترض إذا عمد اليهود إلى إلقاء بضع حفنات من الذهب إلى تركيا العاجزة المتهالكة. وقالوا لها: «أعيدي لنا أرضنا واستخدمي هذا المال في تعزيز الأجزاء الباقية من إمبراطوريتك المتداعية.. . ؟» ولن تثار أي اعتراضات على تحقيق هذه الخطة، وسيسمح لليهودية أن تمد حدودها من السويس إلى ميناء ازمير، بما في ذلك كامل المنطقة غربي جبال لبنان.. . وستسعى الصناعة الأوروبية يوميا إلى البحث عن أسواق جديدة تصرف فيها منتجاتها. والوقت أمامنا قصير، فقد آن الأوان لأن ندعو الأمم القديمة إلى الحياة من جديد كي تفتح طرقا جديدة ومعابر للحضارة الأوروبية.»[46]

ويوضح لاهران مدى الخدمات التي يمكن لمثل هذه الدولة اليهودية-فيما لو قامت-أن تحققها للإمبريالية الغربية وخاصة الفرنسية، ومما قاله في هذا الصدد: «هناك دعوة عظيمة موقوفة على اليهود: أن يكونوا قناة الاتصال الحية بين القارات الثلاث. سيكونون حملة الحضارة إلى شعوب ما زالت بدائية وستلعبون دور الوسيط بين أوربا وأقاصي آسيا، فتفتحون الطريق المؤدية إلى الهند والصين، تلك المجاهل التي ينبغي في النهاية فتح أبوابها للحضارة». [47] ويستمر لاهران في حديثه مخاطبا اليهود بقوله: «... سيروا قدما، إن انبعاثكم سيجعل قلوبنا تختلج (أي قلوب الطبقة الحاكمة الفرنسية) وستقف جيوشنا إلى جانبكم مستعدة لتقديم المعونة. سيروا إلى الأمام يا أيها اليهود في كل أرض إن وطنكم القديم يناديكم وسيكون من دواعي افتخارنا أن نفتح لكم أبوابه». [48] ولا يكتفي لاهران بوصف العرب في كتابه بالهمجية والوحشية وإنما ينكر المساهمة العربية في ميادين العلوم الأوروبية ويقصرها على اليهود. ولا شك أن هذا المنطق

يعكس النظرة المتعصبة للإمبريالية الغربية الحاقدة على الشعوب العربية والإسلامية بحيث دأبت على الإنكار أو التقليل من أهمية أي دور إيجابي قامت به هذه الشعوب في مرحلة من مراحل تاريخها تجاه الحضارة الإنسانية. ومن المفارقات العجيبة لشخص مثل لاهران أن يقدم من ناحية صورة كهذه عن العرب ويكون من ناحية أخرى أحد ضيوف الشرف لدى الخديوي إسماعيل في حفل افتتاح قناة السويس عام 1869.

ومن الجدير بالذكر أن كتاب لاهران وآراءه قد كان لها أثر كبير على أفكار موسى هس وآرائه التي حملها إلينا كتابه «روما والقدس» الذي سيرد ذكره في الفصل القادم. ويمكن الاستشهاد بهذا كمثال يوضح مدى التأثير الذي مارسه فكر الصهاينة الأغيار على اليهود أنفسهم وأنعش آمالهم في تحقيق الاستيطان اليهودي بعد أن كان مجرد تصورات وأوهام خيالية.

غير أن الهزيمة الساحقة التي منيت بها فرنسا على يد بسمارك في سيدان عام 1870 جعلت الحكومة الفرنسية لفترة طويلة لاحقة حريصة على عدم الدخول بمفردها في مغامرات استعمارية قد تعرضها لخطر المواجهة العسكرية مع دول أوروبية اكثر منها قوة. وسنلاحظ أن السياسة الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، تعمل على تسوية المشاكل المعلقة بينها وبين بريطانيا، لكسب دعمها وتأييدها في أية مغامرة استعمارية قد تقوم بها فرنسا في مناطق لا أطماع لبريطانيا فيها كما حدث بالنسبة لتونس والمغرب.

وهكذا خلا الجو نسبيا لبريطانيا كي تهيئ المجال لمد نفوذها صوب فلسطين، خاصة بعد احتلالها مصر عام 1882، واتجه اليهود بالتالي نحو بريطانيا بعد أن أضحت القوة الحقيقية التي كان بمقدورها حماية الوجود اليهودي في فلسطين. وبدأت الأصوات ترتفع من جديد في بريطانيا مطالبة إياها بفرض حمايتها على فلسطين وتوطين مزيد من اليهود فيها بغية إقامة دولة يهودية. وكان من أهم المتبنين لمشروع توطين اليهود في فلسطين في هذه المرحلة، السياسي البريطاني دزرائيلي الذي مر نبا دوره في صفقة شراء أسهم قناة السويس من الخديوي إسماعيل. فقد اخذ دزرائيلي يهيئ الجو لعرض مسالة توطين اليهود في فلسطين أمام المجتمعين في مؤتمر برلين الذي كانت الترتيبات قائمة لعقده في عام 1878. فقبل انعقاد المؤتمر

بعام أي في عام 1877، نشر دزرائيلي في النمسا مذكرة بعنوان «المسألة اليهودية في المسألة الشرقية». [49] وكانت هذه المذكرة لا تدعو لتوطين اليهود في فلسطين فحسب، وإنما تدعو أيضا إلى إقامة دولة يهودية تتولى بريطانيا حمايتها والإشراف عليها. وكان مما ورد في تلك المذكرة قول دزرائيلي: «أليس محتملا أن ينمو في تلك الأرض خلال نصف قرن مثلا شعب يهود متراص، قوامه مليون إنسان بكامل عدتهم يتكلمون لغة واحدة-لغة حاميتهم إنجلترا-وتحركهم روح واحدة: الروح القومية النموذجية والرغبة في تحقيق الحكم الذاتي والاستقلال ؟». [50]

ومن أهم الشخصيات الأوروبية التي تعاطفت مع مشاريع الاستيطان اليهودي، كان لورانس اوليفانت Lawrence Oliphant (1829- 1888) الذي ولد في جنوب أفريقيا من أبوين إنجيليين، وخدم فترة من الزمن في السلك الدبلوماسي البريطاني. كما عمل اوليفانت مراسلا لصحيفة التايمز اللندنية خلال حرب القرم التي دارت رحاها بين عامي 1854-1856 وأصبح عام 1865 عضوا في البرلمان البريطاني. أبدى اوليفانت اهتماما كبيرا بالمحافظة على سيادة الدولة العثمانية وحمايتها من التهديدات الروسية. وفي الوقت الذي أشاد فيه. بنتائج مؤتمر برلين وما تمخض عنه من ظهور «تحالف أوروبي للوقوف في وجه أية مخططات عدوانية بثتها روسيا للممتلكات العثمانية في أوروبا»، فقد حذر من مغبة الأطماع الروسية في الأجزاء الآسيوية من الدولة العثمانية. إن أطماعها تصاعدت-على حد تعبير اوليفانت-وذلك «من خلال أطماعها في أرمينيا وكردستان» لتصل في النهاية إلى فلسطين التي كانت تشكل بمركزها الديني والاستراتيجي مصدر إغراء كبير بالنسبة للمطامع التوسعية الروسية. [51] ولذلك فإنه دعا إلى تشجيع الاستيطان اليهودي، ليس في فلسطين وحدها فحسب، وإنما أيضا في الضفة الشرقية للأردن التي كانت تكاد تكون خالية من أية حركة استيطانية بالإضافة إلى أن أوضاعها الإدارية كانت مضطربة وغير مستقرة. وركز على الفائدة المزدوجة التي كانت ستعود على كل من المستوطنين اليهود والباب العالي. فإن انتقال هؤلاء المستوطنين ليصبحوا رعايا للسلطان كان سيؤدي إلى قيام تحالف حيوي قائم على خدمة المصالح المتبادلة بين العثمانيين من جهة و «الشعب اليهودي» من جهة أخرى.

فمقابل استقرار المستوطنين اليهود في فلسطين والأردن فإن الدولة العثمانية «ستحصل على حليف يتمتع بأهمية بالغة في المجالات المالية والتجارية والسياسية وسيكون سندا فعالا لها في صراعها العسكري في أوربا وآسيا». [52] وقد دعا اوليفانت بريطانيا إلى دعم وتأييد مشروعه الرامي إلى «إنقاذ الدولة العثمانية من مشاكلها المستعصية عن طريق ضخ عناصر اقتصادية نشطة في جسمها المتهاوي»[53] وكان العنصر المقصود بالطبع هو العنصر اليهودي.

زار اوليفانت رومانيا عام 1879 واجتمع هناك بعدد من الزعماء اليهود محاولا إقناعهم بتأييد مشروعه الاستيطاني. ثم توجه، بعد ذلك إلى الآستانة مزودا برسائل توصية من دزرائيلي نفسه ومن وزيري خارجية بريطانيا وفرنسا. ونجح هناك في مقابلة السلطان عبد الحميد حيث حاول إقناعه بإنشاء شركة استيطان يهودية «تعيد اليهود إلى فلسطين» وتتمتع بحماية السلطان وبريطانيا، وكان مما قاله في هذا الصدد: «.. . إن الأمة التي تقف إلى جانب اليهود وتدعم مسألة عودتهم إلى فلسطين ستكسب دعمهم في المجالات المالية، وتأييدهم على الصعيد الإعلامي في مختلف بلدان العالم. وبالإضافة إلى ذلك فإن اليهود يقدمون لهذه الأمة كل دعم ممكن في المجال السياسي ويعاضدونها ضد أية دولة معادية». [54]

وقد أصدر اوليفانت في عام 1880 كتابه «أرض جلعاد» The Land of Gilead الذي ضمنه آراءه وأفكاره بخصوص مسالة توطين اليهود في فلسطين ونوعية العلاقات التي سيقيمها هؤلاء المستوطنون مع كل من العثمانيين والعرب. ولعله من المناسب التعرض قليلا للموقف الذي كان اوليفانت يتبناه تجاه العرب. فالعرب في نظره «غير جديرين بأي معاملة إنسانية فهم يتحملون مسؤولية الخراب والدمار الذي لحق (بفلسطين) وهم السبب في تدني مستواها وانحطاطه إلى وضعه الحالي». [55] ودعا إلى طرد العرب ليعودوا رعاة «كما كانوا» في الواحات الصحراوية وهم ليسوا بحاجة «إلى أكثر من إبلهم ومواشيهم لتسد أودهم». [56]

واستقر اوليفانت في نهاية المطاف في فلسطين، حيث عاش في حيفا وكان برفقته مساعده اليهودي نافتالي هير زامبير، مؤلف نشيد الهاتكفا (الأمل) الذي احتل مكانة خاصة في نفوس الصهاينة وأصبح نشيدهم

الوطني (ثم الإسرائيلي) فيما بعد. [57] وقد وضع اوليفانت كتابا آخر عن «حيفا أو الحياة في فلسطين الحديثة» Haifa, or Life in Modern Palestine وبقي في حيفا حتى توفي هناك عام 1888. وكان من بين الشخصيات البريطانية التي كسبها اوليفانت إلى جانبه الممول اللندني إدوارد كازاليت E. Cazalet (1817-1883). فاقترح كازاليت على السلطان العثماني القيام بتحسين الخط الحديدي في وادي الفرات ليصبح طريق مواصلات هامة، وقد حصل على دعم دزرائيلي لمشروعه بهدف تفويت الفرصة على كل من الألمان والفرنسيين الذين كانوا يطمعون في القيام بهذه المهمة. وقد شارك كازاليت اوليفانت الدعوة للاعتراف باليهود «كأمة موحدة» لها الحق في إقامة دولتها الخاصة. [58]

ويعتبر ويليام هشلر 1845-1931 (William Hischer) من أهم المؤيدين للمشاريع الاستيطانية اليهودية. ولد في جنوب أفريقيا من أبوين ألمانيين وأصبح من كبار رجال الدين المسيحيين في إنجلترا. وقد أبدى اهتماما بالغا بأوضاع اليهود في أوروبا الشرقية وأخذ يقوم بجمع التبرعات المادية وإرسالها إلى جمعيات أحباء صهيون لتشجيع أولئك اليهود على الهجرة إلى فلسطين للاستيطان فيها تحت الحماية البريطانية. أوفدته الحكومة البريطانية عام 1882 إلى الآستانة لمقابلة السلطان عبد الحميد بخصوص مسألة احتلال بريطانيا لمصر وإقناعه بعدم التورط في حلف مع ألمانيا والنمسا. [59] وقد تطرق الحديث إلى مسألة اليهود وإمكانية توطينهم في فلسطين. ولكن السلطان عبد الحميد تجاهل الموضوع ولم يبد أي اهتمام بصدده. وأمضى هشلر فترة يعمل قسيسا لدى السفارة البريطانية في فينا وهناك التقى بهرتزل ونشأت بينهما صلة وثيقة. ويعود الفضل إلى هشلر في تعرف هرتزل على العديد من الساسة الأوروبيين وخاصة دوق بادن الأكبر فردريك الأول، الذي كان حلقة الوصل بين هرتزل والقيصر الألماني، وبالرغم من الطابع الصوفي الذي كان يغلب على اهتمامات هشلر إلا أن أفكاره وآراءه كانت تحوي الكثير من المضمون الاستعماري السياسي. ففي دراسة نشرها عام 1884 بعنوان: إرجاع اليهود إلى فلسطين حسبما ورد في أسفار الأنبياء [60] The Restoration of Jews to Palestine according to the prophets انتهى هشلر فيها إلى مناقشة «الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة»

ليهود روسيا ورومانيا ودعا في النهاية إلى «عودتهم» إلى فلسطين والاستيطان فيها. وكان بحوزة هشلر خريطة ضخمة لفلسطين وصفها هرتزل بأنها «خريطة عسكرية متداخلة» وقد اقترح هشلر عل هرتزل أن تتسع «الدولة اليهودية» المقترحة لتصل حدودها إلى «قبادوكيا» (الواقعة في شرق آسيا الصغرى) شمالا، وقناة السويس جنوبا بالإضافة إلى الضفة الشرقية للأردن لتتاخم حدودها الشرقية الحدود العراقية، وبالطبع فإن البحر الأبيض المتوسط كان يشكل حدودها الغربية. (61)

أما الفضل الأكبر في تقديم صورة تفصيلية واضحة عن فلسطين وإثارة مزيد من الاهتمام بالاستيطان اليهودي فيها فكان مرده إلى «صندوق استكشاف فلسطين» «Palestine Exploration Fund».(62) وقد أنشئ هذا الصندوق في لندن عام 1865 برعاية الملكة فكتوريا ورئاسة رئيس أساقفة كانتربري. ولعب الصندوق دورا هاما في تزويد الساسة والعسكريين البريطانيين بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والسياسية التي كانوا يحتاجونها لمد نفوذهم الاستعماري عل المنطقة. ففلسطين منذ أواسط القرن الماضي، بدأت تشغل حيزا هاما في سياسة التوسع الاستعماري البريطاني، لا سيما بعد أن تبين أن هنالك قوى أوروبية أخرى تطمع في استعمارها كفرنسا وروسيا. وبعد أن وقعت في قبضة محمد علي فترة من الزمن قاربت على عشر سنوات. وإذا كان لبالمرستون ودزرائيلي وغيرهما من الساسة والعسكريين البريطانيين أي فضل في إبراز مشروع توطين اليهود في فلسطين، فلا شك أن جزءا من هذا الفضل كان يعود إلى صندوق استكشاف فلسطين الذي أمدهم بالدراسة التفصيلية لجدوى المشروع وأهميته، معتمدا في ذلك على العديد من خبراء الآثار والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والمناخ. و بالرغم من أن القائمين على أمور الصندوق كانوا يصرون على أن منطلقاتهم طابعها ديني علمي، إلا أنه أصبح واضحا فيما بعد أن نشاطاتهم تجاوزت تلك المنطلقات وأخذوا يلعبون دورا رئيسيا في المجالين: الاستعماري البريطاني والاستيطاني اليهودي. ويتضح هذا فيما لو ألقينا نظرة سريعة على طبيعة عمل الأشخاص الذين أشرفوا على عملية التنقيبات والاكتشافات لنجد أن غالبيتهم كانوا من العسكريين الإنجليز ومن سلاح الهندسة الملكي بالذات. وكان من أبرزهم الكابتن كوندر .Cpt

Condrer، والكابتن وارين Cpt. Warren والكابتن ويلسون Cpt. Wilson والكابتن نيوكومب Cpt. Newcombe ورجل الاستخبارات المعروف لورنس T. E. Lawrence واللورد كتشنر Kitchener الذي عين فيما بعد معتمدا بريطانيا في مصر.(63)

وكانت غالبية التقارير والدراسات الصادرة عن الصندوق تشير-باستمرار- إلى أهمية فلسطين وضرورة «عودة» اليهود إليها وإقامة كيان استيطاني لهم فيها تحت الحماية البريطانية. فالكابتن وارين نشر عدة مجلدات كان أهمها إحياء القدس Recovery of Jerusalem ومذكرات عملية مسح فلسطين Memoirs of the Survey of Western Palestine بالإضافة إلى كتاب أرض الميعاد The Land of Promise الذي نشره عام 1875 ودعا فيه إلى تولي شركة الهند الشرقية تنمية موارد فلسطين وخاصة مواردها الزراعية والتجارية، وتدريب المستوطنين اليهود على إدارة شؤونهم تمهيدا لتسلمهم حكم فلسطين وإدارة شؤونها. (64).

كما شارك الكابتن ويلسون في عدة عمليات بحث وتنقيب في بعض المناطق السورية واللبنانية ولكن تركزت في النهاية على مرج ابن عامر ونابلس والقدس والخليل وكان ويلسون يحاول التوصل إلى هذه المناطق لا سيما الأماكن التي شهدت تنقلات واستقرار «شعب إسرائيل» (كما ورد في تقريره للصندوق) «التاريخ التوراتي» وقد ذهب ويلسون فيما بعد إلى السودان ضمن الحملة البريطانية التي أرسلت لإنقاذ غوردون باشا.

ومما يسترعي الانتباه في التقرير الذي قدمه كوندر حول عملية «مسح فلسطين الغربية»، التي استغرقت مدة ست سنوات، اهتمام الباحثين بدراسة جغرافية فلسطين والتركيز على مصادر المياه فيها والتثبت من أماكن هذه المياه وحجمها. هذا بالإضافة إلى إحياء التسميات التوراتية القديمة وتحديد مواقعها الحديثة.

وقام الصندوق عام 1892 بإصدار كتاب بعنوان المدينة والأرض The City and the Land وهو عبارة عن مجموعة من الدراسات كان أهمها دراسة لوولتر بيسانت W. Beasant جاء فيها قوله: «كنا نستعيد مجد فلسطين في عهد هيرودس، كنا نستعيد بلاد داود ونرد إلى الخارطة أسماء المدن التي دمرها القائد العظيم يوشع. لقد أعدنا إلى القدس مكانتها ومجدها وفخامتها، لقد أعدنا البلاد (فلسطين) إلى العالم بالخارطة والأسماء

والأماكن المذكورة في التوراة. عندما وضعت الأسماء في أماكنها أصبح في وسعنا تتبع سير الجيوش في زحفها». (65)

أما كوندر فكان عنوان دراسته «مستقبل فلسطين» حيث أشار فيها إلى أن المستوطنين اليهود هم العنصر الفعال الوحيد الذي بمقدوره أن ينهض بفلسطين وبمدينة القدس خاصة، وكان مما قاله في هذا الصدد: «.. . إن عدد اليهود في مدينة القدس عام 1793 لم يكن يتجاوز بضع مئات أما الآن (1892) فقد بلغ عددهم أربعين ألفا، وأصبحوا يسيطرون على التجارة في المدينة ولم يعد اليهود أقلية مضطهدة وجبانة، وإنما يبدو أنهم سادة المدينة الآن» ثم انتقل كوندر في حديثه إلى مستقبل فلسطين قائلا: «إن الذين نتوقع أن نراه في فلسطين-إذا كان مستقبلها سليما-هو زيادة تدريجية في عدد السكان المزارعين وانتشار (المستوطنات) المزدهرة. ولن يحول وجود الأتراك دون هذا التقدم وإن كان من الممكن أن يحد من سرعته. وكلما ازداد رأس المال الأوروبي والمستعمرون الأوروبيون في البلاد ازداد دخولها في دائرة الدول التي تنبثق من جسم الترك (الإمبراطورية العثمانية). وان أية محاولة عنيفة للتدخل في تطور بلد-يستطيع إعالة شعب كبير مزدهر-تطورا سليما، ستؤدي حتما إلى حدوث «مشكلة فلسطينية» هائلة ينبغي حلها في كركميش ومجدو. (66) وفي الوقت نفسه لا تعتمد عودة اليهود عل أي عرق سوى عرقهم، وقد بدءوا يعودون وينوون العودة بأعداد كبيرة، لأن معارضة الحكومات لا يمكن أن تعوق مثل هذه الحركة، وإنما قد تنظمها على نحو يكون فيه صلاحها... إن نتيجة أي مشروع مهما بدا صغيرا في مظهره، لا يمكن حسابها حتى تظهر جلية للعيان. لقد بدأ صندوق استكشاف فلسطين عمله، وهدفه الوحيد إلقاء ضوء أجد وأدق على التوراة، ومع ذلك فقد أصبح أداة رئيسية لمساعدة أولئك الذين سيكونون سكان البلاد في المستقبل في الحصول على الحقائق الثابتة عن طاقات وإمكانيات البلاد. وهكذا قدم خدمة جليلة بالعمل السلمي المخلص لتحقيق الازدهار وإزالة الفقر من البلاد.»(67)

وقد أصدر الصندوق بالإضافة إلى العدد الكبير من الكتب والتقارير خريطتين دقيقتين إحداهما» لفلسطين الغربية» والثانية «لفلسطين الشرقية». فبالنسبة للأولى قد تم الانتهاء منها ونشرت عام 1880، كما

أعيد طبعها على مقياس أصغر ونشرت عام 1884، وحملت الأسماء الحديثة والقديمة بالإضافة إلى إبراز تضاريس البلاد وطبيعتها المناخية ومصادر المياه وتوزيعها. أما الخريطة الثانية فقد ظهرت عام 1889 وتضمنت مناطق من «الضفة الشرقية» الحالية للأردن تركز معظمها في منطقة عجلون والبلقاء ومؤاب بالإضافة إلى حوران والجولان. وقد بلغت الخريطتان من الدقة حدا سهل استعمالهما في عملية تحرك الجيوش البريطانية وانتقالها عبر تلك الأراضي خلال الحرب العالمية الأولى. [(68)]

ويتضح مما تقدم عرضه من آراء بيسانت ودارين وكوندر أن صهيونيتهم كانت واضحة وسباقة لصهيونية هرتزل نفسه. ولا شك أن العاملين في الصندوق قاموا بدور كبير في تعريف العالم بفلسطين وتوجيه أنظار اليهود صوب هذه الأراضي، وهذا بالضبط ما كان يسعى إليه الاستعماريون الغربيون وبخاصة الإنجليز منهم. فقد كانوا يسعون جاهدين إلى إثارة الاهتمام اليهودي بفلسطين أو كما قال صادق العظم: «بعث الصهيونية اليهودية» في أعقاب ظهور «صهيونية الأغيار». [(69)]

غير أن تبني المشاريع الاستيطانية اليهودية في فلسطين لم يتوقف على بريطانيا وفرنسا وإنما شاركتهما في ذلك غالبية الدول الاستعمارية الأخرى، وإن كان ذلك بدرجة أقل نسبيا. فبروسيا، منذ أن افتتحت قنصليتها في القدس عام 1842، منحت حمايتها لكل من طلبها من اليهود دون الاهتمام بالتدقيق في الأوراق والمستندات الثبوتية التي تؤهل صاحبها لهذه الحماية. وهكذا امتدت الحماية البروسية إلى الكثير من اليهود ممن هم ليسوا من أصل ألماني وممن كانت إقامتهم غير شرعية في المنطقة. وقد حذت قنصليات روسيا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية حذو القنصلية البروسية-ومن قبلها الفرنسية والبريطانية-في مساعدة اليهود على الاستقرار وتملك الأراضي في فلسطين.[(70)]

بدأ الاهتمام البروسي في فلسطين يتزايد بشكل مستمر منذ مطلع القرن التاسع عشر. فبالإضافة إلى الإرساليات التبشيرية الوافدة من بروسيا وباقي الولايات الألمانية أخذ الاهتمام يتحول تدريجيا إلى مشروعات استعمارية. [(71)] ففي الفترة التي بين عامي 1835-1839 نشر مولتكة Moltke الضابط في الحرس الملكي البروسي سلسلة من الدراسات بعنوان «ألمانيا

وفلسطين» دعا فيها إلى إنشاء «مملكة القدس» بهدف تحويل فلسطين إلى «مركز متقدم للحضارة الأوروبية» كي تصبح نموذجا اقتصاديا متطورا يحتذى به في المنطقة بأسرها. وأشار مولتكة في مشروعه أيضا إلى أهمية قيام هذا المركز الاستيطاني في فلسطين كي يشكل منطقة واقية تفصل بين مصر وسوريا ويحمي المصالح الغربية من أي خطر يتهددها. كما دعا إلى أن يتولى عرش المملكة أمير ألماني يتعهد ببعث القيم «الصليبية المسيحية» من جديد ويشجع المسيحيين واليهود على الاستيطان في المملكة متهما المسلمين بالتعصب الأعمى. (72)

ومن هنا بدأ الألمان في نهاية الستينات من القرن الماضي بإنشاء مستعمرات ألمانية في فلسطين أشرف على تأسيس غالبيتها «جمعية الهيكل الألمانية» التي تأسست في القرن السابع عشر» كحركة دينية إصلاحية في الكنيسة الإنجيلية» الألمانية. وقد باشرت الجمعية نشاطها الاستعماري عام 1869 في أعقاب صدور القانون العثماني عام 1867 الذي أباح للأجانب حق التملك في كافة أجزاء الدولة العثمانية. وكانت المستعمرة الأولى التي تم إنشاؤها مستعمرة الهيكليين في حيفا التي ضمت عددا من المستعمرين كان من بينهم مجموعة من اليهود الألمان. وقد نقش على مدخل المستعمرة بالألمانية: «لتنسني يميني إن نسيتك يا قدس» وهو نفس الشعار الصهيوني: «لتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم». (73)

ولم يتردد سكان المستعمرات الألمانية في إقامة علاقات تعاون وثيقة مع سكان المستوطنات اليهودية المجاورة وتبادل الخبرات والمساعدات في مجالات الزراعة والتجارة والحرف الصناعية. ومما زاد من تعاونهما أكثر معاداتهما للعرب ورغبتهما في التنسيق فيما بينهما لمواجهة أي خطر عربي يهدد وجودهما.

وهناك دراسة (74) تشير إلى أن بسمارك تبنى عملية الاستيطان اليهودي في فلسطين والمناطق المجاورة لخط سكة حديد بغداد برلين. فوجود مستوطنين يهود-في رأي بسمارك-ينعش المنطقة اقتصاديا ويضمن لهؤلاء المستوطنين السيطرة على المنطقة بأكملها. وبالتالي فإن المصالح الألمانية لن تتعرض لأي تهديد مباشر طالما أن هنالك قوة يهودية تشكل مركز حماية متقدم لهذه المصالح.

وبالرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تعلن باستمرار التزامها بسياسة مبدأ مونرو الانعزالي الذي صدر عام 1821، إلا أن الأطماع الاستعمارية بدأت عدواها-على ما يبدو-تمتد إليها بالرغم من أنها قد أحاطتها بهالة دينية إنسانية. ولعبت القنصلية الأمريكية دورا هاما في حماية أعداد كبيرة من اليهود من ملاحقة المسؤولين العثمانيين لهم نظرا لكونهم قد دخلوا البلاد خلسة وكانت إقامتهم فيها بالتالي إقامة غير شرعية.

وقام العديد من المبشرين الأمريكيين بتقديم يد المساعدة إلى المهاجرين اليهود، فقد وهبت المبشرة الأمريكية مينور[75] Minor ممتلكاتها الواسعة لمنفعة المستوطنات الصهيونية وخاصة مستوطنة «مكفية إسرائيل». كما قام القنصل الأمريكي كريسون W. Cresson عام 1852 بإنشاء مستعمرة زراعية يهودية لتدريب المهاجرين اليهود على شؤون الزراعة والإنتاج الزراعي.[76]

وفي عام 1870 تم تأسيس الجمعية الأمريكية لاستكشاف فلسطين The American Palestine Exploration Society وذلك على غرار صندوق استكشاف فلسطين البريطاني.[77]

وقامت ببعض الحفريات في الضفة الشرقية للأردن بالإضافة إلى إعداد خريطة للمنطقة، ولكنها واجهت مصاعب جمة كان أهمها منافسة البريطانيين لها ورغبتهم في الاستئثار بالمنطقة والسيطرة عليها دون مزاحمة من الأمريكيين أو من غيرهم. وهكذا ظل النشاط الاستعماري الأمريكي في فلسطين متخلفا عن نشاط الدول الاستعمارية الأوروبية الأخرى وخاصة بريطانيا وفرنسا. وبعد مضي ما يقارب نصف القرن من الزمن تفوق الأمريكيون بأساليبهم الاستعمارية على غيرهم من الدول سواء أكان ذلك في فلسطين أم في غيرها.

وهكذا يتضح مما سبق أن عملية الاستيطان اليهودي في فلسطين، تم إعدادها وتهيئتها في محافل الدول الاستعمارية الغربية وخاصة بريطانيا. لقد وجدت الطبقات الرأسمالية الحاكمة في هذه الدول أن توطين اليهود في فلسطين يحقق لها فوائد جمة ويخدم مصالحها الاستعمارية. وللوصول إلى هذا الهدف كان لا بد للمشاريع الاستيطانية أن تلقى الدعم والتأييد

من الأوساط اليهودية. فجاء تحرك البرجوازية اليهودية بمصالحها المتداخلة مع الرأسمالية الأوروبية وكان أن تم عن طريقها تحرك بسطاء اليهود نحو قبول فكرة الاستيطان في فلسطين. إن التحالف الذي توثقت عراه بين البرجوازية اليهودية والرأسمالية الأوروبية مهد الطريق لقيام الحركة الصهيونية... الجسر الذي افرز الاستيطان اليهودي أولا ثم الدولة اليهودية ثانيا.

الهوامش

(1) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية في إنجلترا، والصهيونية العنصرية (بيروت: 1977)، مجلد 2، ص 28.

(2) المصدر نفسه، وانظر أيضا:

B. Tuchman, Bible and Swerd (London: 1957), P.78

(3) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908-1918 (بيروت: 1973) ص 12، وانظر أيضا:

L. Wolf, Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question (London: 1919), P.104

(4) المصدر نفسه.

(5) تشير غالبية المصادر إلى أن حقيقة عدد اليهود لم يتجاوز 1/4 2 مليون نسمة في تلك الفترة. انظر هامش رقم 10.

(6) إبلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي (القاهرة: 1934) ص 99-101، وانظر أيضا قاسمية ص 12.

(7) ESCO Foundation, Palestine: A Study of Jewish, Arab and British Policies;.N. Y 1970)

(8) Franz Kobler, The Vision was there (London: 1956), P. 44

وانظر أيضا: صادق جلال العظم، الصهيونية والصراع الطبقي (بيروت 1975)، ص 57، وأبو عسل ص 12.

(9) S. W. Baron, A Social and Religious History of the Jews (N. Y.. 1937 (Vol II P.329)

(10) Nahum Sokolow, History of Zionism (N.Y. 1964), Vol I, P.50

(11) كان القسم الأكبر من اليهود الروس يعودون إلى أصل بولندي. فحينما تم تقسيم بولندا عام 1795 للمرة الثالثة بين جاراتها الثلاثة: روسيا وبروسيا والنمسا، حصلت روسيا بمقتضى ذلك التقسيم على مناطق واسعة من بولندا بما فيها دوقية وارسو التي كان يقطنها اليهود بأعداد كبيرة. وقدر عدد اليهود في العالم عام 1800 بما يعادل 1/4 2 مليون نسمة تقريبا كان يعيش منهم حوالي المليونين في أوروبا، ومن بين هؤلاء كان نحو 1,4 مليون-أي ما يزيد على النصف-يعيشون في روسيا وذلك الجزء من بولندا الذي ضم إليها.

(12) ضم هذا الاجتماع حوالي 80 شخصية دينية وعلمانية يهودية برئاسة ديفيد سينزهايم حاخام ستراسبورغ. وكانت هذه الشخصيات اليهودية تمثل مختلف يهود البلدان التي كانت تسيطر عليها الجيوش الفرنسية زمن نابليون بونابرت انظر:

Howard M. Sachar, The Course of Modern Jewish History (N.Y. 1958), Pp.61-65

(13) تجدر الإشارة هنا إلى ما كان يسمى بالمسألة الشرقية، حيث كان هنالك تنافس بين روسيا من جانب والدول الغربية بزعامة بريطانيا من جانب آخر للاستثمار بالنصيب الأكبر من ممتلكات الدولة العثمانية. كانت روسيا مهتمة بإيجاد منافذ لها على المياه الدافئة والتحكم في المضائق التركية وكان هذا يعتبر في نظر بريطانيا تهديدا مباشرا لمصالحهما في الشرق حيث تصبح

الطرق المؤدية للمستعمرات البريطانية في الهند والشرق الأقصى تحت رحمة روسيا. ولذا فإننا نجد بريطانيا تتزعم حلفا غربيا ضم بروسيا والنمسا وفرنسا للوقوف في وجه الأطماع الروسية. واتفقت الدول الغربية فيما بينها على سياسة عدم المساس بالممتلكات العثمانية لحين إبعاد شبح الخطر الروسي. واتفقت الدول الغربية أيضا على اتباع سياسة مقاومة أية محاولة داخلية في الدولة العثمانية يقصد من ورائها تهديد نظام الحكم القائم فيها أو تغييره أو قيام حركات استقلالية يمكن أن تهدد مصالح الدول الغربية. ولهذا السبب بالذات وجدنا بريطانيا تتزعم حلفا غربيا ضد محمد علي لوقف ما سمي «بمشاريعه التوسعية» وأهدافه الرامية إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وإقامة «إمبراطورية عربية» قوية.

(14) كانت فرنسا في بادئ الأمر تؤيد محمد علي للحصول مجددا على موطئ قدم لها في مصر. وسنها تخلت فيما بعد عن هذه السياسة الممالئة لمحمد علي نظرا لردود الفعل القوية التي برزت لدى الدول الأوروبية الأخرى وخاصة بريطانيا مما بات يهدد بعزلة فرنسا عن المجموعة الأوروبية وبالتالي ضياع أية فرصة لها في الحصول على مكاسب حينما يحين أوان توزيع ممتلكات الدولة العثمانية. كما أن كبار الرأسماليين اليهود في باريس وخاصة آل روتشيلد تحركوا بتوجيه من بريطانيا للضغط على لويس فيليب ملك فرنسا للكف عن تأييد محمد علي والانضمام إلى التحالف الذي تزعمته بريطانيا.

(15) عبد الكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر-1840-1876 (القاهرة: 1961-1962)، ص 26.

(16) George Antonius, The Arab Awakening(London: 1938), P. 19

(17) المصدر نفسه ص 21-22.

(18) اميل توما، جذور القضية الفلسطينية (القدس: 1976)، ص 13.

(19) J. Parkes, A History of the Jewish People (London: 1964) P. 183

(20) صبري جريس، تاريخ الصهيونية (بيروت: 1977)، ج 1، ص 63.

(21) بدأ اللورد بالمرستون حياته السياسية عضوا في الحزب الليبرالي وتولى مهام وزارة الخارجية البريطانية في الفترة الواقعة بين عامي 1830- 1841 وثانية في الفترة الواقعة بين عامي 1848-1855 حيث تولى في ذلك العام مقاليد رئاسة الوزارة البريطانية واستمر فيها حتى عام 1865.

(22) A. L. Tibawi, British Interests in Palestine 1800-1901 (London: 1961), P.43

(23) Walter Laqueur, A History of Zionism (London: 1972), P.43

(24) الدول الخمس الكبرى آنذاك كانت: بريطانيا، فرنسا، النمسا، روسيا وبروسيا.

(25) 5. The Times) London: 17 August 1840 (P كما وردت في المصدر السابق.

(26) كان زوج حماة بالمرستون.

(27) علي محافظة، العلاقات الألمانية-الفلسطينية: 1841- 1845 (بيروت: 1980) ص 95.

(28) محمد عبد الرحمن حسين، العرب واليهود (الإسكندرية: 1967) ص77.

(29) Parkes, P. 266

(30) المصدر نفسه. وكان الفرنسيون يراقبون النشاط البريطاني باهتمام بالغ، وقد أورد قاسم حسن نص التقرير الذي أرسله مسؤول فرنسي في منطقة الليفانت إلى وزارة خارجية بلده جاء فيه: «إن إذلال محمد علي بإجباره على العودة إلى قواعده لم يكن آخر أهداف الحكومة البريطانية في هذا الجزء من الشرق، وقد اتضح على وجه لا يقبل الشك أن لها هنا غاية أخرى ما عاد

عملاؤها يحيطونها بسياج من الكتمان، وبدءوا يكشفون عنها.. .. وهذه الغاية هي بعث مملكة إسرائيل. ومنذ أربعة أشهر وصلت إلى هنا بعثة بريطانية يرأسها الدكتور «كايت» مؤلف كتاب عن «تحقيق النبوآت»... وكان المفهوم في البداية أن هذه البعثة مرسلة من الكنيسة الاسكتلندية، ولكني علمت فيما بعد أن الحكومة البريطانية أوفدتها لجمع معلومات عن أحوال اليهود في فلسطين وإمكان إعادة جميع يهود أوربا إلى الأرض الفلسطينية. وعملاء بريطانيا هنا يقولون إنهم قد حرروا الجبل فتحررت سوريا في الوقت ذاته لأن الجبل هو سوريا، وليس في استطاعة أي دولة أن تتمركز مطمئنة على الساحل، إذ كان الجبليون في حالة حرب معها. وبعد تحرير الجبل بات على بريطانيا أن تجمع في فلسطين ثمانية ملايين يهودي منتشرين في أنحاء أوربا، وعندئذ تكون قد استكملت الوسائل لتركيز نفوذها على أطلال النفوذ الذي كانت تتمتع به فرنسا في هذه البلاد». انظر: قاسم حسن، العرب والمشكلة اليهودية (بيروت: 1969) ص 88- 89، وانظر أيضا: بديعة أمين، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية (بيروت: 1974)، ص 150.

(31) Parkes, P. 266

(32) I. Friedman, "Lord Palmerstone and the Protection of Jews in Palestine 1839-1851". Jewish Social Studies (January 1968) , P. 31

Regina Sharif, Christians for Zion, 1600-1919

وانظر أيضا:

Journal of Palestine Studies (Spring / Summer 1976) P. 130

(33) المصدران السابقان.

(34) Harold Temperley, England and the Near East: The Crimea (London: 1936), P. 444

(35) كما وردت في توما ص 7. وقد أيده في ذلك المستشرق البريطاني السير اوستن هنري لايارد عضو البرلمان البريطاني في تلك الفترة، إذ قال في إحدى خطبه: «علينا ألا ننسى أنه إذا كانت مصر طريقا من الطرق إلى الهند، فسوريا (بما فيها فلسطين) ووادي الدجلة والفرات هي الطريق، والدولة التي تسيطر على هذين القطرين تتحكم في الهند». المصدر نفسه ص 8.

(36) Sharif, P. 132, Israel Cohen, The Zionist Movement (N. Y.1946), P. 52

(37) Tuchman, P. 139 Sharif, P. 131

(38) أسعد رزوق، الصهيونية وحقوق الإنسان العربي (بيروت: 1968)، ج 1 ص 176 - 177، العظم ص 66.

(39) Cohen, P. 52, Sharif, P.132 وانظر أيضا: Sokolow, Vol. I, P.138

(40) محمد الخديوي إسماعيل في بادئ الأمر إلى عرض الأسهم على فرنسا لشرائها. ولكن فرنسا كانت في وضع مالي سيئ نتيجة حروبها الفاشلة ضد ألمانيا (1870-1871) والتي كلفت الخزينة الفرنسية مبالغ طائلة. وقد حاولت فرنسا اقتراض المال من بنك روتشيلد ولكن آل روتشيلد امتنعوا عن الاستجابة للطلب الفرنسي وقاموا بإعطاء القرض للحكومة البريطانية التي لم يكن باستطاعتها تدبير المال اللازم من خزينتها لسبب وجود البرلمان البريطاني في إجازته السنوية الطويلة.

(41) Richard Stevens, Zionism as a Phase of Western Imperialism in the Transformation of Palestine, Edited by I. Abu Lughod) Evanston, Mass: 1971 P.30

(42) Sokolow, Vol I. P.200

(43) عرف بكونه صاحب فكرة الصليب الأحمر الدولي وأول من حاز على حائزة نوبل للسلام.
(44) العظم ص 69.
(45) المصدر نفسه.
(46) ستيفن هلبروك، الجذور الطبقية في العقيدة الصهيونية، المختار من مجلة الدراسات الفلسطينية (بإشراف شاكر مصطفى) الكويت: 1974 ص27.
(47) Moses Hess, Rome and Jerusalem (N. Y. 1945) Pp.139,140
انظر أيضا العظم ص 71.
(48) المصدران السابقان.
(49) Kobler, P. 94
(50) العظم ص 72، ويورد العظم من ناحية أخرى 72-73 ورزوق ص 188 الترجمة العربية لحديث قدمه اللورد شافتسبوري في العام الذي احتلت فيه بريطانيا مصر مبينا فيه الصلة المصيرية التي ربطت بين الإمبريالية الغربية وفكرة الاستيطان اليهودي في فلسطين. ومما ورد في حديثه قوله: «ستتمتع سوريا وفلسطين قبل مرور وقت طويل بأهمية قصوى... ستعود الأمور إلى سابق عهدها... وعندها ستتبوأ سوريا مكانا تجاريا ممتازا. ومن هم تجار العالم المتفوقون ؟ وهل يوجد ميدان أكثر ملاءمة لطاقات اليهود (من سوريا وفلسطين) بعد أن يكون هذا التغيير قد أخذ مجراه ؟ فالبلاد تحتاج إلى رأس المال والسكان. وباستطاعة اليهود توفيرهما لها. أو ليس لإنجلترا مصلحة خاصة في تشجيع مثل هذا الإحياء ؟ ستصاب إنجلترا بضربة إن تمكنت أي من منافستيها الاستيلاء على سوريا.. ينبغي على إنجلترا الاحتفاظ بسوريا لنفسها. ألا تحضر السياسة إنجلترا إذن على رعاية القومية اليهودية وتقديم العون لليهود وفقا لما تسمح به الفرص كي يعودوا كخميرة إلى بلادهم القديمة ؟ إنجلترا هي الدولة التجارية والبحرية العظمى في العالم. لذا تقع عليها بصورة طبيعية تبعة تشجيع استيطان اليهود في فلسطين. إن قومية اليهود موجودة والروح لا تزال حية منذ ثلاثة آلاف سنة. إلا أن الصورة الخارجية، التي تشكل الرابطة التي تتوج الاتحاد ما زالت غائبة. لا بد للأمة من وطن: الوطن القديم الشعب القديم. وهذه ليست تجربة مصطنعة: بل هي الطبيعة بالذات والتاريخ بعينه».
(51) David Vital, The Origins of Zionism (London: 1980), P.94
(52) المصدر نفسه.
(53) المصدر نفسه.
(54) Laurence Oliphant, The Land of Gilead (London: 1880),P.503
(55) المصدر نفسه.
(56) المصدر نفسه، وانظر أيضا: Vital, P. 95
(57) عبد الوهاب محمد المسيري، الأيديولوجية الصهيونية (الكويت: 1982) ج 1، ص 138.
(58) أسعد رزوق، إسرائيل الكبرى (بيروت: 1973)، ص 64، وانظر أيضا: حسان علي حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897- 1909 (بيروت: 1978) ص 61. وكان مما قاله: «إن احتلال مصر قد وحد بين مصالح الإمبراطورية في الشرق، وبين مصالح اليهود في فلسطين». حلاق، المصدر نفسه.
(59) Tibawi, P. 231
(60) رزوق، إسرائيل الكبرى، ص 53.

(61) The Complete Diaries of Theodor Herzl (N. Y. 1960) Vol I, P. 342

(62) لمزيد من المعلومات حول نشاطات الصندوق واكتشافاته انظر الدراسة المفصلة لطيباوي ص 183-205 والتي أشير إليها في هامش رقم 21. وانظر أيضا دراسة: خيرية قاسمية، نشاطات صندوق استكشاف فلسطين 1865-1915 شؤون فلسطينية(بيروت: يوليو 1980) عدد 104 ص 71-100.

(63) لمزيد من التفاصيل انظر طيباوي، المصدر نفسه.

(64) ومن الفقرات التي تم اختيارها من كتاب أرض الميعاد والتي تستحق القراءة مرارا وتكرار ليتبين للقارئ العربي رأي أحد «علماء الصندوق» وهو الكابتن دارين في عرب فلسطين:

«من المرجح أن يتبادر إلى الأذهان في الحال:«ماذا يحدث لعرب فلسطين ؟» وأجيب متسائلا: «من هم العرب؟»-إنهم ليسوا أتراكا على وجه التأكيد، ومعظمهم ليس من عرب الجزيرة العربية، أو من الصحراء. من هم إذن ؟ لقد أصبح معروفا منذ زمن طويل-ولم يلق أي إنسان من الضوء على الموضوع مثلما فعل المسيو (كليرمونت) غانو عالم الساميات والآثار الفرنسي-أن سكان فلسطين ينتمون إلى عرق خليط: بعضهم ينحدر من الكنعانيين والبعض من اليهود، والبعض الآخر من الجزيرة العربية-ومن الواضح إن كثيرا منهم قد اعتنق الإسلام على سبيل الراحة.. . لذلك لا يمكننا اعتبار أهل فلسطين بمثابة مسلمين صارمين من عرق واحد، بل يجب أن ننظر إليهم كمنحدرين من الكنعانيين والإسرائيليين والإغريق والرومان والعرب والصليبيين وقد يعتنقون الآن الديانة الإسلامية أو المسيحية حسب الظروف، لكنهم يحافظون قبل كل شيء على التقاليد القديمة-نعم، وفي بعض الحالات لا يساورني أدنى شك بأنهم يحافظون على ديانتهم القديمة الحقة».

رزوق. إسرائيل الكبرى ص 42، وانظر الأصل كاملا في Sokolow, Vol II, Pp. 269-270

(65) قاسمية، نشاطات صندوق استكشاف فلسطين، ص 93 .

(66) معركتان مشهورتان في التاريخ القديم وقعتا في هذين المكانين.

(67) المصدر نفسه.

(68) C. M. Watson, Fifty Years, Work in the Holy Land (London: 1915), P. 88

(69) العظم، المصدر السابق.

(70) جريس ص 63 .

(71) لدراسة هذا الموضوع دراسة تفصيلية ارجع إلى محافظة، المصدر السابق.

(72) محافظة ص 97-98.

(73) المصدر نفسه، ص 107 .

(74) بديعة أمين، ص 152 .

(75) قدمت إلى فلسطين في منتصف القرن الثامن عشر وأصبحت تملك فيها مساحات شاسعة من الأراضي.

(76) Kolber, P. 12, Sokolow, Vol I, P. 161

(77) Tibawi, Pp. 97-102

2 النزعة الاستيطانية في الفكر اليهودي الغربي (خلال القرن التاسع عشر)

بدأت الاهتمامات اليهودية الجادة بفكرة استعمار فلسطين والاستيطان فيها ابتداء من أواسط الثلاثينات من القرن التاسع عشر. أما قبل ذلك التاريخ فالصلة بين اليهود وفلسطين كانت في غالبيتها مجرد صلة دينية عاطفية، ورغبة لدى بعض الفئات اليهودية المتدينة في الإقامة المؤقتة قرب الأماكن المقدسة للتعبد وممارسة الطقوس الدينية. وكان «بعث» الدولة اليهودية في فلسطين مرتبطا لديهم بحدوث معجزة إلهية يتمخض عنها مجيء (المسيح المنتظر) الذي سيعيد بناء «هيكل سليمان» ويقود العالم نحو «الخير والسلام».

ولذلك فلا غرابة إذا كانت فكرة استعمار فلسطين وإنشاء دولة-يهودية فيها قد وجدت المنشأ المناسب لها في أحضان الدول الغربية الكبرى وبالذات فرنسا وبريطانيا كما مر ذكره معنا في الفصل السابق. ففي أثناء انهماكها في بناء إمبراطورياتها الاستعمارية، أخذت هذه الدول

تجلب العديد من «المستوطنين البيض» وتهيئ لهم سبل الاستقرار في المواقع الحيوية من مستعمراتها كي يكونوا بمثابة الدرع الواقي لهذه المستعمرات من أي خطر يتهددها، بالإضافة إلى الاستعانة بهؤلاء المستوطنين في استغلال ثروات هذه المستعمرات الاقتصادية وخير مثال على ذلك ما حدث في الجزائر وروديسيا وجنوب أفريقيا. [1] وبالنسبة لفلسطين فقد وجدت هذه الدول الغربية أن أفضل وسيلة ممكنة لتأمين السيطرة عليها هي طرح المشاريع الاستيطانية الرامية إلى إنشاء كيان يهودي في فلسطين يكون مرتبطا بأوثق العلاقات مع الدولة الكبرى صاحبة المشروع، مما يهيئ لهذه الدولة سبل التسرب داخل الدولة العثمانية والحصول على الجزء الذي تطمح إليه من ممتلكات الدولة العثمانية حين تحين الفرصة المناسبة لاقتسام هذه الممتلكات.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف سعت الأوساط الإمبريالية في أوروبا الغربية إلى إثارة الاهتمام اليهودي بهذه المشاريع الاستيطانية غير أن الاستجابات اليهودية الأولية لهذه المشاريع لم تتخذ طابعا جماهيريا واسع النطاق، وإنما اقتصرت على البرجوازية اليهودية ذات المصالح الحيوية المتداخلة مع مصالح الفئات الحاكمة في الدول الغربية الكبرى. ففي فرنسا أخذت البرجوازية اليهودية تقوم بإنشاء وتمويل المستعمرات الزراعية في فلسطين بهدف دعم المصالح الاستعمارية لإمبراطورية نابليون الثالث وأطماعها التوسعية في منطقة «الليفانت» عن طريق خلق أقلية يهودية قوية تتحالف مع الأقلية المارونية الموالية لفرنسا لخلق مراكز نفوذ قوية للمصالح الفرنسية في المنطقة. [2] وفي الوقت الذي أخذت فيه بريطانيا تسعى جاهدة لمد سيطرتها على منطقة الشرق، كانت البرجوازية الإنجليزية لا تدخر وسعا في دعم مصالح دولتها الاستعمارية. وخير مثال على ذلك تمويل آل روتشيلد للصفقة التي عقدها رئيس الوزراء البريطاني دزرائيلي Dizzaeli لشراء أسهم قناة السويس من الخديوي إسماعيل، بالإضافة إلى قيامهم بتمويل العديد من المشاريع الاستيطانية اليهودية في فلسطين بغية إيجاد أقلية يهودية قوية يمكن لبريطانيا الاعتماد عليها في تثبيت دعائم مصالحها الاستعمارية في المنطقة.

وبالإضافة إلى سعي البرجوازية اليهودية وراء المكاسب المادية، فإنها

وجدت في إنشاء وطن يهودي في فلسطين وسيلة للتخلص من عبء فقراء اليهود الذين بدءوا يقدون إلى دول أوروبا الغربية بأعداد متزايدة وذلك من روسيا وبعض أجزاء أوروبا الشرقية. لقد أدركت البرجوازية اليهودية أنه من الصعب على هؤلاء المهاجرين الاندماج السريع في المجتمعات الغربية نظرا للحواجز اللغوية والثقافية مما أدى إلى خشيتها من أن تتولد بين الشعوب الأوروبية موجة من الكراهية العنصرية ضد اليهود بشكل عام. ولذلك فقد لجأت إلى إقامة مؤسسات وجمعيات بهدف تنظيم عملية تهجير فقراء اليهود وتوطينهم خارج القارة الأوروبية في فلسطين أو غيرها خشية أن يؤثر بقاؤهم في أوروبا الغربية على الحقوق والامتيازات التي كان يتمتع بها اليهود الغربيون.

ومما زاد من تخوف البرجوازية اليهودية ما كان يشاع في ذلك الوقت من اشتراك أعداد كبيرة من فقراء اليهود في الحركات الثورية والأحزاب اليسارية المناهضة للأنظمة الرأسمالية الغربية، وبدت هذه الظاهرة وكأنها تشكك في وطنية وإخلاص اليهود عامة للبلاد التي كانوا يعيشون فيها. وكان هذا في حد ذاته على ما يبدو عاملا هاما في دفع البرجوازية اليهودية للبحث عن «وطن» يهودي خارج القارة الأوروبية تتجه إليه هذه الهجرات.

وفي أعقاب ثورات عام 1848 في أوروبا أخذت البرجوازية اليهودية تستعمل المنطق القومي العنصري في دعوتها للاستيطان اليهودي في فلسطين مستعينة بنفس المبررات التي استعملتها الحركات القومية الأوروبية في تبرير نضالها آنذاك من أجل حريتها ووحدتها، بل وأخذت تكيل المديح لليهود كعنصر بشري استطاع المحافظة على نقاوته وتفوقه على العناصر البشرية الأخرى رغم جميع التحديات التي واجهها عبر العصور المتتالية. ولعل الهدف الذي كانت تسعى إليه البرجوازية اليهودية من وراء استعمالها لهذا المنطق هو غرس النزعة القومية العنصرية بين الجماهير اليهودية وحثهم على الهجرة إلى فلسطين.

وكان من أوائل أقطاب البرجوازية اليهودية الذين ساهموا مساهمة فعالة في إرساء دعائم الاستيطان اليهودي في فلسطين موسى مونتفيوري[3] 1784-1885 (Moys Montefiori) الذي قام بدعم من الحكومة البريطانية-برحلات متعددة لوضع مشروع واسع لتوطين اليهود في فلسطين.

ويبدو أن مونتفيورى كان يهمه أيضا كسائر أفراد البرجوازية اليهودية في الغرب تحويل مسار هجرات فقراء اليهود القادمة من أوروبا الشرقية صوب أرض «بعيدة» كفلسطين مثلا بدلا من أن تتجه إلى أوروبا الغربية وبريطانيا بالذات وتهدد وضع اليهود الطبقي والحضاري في البلاد التي يعيشون فيها. [(4)] وقد قام مونتفيورى عام 1839 بمقابلة محمد على (حكم فلسطين آنذاك) حيث حصل منه على وعد بمنحه امتياز استئجار أجزاء من أرض فلسطين (حوالي 200 قرية في منطقة الجليل) لمدة خمسين عاما حرة من الضرائب، والسماح بإرسال خبراء لتدريب اليهود على أعمال الزراعة والصناعة، وبالمقابل فقد تعهد مونتفيورى لمحمد على بإقامة شبكة من البنوك البريطانية في مدن مصر وسوريا وفلسطين الرئيسية. ولكن مونتفيورى اكتفى في النهاية بشراء بعض الأراضي وإقامة مزارع صغيرة في المناطق المجاورة ليافا والقدس وصفد. [(5)]

ومما يسترعى الانتباه هنا أن القوانين العثمانية كانت تنص بصراحة ووضوح على منع بيع الأراضي و العقارات في القدس وضواحيها لليهود. ونظرا لأن القدس لها «مكانتها المقدسة في التراث اليهودي وتستحوذ على مشاعر اليهود الدينية» فقد رأت بريطانيا في ذلك مبررا لتمارس ضغطا شديدا على الدولة العثمانية لتعديل القانون العثماني بحيث تصبح القدس مدينة مفتوحة لليهود يحق لهم استملاك الأراضي والعقارات فيها. وقد تحقق ذلك في عام 1849 حينما نجح مونتفيورى في الحصول على فرمان من السلطان عبد المجيد سمح بموجبه لليهود بشراء بعض الأراضي. وتمكن مونتفيورى عام 1855 نتيجة تدخل بريطانيا وفي أعقاب مقابلته للسلطان في الآستانة للمرة الثانية من الحصول على فرمان تسنى له بموجبه شراء أول قطعة أرض في القدس خارج سور المدينة القديمة. وبدلا من أن يقيم عليها مستشفى كما ورد في الفرمان، أقام مونتفيورى عليها أول حي سكني يهودي في فلسطين-وفي القدس بالذات-وعرف فيما بعد باسم «حي مونتفيورى». ولم تمض فترة قصيرة من الزمن حتى تم إنشاء العديد من الأحياء اليهودية في المدينة (بلغت ثمانية أحياء عام 1892). وكان الهدف الذي تسعى إليه بريطانيا من وراء ضغوطها المستمرة على الباب العالي للسماح لليهود بالتملك وشراء الأراضي في فلسطين وخاصة في القدس،

هو تشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين وبالرغم من ذلك فإن عدد اليهود في شطين عام 1856 لم يتجاوز 600, 10 نسمة. [6]

ونشط اليهود بمساعدة القنصليات الغربية في القدس وخاصة القنصلية البريطانية، في البحث عن أراض جديدة لاستصلاحها وشرائها. وقد تمكن متمولان يهوديان عام 1860 من الحصول على قطعتين من الأرض: الأولى حصل عليها شلومو يهودا بمساعدة القنصل البريطاني فين وكانت تشكل جزءا من أراضى قالونيا، والثانية حصل عليها اليهودي البرتغالي جوزيف ناسي وكانت تشكل جزءا من الأراضي الخصبة الممتدة حول بحيرة طبرية حيث أقام عليها مزرعة توت كبيرة. [7]

ومنذ بداية الستينات في القرن الماضي بدأ اليهود ينشئون الجمعيات لتشجيع الاستيطان في فلسطين. ففي عام 1860 تأسست جمعية الاليانس العالمية (الاتحاد اليهودي العالمي) Alliance Israelite Universelle بفرنسا بواسطة مجموعة من اليهود الفرنسيين كان على رأسهم ادولف كريمييه Adolphe Cremieux النائب اليهودي في البرلمان الفرنسي. وقد لعب فرع آل روتشيلد في فرنسا دورا بارزا في توجيه سياسات الاتحاد نحو خدمة المصالح الإمبريالية الفرنسية في منطقة الشرق العربي أيام حكم الإمبراطور نابليون الثالث.

وكان الهدف من إنشاء «الاليانس» العمل على تقديم المساعدة لليهود في كل مكان، والدفاع عن «الحريات المدنية والدينية لليهود وتنمية المجتمعات اليهودية المختلفة عن طريق التعليم والتدريب وإغاثة اليهود زمن الأزمات»[8] وما لبث نشاطها أن تقلص فيما بعد لينحصر في مساعدة اليهود في فلسطين والعمل على زيادة عددهم بكل وسيلة ممكنة. وفي عام 1868 تمكن كريمييه من الحصول على فرمان من السلطان العثماني تم بمقتضاه السماح للاليانس باستئجار 2600 دونم من أراضى قرية يازور القريبة من يافا وذلك لمدة 99 عاما. وفي عام 1870 أقامت الاليانس عليها أول مدرسة زراعية لليهود في فلسطين أطلق عليها اسم «مدرسة مكفية يسرائيل الزراعية».[9] Mikve Israel Agricultural School بتمويل من البارون ادموند دى روتشيلد والبارون موريس دى هيرش. وقامت هذه المدرسة بالتعاون مع خبراء صندوق استكشاف فلسطين بدراسات مكثفة للتربة وأنواع المزروعات التي تصلح

لها. كما ساهمت المدرسة في تدريب المهاجرين اليهود على أعمال الزراعة التي أصبحت سائدة بين غالبية سكان المستوطنات اليهودية. وقد نجحت الاليانس في إقامة عدة فروع لها في دول أوروبا الغربية. وفي عام 1871 انفصل الفرع الإنجليزي مكونا جمعيته الخاصة باسم «الجمعية الإنجليزية اليهودية Anglo Jewish Association

أما في عام 1878 فقد قامت مجموعة من يهود القدس بشراء 3375 دونما من أراضى قرية ملبس التي كان يمتلكها أحد تجار يافا من آل قصار. وتم تسجيل الأرض باسم يوئيل سلومون النمساوي الجنسية الذي كان يتمتع بحق الحماية من القنصلية النمساوية. وفي العام التالي وضع اليهود أيديهم بالطريقة نفسها على قطعة أرض مجاورة بلغت مساحتها 10 آلاف دونم. وقد أقام اليهود على هاتين القطعتين من الأرض مستوطنة بتيح تيكفا (باب الأمل)Petah Tikvah التي أطلق عليها لقب أم المستوطنات.

ولم يقتصر دور البرجوازية اليهودية على المساهمة المادية في إنشاء المؤسسات والجمعيات وتمويل بعض المستوطنات الزراعية في فلسطين وإنما لجأت إلى سلاح فعال وهو تبني كوادر فكرية يهودية تعمل في خدمتها وتعبر عن مصالحها من خلال استثمار قوة الكلمة بأبعادها الدينية والقومية والاقتصادية بين أوساط يهودية فقيرة بائسة لا تعي سوى دلالات الكلمة الظاهرية.. وكانت هذه الأوساط بالتالي أول ضحية من ضحايا الوهم الصهيوني الاستعماري.

القلعي:

من أوائل المفكرين الذين عملوا ضمن إطار البرجوازية اليهودية الحاخام يهودا القلعي [10] 1878 -1798(Yehuda Alkalai). كان القلعي ينتمي في مطلع حياته إلى الفئة التقليدية المحافظة من اليهود. فولادته ونشأته تمت في كنف أسرة يهودية متدينة كانت تحتل مركز الزعامة الروحية بين يهود الصرب. وقد أمضى القسط الأكبر من صباه في مدينة القدس حيث تأثر هناك بالنزعة الصوفية اليهودية المسماة بالكابالاه [11] Cabala والتي وفرت له دراسة عميقة للتلمود وتفسيراته الباطنية التأويلية. وفي عام 1825 تم اختياره حاخاما للطائفة اليهودية في سملين عاصمة الصرب آنذاك، ثم

انتقل منها فيما بعد ليصبح حاخام الطائفية اليهودية في زيمون بالقرب من يوغسلافيا.

مارس القلعي أول نشاط سياسي له خلال أحداث البلقان حين أصدر نداء للطوائف اليهودية يطالبها بتأييد ودعم الشعوب البلقانية في ثورتها ضد الحكم العثماني.[12] وقد استغل هذه اليقظة القومية في البلقان ليتخذ منها في كتابه اسمعي يا إسرائيل الصادر عام 1834 نموذجاً ليهود العالم كي يقتدوا به ويعملوا بمنتهى «التصميم» و«الجدية» من أجل تحقيق العودة إلى «أرض الأباء» في فلسطين. ودعا إلى البدء فورا ببناء المستوطنات اليهودية في فلسطين تمهيداً لإقامة دولة «بنى اسرائيل»[13] عليها دون أي انتظار لمجيء المسيح المخلص المنتظر. وقد أشار إلى ذلك بقوله: «... لقد أمر الله تبارك اسمه بان تتم توبتنا عن طريق يقظتنا لكي نرفع من قيمتنا لديه.. وعندما يرى الله رغبتنا في التوبة تمجيداً لاسمه... حتى ولو تم ذلك يحجم خرم الإبرة، فإنه سيرسل لنا نجدته ويفتح الباب على مصراعيه ثم يزيدنا عدداً وعدة... ولهذا لا يمكننا الانتظار حتى يظهر المسيح... ويعيدنا إلى أورشليم-القدس..»[14] ونظراً لأن هذه الفكرة كانت تتعارض مع المفهوم الديني السائد، فقد استغل القلعى مكانته الدينية وأخذ يستعين بواحدة من الأساطير الصوفية التي كانت تنص على أن مسيحاً آخر سيسبق المسيح المنتظر ويقود اليهود في حروب «يأجوج ومأجوج» لفتح فلسطين عنوة وذلك على ما يبدو في محاولة منه للتغطية على هذا التعارض. وقد دعا القلعي إلى قيام هجرات يهودية جماعية إلى فلسطين مشيراً إلى أن المسيح الآخر سيظهر من بين هؤلاء المهاجرين الرواد. وكان القلعي يطمع من وراء استخدام مثل هذه الأساطير أيضا إلى كسب تأييد الفئات اليهودية المتدينة المحافظة لدعوته الاستيطانية، وفي نفس الوقت كان يهمه بالطبع إرضاء الفئات اليهودية العلمانية بغية المحافظة على تآلف ووحدة العمل اليهودي«من أجل صهيون».

وفى عام 1839 أعلن القلعى أنه توصل-بناء على حسابات أجراها بموجب علما الكابالاه-إلى نتيجة مفادها أن عام 1840 سيكون عام «الخلاص اليهودي»والعودة إلى«أرض الميعاد» ولذا فإنه أخذ يحث اليهود وخاصة الفقراء منهم في أوروبا الشرقية على الإسراع في الهجرة إلى فلسطين

تحت لواء «المسيح الإنسان» استعداداً لمجيء المسيح المنتظر. ولعله ليس من قبيل الصدفة أن تجيء هذه النبوءة في الوقت الذي بدأ فيه محمد علي يتراجع عن فتوحاته في بلاد الشام أمام ضغوط بريطانيا وحلفائها، وفي الوقت الذي بدأ فيه الاستعداد لعقد مؤتمر لندن-65- عام 1840،حيث كان من ضمن البنود المقترحة على جدول أعمال المؤتمر بند يتعلق بإمكانية إنشاء دولة يهودية في فلسطين لحماية الشرق العربي من خطر أي محاولة وحدوية جديدة تنبع من مصر. ومما يسترعي الانتباه أيضا أن تجئ هذه النبوءة في أعقاب زيارة قام بها القلعي لعدد من دول أوروبا الغربية وفي مقدمتها بريطانيا، حيث حظي بمقابلة بعض المسؤولين فيها وبمقابلة عدد من رجال المال اليهود.

ولعل في هذا ما يبرر اتهام القلعي بأنه كان يستغل المعتقدات الدينية لدى الفئات اليهودية الفقيرة المحافظة بغية تشجيعها على الهجرة إلى فلسطين لخدمة مصالح الإمبريالية الغربية والبرجوازية اليهودية. ولدى انفضاض مؤتمر لندن دون تبنيه لمشروع الدولة اليهودية، وبالتالي فشل نبوءة القلعي بحلول«الخلاص اليهودي» لجأ هذا الحاخام اليهودي إلى تبني فكرة جديدة أسماها فكرة«الخلاص الذاتي التدريجي». وكان المقصود بهذه الفكرة العمل على بناء كيان يهودي في فلسطين بشكل منظم وتدريجي لا بشكل عفوي ومفاجئ. وقد ألقى بمسؤولية إنشاء وتمويل المستوطنات اليهودية على عاتق أقطاب المال اليهود، في حين يقوم فقراء اليهود بتقديم العنصر البشرى اللازم لعملية الاستيطان، وقد أوضح ذلك بقوله: «... يتوجب علينا بناء البيوت وحفر الآبار وزرع أشجار الكرمة والزيتون. وإنه لأمر في غاية الأهمية أن يظل أغنياء اليهود يعيشون في أرض الشتات وذلك لإمداد إخوانهم المستوطنين بما يحتاجونه من عون ومساعدة... إننا لا نستطيع الهجرة على نطاق واسع وذلك كي لا نصبح في النهاية مثل البدو مبعثرين في الخيام في مختلف أرجاء الديار المقدسة.. الخلاص يجب أن يتم بأناة والأرض يجب أن يتم بناؤها وإعدادها وتحضيرها بالتدريج».[15] وقد أشار القلعي أيضا إلى أهمية بقاء أغنياء اليهود في الدول الكبرى لما يمكن أن يقوموا به من دور في توفير الحماية للمستوطنين اليهود مستغلين بذلك نفوذهم لدى الحكومات الأوروبية ومقدرتهم على

حث هذه الحكومات للتدخل لدرء أية أخطار قد يتعرض لها هؤلاء المستوطنون في فلسطين. (16)

أما بالنسبة للبرنامج الذي وضعه القلعى«للخلاص الذاتي التدريجي» فقد اشتمل على البنود التالية:

1- الدعوة إلى عقد جمعية يهودية عامة Great Assembly تكون مهمتها إرساء دعائم تنظيم يهودي شامل تتولى إدارته ورعاية شؤونه مجموعة من حكماء اليهود، يتم اختيارهم بواسطة «أولئك الأقطاب الذين يستفيد الجميع من نفوذهم»يقصد بهم بالطبع الأثرياء اليهود. ويقوم مجلس حكماء اليهود بالإشراف على عملية «استعادة» فلسطين عن طريق القيام باستعمارها وإنشاء المؤسسات الاستيطانية فيها. (17)

2- إنشاء صندوق قومي يهودي لجمع المساعدات والتبرعات المالية من أثرياء اليهود وغيرهم لتمويل إنشاء المستوطنات في فلسطين والبدء بعملية تهجير فقراء اليهود للاستقرار فيها والعمل على شراء المزيد من أراضيها على أن تكون ملكيتها باسم «الشعب» اليهودي بأجمعه. وقد تبنى الصندوق القومي اليهودي الذي تأسس عام 1901 الأفكار الرئيسية التي وضعها القلعى لنشاط هذا الصندوق.

3- إقامة صندوق آخر للإشراف على جمع الضرائب من المستفيدين من عملية الاستيطان كما أشار القلعي إلى ضرورة تحصيل نسبة معينة من الضرائب من باقي الفئات اليهودية المستقرة في أرض الشتات لقاء الحماية التي يوفرها لهم مجلس حكماء اليهود في مواطن سكناهم.

4- الحصول على قرض قومي تشارك في دفعه مختلف الفئات اليهودية لاستثماره في إقامة عدد من المشاريع العامة في فلسطين مقابل نسبة مئوية معينة من الفائدة. (18)

ولتنظيم عملية استثمار الأرض الفلسطينية، دعا القلعى البرجوازية اليهودية إلى تأسيس شركة مساهمة استيطانية تقوم ببذل محاولات «لشراء» فلسطين من السلطان العثماني أو على الأقل الحصول على حق استغلالها لمدة معينة مقابل أجر سنوي، ومما قاله في هذا الصدد «.. أطلب من إخوتنا إنشاء شركة على غرار شركات التأمين ضد أخطار الحريق وشركات السكك الحديدية، وتتوجه هذه الشركة إلى السلطان العثماني لإقناعه بأن

يعيد إلينا أرض أسلافنا مقابل مبلغ من المال أو مقابل أجر سنوي. وبمجرد أن يتم إعادة بعث اسم اسرائيل فوق أرضنا فإن اليهود على مختلف مشاربهم سيهبون لمساعدة هذه الشركة بكل وسيلة ممكنة. وبالرغم من أن هذه المجازفة ستبدأ بداية متواضعة إلا أن مستقبلها سيكون بالتأكيد مستقبلا عظيما». [19] ومن الجدير بالملاحظة أن اقتراح القلعي باستئجار فلسطين لمدة معينة قد جاء مباشرة في أعقاب محاولة بالمرستون، وزير خارجية بريطانيا آنذاك الحصول من الدولة العثمانية على حق حماية اليهود المقيمين في فلسطين لمدة عشرين عاما. ولعل هذا التجاوب في المواقف بين القلعي وبالمرستون ليس من قبيل الصدفة المحضة لا سيما أنها تكررت أكثر من مرة.

ركز القلعي اهتماماته في أواخر أيامه على إحياء اللغة العبرية وتوحيد استعمالها لأنه على حد تعبيره« .. لن يكتب البقاء والاستمرار لأية أمة دون وجود لغة مشتركة لديها ..» وانطلاقا من هذا الموقف قام بوضع كتاب لتدريس اللغة العبرية وقواعدها. وفي عام 1874 هاجر القلعي إلى القدس حيث بقي هناك حتى وفاته عام 1878.

كاليشر:

وفي هذا السياق أيضا يلقانا الحاخام تسفي كاليشر. Kalischer Zvi H (1795- 1874) وهو من أكثر المفكرين اليهود الذين تركت آراؤهم آثاراً عميقة وواضحة في الفكر الصهيوني بالرغم من أن اهتماماته الصهيونية جاءت متأخرة نسبيا عن سابقه القلعي. نشأ كاليشر في إحدى المقاطعات البولندية الغربية التي كانت خاضعة للسيطرة البروسية عام 1793 وقد تلقى دراسة دينية تقليدية في المدارس اليهودية في مدينة بوزن Bosn ثم انتقل منها إلى مدينة ثورن Thorn حيث تولى حاخامية الطائفة اليهودية فيها طيلة أربعين عاما. كانت المنطقة التي عاش فيها كاليشر مسرحا للأفكار القومية والثورات التحررية التي كان يقوم بها الشعب البولندي بغية إنقاذ بلاده من السيطرة الأجنبية وإعادة بناء دولته الموحدة. ففي زمنه حدثت ثورتان عنيفتان في القسم الروسي من بولندة، الأولى عام 1830- 1831 والثانية عام 1863، وسيبدو أثر هذه الأفكار والحركات القومية على آراء كاليشر لدى استعراض أهم

معالم فكره الصهيوني.

باشر كاليشر نشاطه السياسي مع ظهور الحركة اليهودية الإصلاحية[20] Reform Judaism حيث رفض دعوتها الرامية إلى التخلي عن التقاليد اليهودية المتوارثة وعن حق اليهود في «العودة» إلى فلسطين. ففي الوقت الذي كان فيه الإصلاحيون يفسرون مفهوم «العودة» على أنه عودة اليهودي إلى تبنى القيم الأخلاقية والاندماج في المجتمع الذي يعيش فيه، نجد كاليشر يشدد على ضرورة ارتباط اليهودي بأرض فلسطين ويدعو إلى الاستيلاء عليها بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك.

إن خلاص اليهود في رأى كاليشر لا يمكن أن يتم إلا بعودة اليهود أولا إلى فلسطين،وهذه العودة لا بد أن تسبق مجيء المسيح المنتظر، وكلما تأخرت العودة كلما تأخر مجيئه وبالتالي تأخر الخلاص اليهودي. وقد انتقد كاليشر صراحة المفهوم الديني الذي كان سائدا بين غالبية الفقراء اليهود القائل بأن المسيح المنقذ سيظهر لتخليص اليهود من «محنتهم» طالما حافظوا على تأدية صلواتهم وإقامة الطقوس الدينية المفروضة عليهم. إن مجيء المسيح وخلاص اليهود-كما أوضح كاليشر-رهن بتجميع أنفسهم في «أرض إسرائيل» والعمل بمنتهى الجدية والإخلاص في تطهير أرضها من مختلف الشوائب التي علقت بها عبر القرون الماضية. ومما قاله في هذا المجال: «عزيزي القارئ، ألق جانبا الفكرة التقليدية القائلة بأن المسيح سينفخ بالبوق العظيم فترتعد منه كل الأرض. إن الخلاص لن يبدأ إلا بمساندة المحسنين وبكسب موافقة الأمم على لم شمل بعض الإسرائيليين في الأرض المقدسة»[21] ويلاحظ هنا حرص كاليشر على تأمين «موافقة الأمم» لهجرة اليهود إلى فلسطين وهى تعني بعبارة أخرى تأمين حماية وتأييد القوى الإمبريالية الكبرى التي تصبح موافقتها أمرا أساسيا في هذا المجال. كما يلاحظ أيضا تكرار تعبير «لم شمل بعض الإسرائيليين» وهذا يشير إلى إدراك كاليشر لضرورة استثناء مجموعات يهودية من الهجرة إلى فلسطين لتظل مصدر تموين ودعم للكيان اليهودي والمقصود بهذه المجموعات بالطبع الفئات البرجوازية اليهودية التي كان بمقدورها توفير التموين والدعم اللازمين.

وكعادة غالبية رواد الفكر الصهيوني حين كانوا يبدءون نشاطهم العملي

بالكتابة إلى ثري يهودي أو زعيم إمبريالي، فان كاليشر قام عام 1836 بتوجيه رسالة إلى ميير روتشيلد Meyer Rothschild رئيس فرع أسرته في برلين مقترحا عليه أن تقوم أسرته بشراء فلسطين من محمد علي حاكمها في ذلك الوقت، لإقامة مستوطنات للمهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية. ومما ورد في هذه الرسالة قول كاليشر «... إن بداية الخلاص سوف تأتي عن طريق أسباب طبيعية نتيجة للجهد الإنساني وعن طريق إرادة الحكومات لجمع شمل إسرائيل المبعثرة في الأراضي المقدسة». [22] ولكن كاليشر لم يحظ بأي رد على رسالته. ويمكن تفسير عدم استجابة آل روتشيلد في برلين لطلب كاليشر بسبب عدم وجود مصالح استعمارية لألمانيا في المنطقة آنذاك، فهي كانت لا تزال تعاني من التجزئة السياسية التي لم تنته إلا بقيام الاتحاد الألماني عام 1871 على يد بسمارك، وهذا بالطبع إن دل على شيء فإنما يدل على أن البرجوازية اليهودية لا تقدم على أية مغامرة سياسية أو اقتصادية ما لم تكن واثقة من دعم الدولة التي تعيش في كنفها لمثل هذه المغامرة.

توجه كاليشر بعد ذلك صوب بريطانيا حيث دعا زعماء البرجوازية اليهودية فيها لبذل المزيد من الدعم لتوطين اليهود في فلسطين مقابل قيامه هو وزملاؤه من الزعماء الدينيين للطوائف اليهودية بممارسة الضغوط للتأثير على فقراء اليهود في وسط وشرق أوروبا لتشجيعهم على الهجرة إلى «أرض الميعاد».

وفى عام 1862 نشر كاليشر كتابه «البحث عن صهيون» Derishat Zion حيث أفرد الجزء الأكبر منه للحديث عن قدسية العمل اليدوي وأهمية الاستيطان الزراعي في فلسطين. وكان لهذه الأفكار أكبر الأثر على جماعة أحباء صهيون فيما بعد. وقد وصف كاليشر في كتابه هذا حالة اليهود في أوروبا الشرقية وصفا مأساويا يمثل منتهى البؤس والشقاء والتعاسة،غير أنه اعتبر ذلك امتحانا للإيمان وبداية لحدوث الخلاص الطبيعي عن طريق التطوع للذهاب إلى فلسطين بقصد الاستيطان والإقامة الدائمة فيها. وقد أشار إلى ذلك بقوله «... نعلم جميعا أن طريقة عبادتنا الله تتم بتجارب يمتحننا الله بها. فعندما خلق الله الإنسان زرع بجانبه شجرة المعرفة وأمره بألا يتذوقها. فلماذا وضع الله شجرة في الفردوس وتختبر الإنسان لو لم

يقصد الله تجربة الإنسان ؟ وعندما غادرت إسرائيل بلاد مصر امتحنها الله بالجوع والعطش... منذ أن تشتتنا ونحن نستشهد في سبيل الله. لقد شردنا من أرض إلى أرض وتحملنا نير النفي عبر العصور من أجل اختبار إيماننا» [23] وفي معرض حديثه عن الخلاص الطبيعي قال: «... عندما يتطوع يهود كثيرون ورعون للذهاب إلى أرض فلسطين والسكن في القدس بدافع الرغبة للخدمة ولروح الطهارة والقدسية وحينما يذهب هؤلاء أفرادا وأزواجا من أطراف الدنيا الأربعة ويستقرون هناك وتتزايد صلواتهم على جبال القدس، عند هذا فقط يسمح الله لهم ويسرع في يوم خلاصهم». [24]

لقد تعرض كاليشر لمعارضة قوية في أوساط المتدينين المحافظين الذين كانوا يرون أن العمل على إقامة دولة يهودية قبل مجيء المسيح المنتظر يعتبر كفرا، فإقامة مثل هذه الدولة وتجميع اليهود فيها يمثلان نوعا من «الضغط» على المسيح المخلص و «إجباره» على الظهور قبل الأوان الذي حدد له، وبالتالي «الإسراع في نهاية العالم»[25] غير أن كاليشر شن حملة شعواء على معارضيه مصرا على أن العمل في الفلاحة والزراعة هو السبيل الدنيوي والحافز الأول للوصول إلى الخلاص المرتقب والأخير. وكان مما قاله في هذا الصدد: «.. سيؤدى العمل الزراعي اليهودي للوصول إلى الخلاص... الخلاص الذي وعد به المسيح المنتظر. وإذا ما قدمنا الجهد للأرض بهذه الطريقة الدنيوية فستظهر لنا علامات الخلاص تدريجيا.. هذه السياسة أيضا ستعمل على كسب احترام الأمم الأخرى إذ إن أبناءها سيقولون إن بني إسرائيل لديهم الإرادة أن ينقذوا أرض أجدادهم التي أصبحت مهملة وقاحلة». [26] ولعل في تركيز كاليشر على العمل الزراعي اليدوي محاولة منه للتخلص من الوصمة التي ألحقت باليهود في أوروبا بأنهم ليسوا «أمة» نظرا لأنهم ا دأبوا على الابتعاد عن العمل اليدوي وبالتالي فإنهم لا يدركون معنى الأرض وقيمة الارتباط بها.

وكان من ضمن الآراء التي تضمنها كتابه، دعوته إلى عقد مؤتمر عام لزعماء اليهود وأثريائهم بهدف تأسيس «جمعية استيطان أرض إسرائيل» تكون مهمتها «تشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين عن طريق شراء الأراضي وبناء المستوطنات». [27] وقد رفع كاليشر شعار «القومية اليهودية» في محاولة منه لإقناع اليهود بالهجرة إلى فلسطين لبناء «الدولة القومية

اليهودية». ومما قاله بهذا الشأن: «لماذا يضحي شعب إيطاليا وشعوب أقطار أخرى بحياتهم من أجل أرض آبائهم، بينا نحن نتصرف كرجال حرموا من القوة والشجاعة لا نفعل شيئا ؟ هل نحن أقل شأنا من جميع الشعوب الأخرى التي لا تعير اهتماما للحياة والمال بالمقارنة مع حبها لأرضها وأمتها ؟ يجب علينا أن نخجل من أنفسنا لأننا لا نعمل على إحياء ذكرى آبائنا وتمجيد إلهنا الذي اختار صهيون سكنا له..»[28]

ولم يكن نشاط كاليشر محصورا في نطاق الآراء والنظريات وإنما تعدى ذلك ليشمل نشاطا عمليا في مجال الاستيطان. فقد ساهم عام 1860 بالتعاون مع حاييم لورى Hayyim Luri في تأسيس جمعية استيطان يهودية في فرانكفورت عام 1860 وأخرى في عام 1864 في برلين باسم «جمعية استعمار أرض إسرائيل». كما نجح كاليشر عام 1868 في التأثير على مجموعة من أثرياء اليهود لشراء قطعة الأرض التي أقيمت عليها «مدرسة مكفية إسرائيل الزراعية». وقد اقترح كاليشر إنشاء جماعات حراسة تجمع بين العمل الزراعي والعسكري لحماية المستوطنات اليهودية من أي خطر يتهددها، خاصة من جانب السكان المحليين (وهم بالطبع العرب) الذين وصفهم «باللصوص» ودعا إلى استعمال السلاح «دفاعا» عن المستوطنات حتى لو اقتضى ذلك إرسال فرق يهودية مسلحة إلى ملاحقة «اللصوص العرب» في العمق العربي خارج حدود فلسطين. والغريب أن هذا المنطق نفسه لا تزال تستعمله «إسرائيل» في تبرير توسعها الاستيطاني وذلك بشن ما يسمي «الحروب الوقائية» في العمق العربي بحجة القضاء على «المخربين العرب» وهم في الحقيقة السكان الأصليون الذين شردوا من أراضيهم.

وهكذا تتضح في آراء كاليشر جميع مظاهر أيديولوجية العمل الصهيوني من تحالف مع القوى الإمبريالية واعتماد على البرجوازية اليهودية لتوفير الحماية اللازمة للوجود الصهيوني في فلسطين بالإضافة إلى تفريغ البلاد من سكانها الأصليين بحجة «الدفاع عن النفس» وإتاحة الفرصة «للشعب اليهودي المتمدن» صاحب «الرسالة الحضارية» أن يستقر في هذه المنطقة «الموحشة المتخلفة». لقد صور كاليشر هذه المنطقة كما صورها القلعي من قبل بأنها أرض خربة مقفرة وأن العناية الإلهية اختارت اليهود ليقوموا

«بزراعتها وتحسينها ونقل الحضارة إليها»... [29] إنه نفس المنطق الإمبريالي الذي استعمل لتبرير احتلال واستعمار أراضى الغير سواء أكان ذلك في روديسيا أم جنوب أفريقيا أم فلسطين.. نفس الاحتلال ونفس المنطق !

يعتبر القلعي وكاليشر رائدي الصهيونية الدينية التي نجحت في طرح المفاهيم الصهيونية السياسية الاستيطانية بمفاهيم دينية بغية استقطاب تأييد ودعم الجماهير اليهودية الفقيرة المتدينة والمتركزة في روسيا وشرق أوروبا، لمثل هذه المفاهيم. ولذلك فلا عجب إذا وجدنا يهود روسيا يشكلون المادة البشرية الفعالة لعملية الاستيطان اليهودي في فلسطين. لقد استوعبت هذه الفئات اليهودية فكرة «العودة» إلى فلسطين على أنها جزء من الفرائض الدينية لا سيما أن تعاليم القلعي وكاليشر كانت تنص على أن عودة المسيح المنتظر لا تتحقق إلا بهجرة أعداد كافية من اليهود إلى فلسطين للعمل في أرضها وبناء المستوطنات الزراعية فيها. وكان أن تركت هذه التعاليم، آثارها الواضحة على جماعة أحباء صهيون التي لعبت دورا بارزا في ازدياد حجم الهجرات اليهودية إلى فلسطين في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي. وقد كان لآراء القلعي وكاليشر ونشاطاتهما العملية بين فقراء اليهود أكبر الأثر في خدمة أهداف القوتين المتحالفتين الإمبريالية الغربية والبرجوازية الصهيونية من أجل تهيئة السبل لإرساء دعائم النهج الصهيوني الاستيطاني في فلسطين.

هس:

أما المفكر اليهودي الذي ترك انطباعا عميقا في الفكر الصهيوني فهو بلا شك موزس هس 1875- 1812 (Moses Hess). نشأ هس[30] نشأة دينية تقليدية مثل غالبية من سبقه من المفكرين اليهود. فقد حصل على قسط وافر من الثقافة التلمودية في مدينة بون بألمانيا، ودرس اللغة العبرية على يدي جده الذي كان يعده ليصبح حاخاما لإحدى الطوائف اليهودية الألمانية. غير أنه ما لبث حين بلوغه سن الرشد أن ابتعد عن التقاليد اليهودية الدينية وانكب على دراسة العهد الجديد والفلسفة والتاريخ والآداب الفرنسية والإنجليزية. وفي عام 1835 التحق بجامعة بون حيث أمضى معظم وقته في دراسة الفلسفة ونشأت علاقة وثيقة لفترة وجيزة بينه وبين كارل ماركس

الذي كان طالبا في الجامعة آنذاك.

كان من جملة المفكرين الذين تأثر بهم هس الفيلسوف اليهودي بينيدكت سبينوزا، Benedict Spinoza[31] وقد تبنى الكثير من آرائه خاصة في كتابه الأول الذي أصدره هس باسم مستعار (أحد أتباع سبينوزا) وعنوانه تاريخ الإنسانية المقدس The Sacred History of Mankind. ويلاحظ في هذا الكتاب تمجيد هس للدين المسيحي واعتباره دين العصر الذي سيوحد بين الشعوب، في حين أن الدين اليهودي يسعى فقط لتوحيد «شعب» واحد دون غيره من الشعوب وفي مطالبته بتخلي اليهود عن «أسطورة شعب الله المختار»، يتضح تأثر هس بفكرة سبينوزا القائلة بأن الإله مرتبط بجميع شعوب الإنسانية، وشعب الله المختار هو هذه الشعوب جميعا حين تنبذ خلافاتها وأحقادها وتتوحد شعبا إنسانيا واحدا. وقد دعا هس اليهود إلى الاندماج في الحياة الأوروبية الحديثة كي لا يظلوا تائهين في الدنيا «شعب أشباح» يتجول عبر القرون التاريخية «روحا بدون جسد».[32]

بدأ هس نشاطه السياسي عام 1840 بانضمامه للحركة الاشتراكية الأوروبية حيث أخذ يتعاون مع ماركس وانجلز في تنظيم الحركات العمالية بألمانيا، غير أنه ما لبث أن اختلف معهما بعد صدور البيان الشيوعي.[33] وقد غادر هس ألمانيا في أعقاب ثورة عام 1848 بعد أن صدر عليه حكم الإعدام نتيجة اشتراكه في الثورة، وأمضى ما تبقى من حياته متنقلا بين دول أوروبا الغربية متخذا من فرنسا مركزا لإقامته.

وفي عام 1862 أصدر هس كتابه المشهور باللغة الألمانية تحت عنوان «بعث إسرائيل» The Revival of Israel وما لبث الكتاب أن أصبح يعرف فيما بعد باسم «روما والقدس» Rome and Jerusalem. والغريب أن معظم ما تضمنه هذا الكتاب من آراء وأفكار جاء مناقضا تماما لما كان نادي به هس من قبل. وهذا ما جعل الكثير من اليهود يشككون بادئ الأمر في مدى جدية ما طرحه عليهم من التفسيرات والاجتهادات والأهداف التي كان يسعى لتحقيقها من وراء ذلك.

جاء الكتاب على شكل رسائل وملاحظات موجهة إلى سيدة مجهولة فقدت إنسانها الذي أحبته وتسلل اليأس إلى قلبها فجاء من يواسيها ويبعث الأمل في حياتها. ويبدو أن هس كان يتخذ من هذه السيدة المجهولة رمزاً

«للشعب اليهودي» ومن ذلك الحبيب التائه رمزاً «لأرض الميعاد» وحصيلة هذه الرسائل والملاحظات كانت البحث في أفضل السبل لإعادة الجمع بين السيدة وحبيبها أو بتعبير آخر «إعادة» الصلة بين اليهود وفلسطين. ولقد تضمنت هذه المعادلة الاستعمارية التي وردت على شكل صورة رومانسية، أهم أسس العقيدة الصهيونية والكثير من الأفكار التي تبنيها فيما بعد المنظمة الصهيونية العالمية.

استهل هس كتابه بقوله « ... كانت غربة طويلة استمرت ما يزيد على العشرين عاما ... وعدت بعدها إلى شعبي وأهلي لأشارك من جديد في أفراحهم وأحزانهم، آمالهم وذكرياتهم... تلك المشاعر التي خلت نفسي قد نجحت في كبتها عبر السنين الطويلة، بعثت إلى الحياة من جديد ... إنها المشاعر المستمدة من قوميتي التي ترتبط بتراث أجدادي وبالأرض المقدسة الخالدة... والقدس».[34]

وانتقل هس بعد ذلك إلى الحديث عن الأسباب التي جعلته يتخلى عن غربته إلى «شعبه»، فأشار إلى أن مبعث ذلك هو ازدياد حدة «المعاناة اليهودية» نتيجة اشتداد النزعة (اللاسامية) في ألمانيا و (اللاسامية) الألمانية-في رأي هس-كانت تعكس كراهية الألمان لا لليهود كدين فقط وإنما لليهود «كعنصر أو كعرق» أيضاً، وبالتالي فإن المحاولات التي كانت تقوم بها بعض الفئات اليهودية للاندماج في المجتمع الألماني اعتبرها هس محاولات عقيمة وعديمة الجدوى لن تنقذ اليهود من «معاناتهم». ومما قاله بهذا الصدد « ... حتى تخلي اليهود عن دينه لن يخفف من وطأة الضغط الهائل الواقع عليه من جراء (اللاسامية) الألمانية. إن كراهية الألمان للعرق اليهودي هي الأساس... ولذلك فليس باستطاعة الإصلاح أو التنصر أو الثقافة أو التحرر أن تفتح أبواب المجتمع الألماني لليهود حتى لو تنكروا لعرقهم... سيظلون دائما غرباء... إن الأنوف اليهودية لا يمكن تغييرها، كما أن الشعر الأسود المجعد لا يمكن تحويله إلى شعر أشقر أملس».[35] وانتقل هس بعد ذلك ليقول: « ... من الممكن أن تتحرك المشاعر الإنسانية لدى بعض الشعوب الأوروبية فتحررنا ولكنها لن تحترمن طالما ظل مبدؤنا هو أن موطن المرء حيث ينتفع». وتوصل في النهاية إلى أن لب المشكلة اليهودية هو «اللامأوى» أي عدم وجود وطن لليهود كباقي الشعوب الأخرى، ولذلك فإن استمرار

اليهود بدون أرض سيدفع بهم في النهاية إلى مستوى الطفيليات التي تعتمد في قوتها على الآخرين.[36]

ويلاحظ أن معظم معاصري هس من المفكرين الأوروبيين الاشتراكيين كانوا يتحدثون عن معاناة مختلف الطبقات العاملة والفقيرة في شتى المجتمعات الأوروبية الرأسمالية ولم يعيروا قضية (اللاسامية) اهتماما كبيرا ولم تشكل بالنسبة إليهم قضية مصيرية. ورأوا أن رفع الظلم عن كاهل جميع هذه الطبقات سواء أكانت يهودية أم غير يهودية يتحقق عن طريق الإتيان بحكومات شعبية حقيقية، وأما التركيز على المعاناة التي تعرضت لها فئات فقيرة معينة لكونها يهودية دون الاهتمام بالفئات الفقيرة الأخرى غير اليهودية فهذا في حد ذاته تشجيع غير مباشر للنزعة (اللاسامية) وتعميق لجذورها في المجتمعات الأوروبية.

أما الحل الذي اقترحه هس لمعاناة فقراء اليهود أو ما سمي «بالمسألة اليهودية»، فكان العمل على تهجير هذه الفئات خارج أوروبا صوب فلسطين، أو بتعبير آخر تبني المشروع الصهيوني الذي شجعته البرجوازية اليهودية التي كانت تسعى للتخلص من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن سوء أوضاع الفئات اليهودية الفقيرة التي كانت تفد إلى دول أوروبا الغربية من روسيا وباقي أجزاء أوروبا الشرقية. كما أن نجاح تطبيق هذا الحل بإنشاء كيان يهودي سياسي في فلسطين تحت حماية إحدى الدول الأوروبية الكبرى يهيئ المجال لوجود مستوطنين عملاء لتلك الدولة الكبرى يتفانون في خدمة مصالحها الاستعمارية ويدرءون عنها أية أخطار تحدق بها. وبالإضافة إلى ذلك، فان هذا الحل الذي كان يتفق ومصالح الإمبريالية الغربية والبرجوازية اليهودية، تتوفر فيه إمكانية القضاء على مبررات وجود النزعة (اللاسامية) التي كان من الممكن-على حد تعبير هس-أن تؤثر على مصالح الفئات البرجوازية اليهودية، ومما أورده هس حول هذا الموضوع قوله: « ... إن الأمم المسيحية لن تعارض إطلاقا إنشاء وطن لليهود في فلسطين طالما أن ذلك يضمن لها التخلص من شعب غريب شاذ يسبب لها مشاكل كثيرة». [37]

ومن أجل إثارة اهتمام وحماس الفئات اليهودية الفقيرة للمشروع الصهيوني لجأ هس إلى استغلال أسلحة البرجوازية الاستعمارية التي

كانت سائدة في ذلك العصر. [38] وكان من أهم تلك الأسلحة: القومية الشوفينية المتعصبة، وأسطورة الجنس النقي، والرسالة الحضارية التمدينية. فبالنسبة لاستعمال سلاح «القومية اليهودية» فإن هس تصور أنه يمكن بواسطته التخلص من أي صراع أو«سوء فهم» قد يحدث بين الفئات اليهودية الفقيرة وتلك الفئات اليهودية البرجوازية وذلك بما توفره الرابطة القومية من أرضية مشتركة لهذه الفئات بحيث تفتح أمامها آفاق التعاون المشترك. وقد عبر هس عن ذلك بقوله: «ستجتمع الطبقات اليهودية جميعها على الأرض المشتركة للقومية اليهودية سواء التقليدية منها أم التقدمية، الغنية أم الفقيرة.» وبقوله أيضا: « ... إن تعميق مفهوم الأرض القومية المشتركة يوفر الركيزة الأساسية لإقامة علاقات أفضل وأكثر تقدمية بين الأغنياء والفقراء من اليهود». [39] وقد استغل هس المعتقدات الدينية خاصة بين يهود أوروبا الشرقية، لحثهم على الهجرة إلى فلسطين واعتبار ذلك بمثابة فريضة دينية، تماما كما فعل كاليشر حين أكد أن لا مجيء للمسيح المنتظر ما لم يبدأ اليهود مسيرة «العودة» إلى فلسطين «لتحريرها» بأية وسيلة ممكنة والإعداد لمجيء المسيح. [40] وتساءل هس لم لا يكون لليهود الحق في «تحرير وطنهم» كباقي الشعوب الأوروبية وساق تجربة الشعب الإيطالي مثالا على ذلك، ودعا إلى اتخاذ هذه التجربة التحررية الوحدوية نموذجا لليهود كي يحتذوا بها. [41]

أما بالنسبة للعنصرية فإن هس اعتبر العالم مكونا من عناصر وأعراق بشرية. كل عنصر أو عرق يتميز عن الآخر بخصائص عقلية وفسيولوجية لا تتغير بتغير الظروف البيئية والتاريخية وهذه الأعراق مرتبة ترتيبا تصاعديا حسب أفضليتها وذلك في ضوء محافظة كل عرق منها على نقاوته وذكائه وتفوقه. وقد أشار هس إلى ذلك بقوله «يعتبر العرق اليهودي من أوائل الأعراق البشرية، وقد حافظ على نقاوته عبر العصور رغم المتغيرات البيئية والتاريخية التي مرت عليه...»[42] ولعل هس باستعماله هذه النظرية كان ينشد غرس ثقة اليهود بأنفسهم عن طرق إقناعهم «بنقاوة عنصرهم» «وتفوقهم على العناصر البشرية الأخرى».

وانتقل هس بعد ذلك ليتحدث عن الرسالة الحضارية «للشعب اليهودي» لتمدين وتثقيف شعوب آسيا وأفريقيا «المتخلفة». واعتبر هذا «الشعب»

بمثابة «شمس الشعوب»، الذي أنيطت به مهمة إنقاذ العالم وإرشاده إلى طريق «الخير و السلام».

كما أن «المدينة الخالدة... القدس» ستصبح مركز الإشعاع الحضاري بالنسبة للعالم، حيث ستدور في فلكها جميع المدن الأخرى في مشارق الأرض ومغاربها. [43] ولا شك أن هذا المفهوم يحمل في طياته منطقا استعماريا طالما استعملته الدول الأوروبية الكبرى في تبرير حركاتها الاستعمارية وتسلطها على الشعوب الأخرى خارج القارة الأوروبية. وقد تبنت «الدولة الصهيونية» فيما بعد هذا المفهوم لتبرير توسعها المستمر على حساب الدول العربية المجاورة.

وانطلاقا من هذه المفاهيم، أخذ هس يهاجم المحاولات التي قام بها الاصلاحيون والمسكيليم أتباع موزس مندلسون [44] من «اليهود العصريين» للاندماج في المجتمعات الأوروبية، واتهمهم بالتخلي عن القيم اليهودية والالتحاق بخدمة الدول الأوروبية بواسطة «إبراز شهادة التنصر كدبلوم لهم». [45] ورفض «هس» الحجج التي استعملتها هذه الفئات بأنها تستطيع عن طريق الاندماج أن تقدم خدمات جليلة لليهودية وذلك «بتعليم المسيحيين غير المتسامحين مبدأ التسامح الديني وإعادة الاتصال بين الحياة والأخلاقيات بعد أن افتقد العالم المسيحي مثل هذا الاتصال». [46] وأشار إلى أن تحقيق هذا الهدف لا يمكن أن يتم إلا عن طريق بناء «الأمة اليهودية» ضمن إطار دولتها، وعندها يسهل التبشير بالمفاهيم الأخلاقية وتطبيقها في العالم المسيحي وغيره.

أما بالنسبة لتأسيس «الدولة اليهودية» فقد نادى هس بتحقيق ذلك من خلال تحالف صهيوني فرنسي. ولعل اختياره لفرنسا يعود إلى نفوذها القوى آنذاك في منطقة المشرق العربي. فقد حصلت في عام 1854 على امتياز شق قناة السويس في مصر بالإضافة إلى نفوذها المتزايد في بلاد الشام من خلال الطائفة المارونية التي تدخلت القوات الفرنسية لحمايتها خلال فتنة عام 1860 في المنطقة. ولذلك فقد كانت فرنسا أكثر دولة أوروبية مهيأة للمساهمة بشكل فعال في توطين اليهود في فلسطين لا سيما أنها كانت تسعى للسيطرة على القسم الأكبر من تجارة الشرق والمواقع الإستراتيجية الواقعة على طريقها. [47] وقد تحدث هس عن ذلك بقوله:

«... بعد أن ينتهي العمل في شق قناة السويس فإن مقتضيات التجارة العالمية تتطلب إقامة المستودعات والمستوطنات على طول الطريق التجاري الممتد عبر المشرق العربي شرقا باتجاه الهند والصين، بحيث تتمكن هذه المستوطنات من القضاء على حالة الفوضى وعدم الاستقرار في البلاد الواقعة على هذا الطريق، وتحويلها إلى دول متحضرة تؤمن بشرعية القانون. ولن يتم ذلك إلا في ظل حماية عسكرية من جانب الدول الأوروبية وبالذات فرنسا التي كانت دبلوماسيتها الحكيمة تخطط على الدوام لضم الشرق إلى الأقاليم الحضارية..»[48] وانتقل هس بعد ذلك ليعبر عن مدى الفائدة التي تعود على فرنسا من وراء إنشاء دولة يهودية في فلسطين، ومما قاله في هذا الصدد «... من مصلحة فرنسا أن يستوطن الطريق التجاري المؤدي إلى الهند والصين شعب موال تماما لمصالحها الاقتصادية والحضارية حتى يتسنى لها تحقيق الرسالة الإنسانية التي أرست معالمها الثورة الفرنسية الكبرى»... ويتساءل هس فيما إذا كان هنالك شعب تتوفر فيه هذه الخصائص «أكثر من شعب إسرائيل لتنفيذ تلك الرسالة المشابهة للرسالة الحضارية التي تحملها هذا الشعب نفسه منذ فجر التاريخ؟»[49].

ويبدو أن السياسة الفرنسية في ذلك الوقت كانت تسعى إلى إحكام سيطرتها على المشرق العربي من خلال محاور ثلاثة: المحور الأول كانت تمثله القوة المارونية في لبنان والمحور الثاني كانت تمثله المحاولات الفرنسية التي قام بها فرديناند دلسبس لإقناع حكام مصر بمنح فرنسا حق توطين المناطق المحيطة بقناة السويس بمستوطنين أوروبيين يوفرون الحماية اللازمة لهذا المرفق الحيوي. أما المحور الثالث فكان المفروض أن تمثله القوة الاستيطانية اليهودية في فلسطين. غير أن سياسة المحاور الفرنسية هذه لم تنجح نظرا لانحسار النفوذ الفرنسي عن المنطقة في أعقاب هزيمة فرنسا المنكرة على يد القائد الألماني بسمارك في موقعة سيذان عام 1870.

كان هس معجبا «بالدور الفرنسي الحضاري» خلال فتنة الستين واستعرض-بإطراء-ما كانت تقوم به فرنسا في المشرق العربي «للنهوض بالمستوى الثقافي والاقتصادي» لسكان هذه المنطقة. وبين أهمية مشروع شق قناة السويس وبناء خط سكة حديد بين أوروبا وآسيا عبر المشرق العربي ومنتهيا بالهند والصين، وركز على الدور الحيوي الذي يمكن أن

يلعبه المستوطنون اليهود في تقديم المساعدة والعون لفرنسا لإنجاز هذه المشاريع الضخمة وتوفير الحماية اللازمة لها. وقد وجه نداء إلى اليهود دعاهم فيه إلى الانضواء تحت الراية الفرنسية، وكان مما ورد في ذلك النداء: «... إن بلاد أجدادنا الضائعة سيعاد اكتشافها على الطريق المؤدي إلى الهند والصين والتي يجري بناؤها وإعدادها في هذه المرحلة. فهل ما زلتم تشكون في أن فرنسا ستهب لمساعدة اليهود على تأسيس مستعمرات قد تمتد من السويس إلى القدس ومن ضفاف الأردن إلى شاطئ البحر المتوسط؟ إن كان لا يزال عندكم شك في هذا فعليكم قراءة كتاب (المسألة الشرقية الجديدة) الذي ألفه ايرنست لاهران». [50]

أشار هس في أكثر من موضع في كتابه إلى قيمة المكاسب الاستثمارية التي كان بمقدور البرجوازية اليهودية الحصول عليها من خلال تبنيها لعملية الاستيطان اليهودي متحالفة في ذلك مع الإمبريالية الفرنسية التي كانت تسعى للسيطرة على تجارة الشرق واقتصادياته. وكان مما قاله حول هذا الموضوع: «من أجل تحقيق الاستيطان اليهودي في فلسطين على الطريق التجاري المؤدي إلى شرق آسيا فإن هنالك ضرورة لاستغلال رأس المال اليهودي تحت مظلة الدول الأوروبية (والفرنسية بشكل خاص) وذلك كي يتسنى لشجرة الحياة الجديدة أن تنمو في المنطقة ليتم الاستمتاع بثمارها اليانعة، وكي يتسنى أيضا إنقاذ الأراضي الواسعة من خطر زحف الرمال الصحراوية عليها... ومتى تحقق ذلك فان العالم المتمدن سينحني إجلالا وتقدير لأصالة شعبنا العظيم ...»[51]

وقد دعا هس إلى إنشاء «جمعية استيطان يهودية» على غرار الجمعية التي سبق أن دعا إليها كاليشر، وحدد مهمتها بجمع الأموال الكافية لشراء المناطق اللازمة لبناء المستوطنات عليها وتنظيم عملية جلب المستوطنين اليهود من كافة أنحاء المعمورة وبشكل خاص من أوروبا الشرقية. وطالب هس بأن يتولى الإشراف على هذه الجمعية نخبة من أثرياء اليهود أمثال مونتفيوري وروتشيلد وفولد وغيرهم، على أن يكون ما تشتريه الجمعية من أرض ملكا «للشعب اليهودي» بأجمعه (لا يجوز نقل ملكيتها للأفراد). أما بالنسبة لاستغلال الأرض فيتم عن طريق تكوين جمعيات تعاونية تدعمها الدولة وتوفر لها كل ما تحتاجه من عون ومساعدة. [52]

وهكذا يتضح من خلال هذا العرض، لأهم آراء كل من القلعي وكاليشر و هس أن المصدر الحقيقي للفكرة الصهيونية كانت الرأسمالية الأوروبية لا سيما في بريطانيا وفرنسا، وأن البرجوازية اليهودية قد تبنت-في مرحلة لاحقة-هذه الفكرة، بعد أن أدركت قيمة المكاسب التي يمكن أن تجنيها من وراء تنفيذها، الأمر الذي شرع يتحقق من خلال التحالف بين الإمبريالية الغربية والبرجوازية اليهودية وذلك حين أخذ دعاة الفكرة الصهيونية من بين كوادر المفكرين المجود، ينشرون الفكرة ويدعون لها، ويعرضون المشاريع المختلفة لها وبخاصة بين الفئات اليهودية الفقيرة، وإن ظلت حركاتهم مقيدة-دائما-بالأطر العامة التي حددتها لهم القوتان المتحالفتان: الإمبريالية الغربية والبرجوازية اليهودية.

الهوامش

(1) كما أن عملية الاستيطان تهيئ للدول الاستعمارية التخلص من الفائض البشري الموجود لديها وتخفف بالتالي من وطأة الضغوط الاجتماعية المفروضة عليها من الداخل. ويورد العظم في مرجعه السابق ص 94-95 الكلام الذي أورده لينين على لسان سيسيل رووس الاستعماري الإنجليزي في وصف هذا الوضع بقوله: «كنت أمس في الايست East End (حي العمال في لندن) وحضرت اجتماعا من اجتماعات العمال العاطلين واستمعت هناك للخطابات الهائجة التي لم تكن سوى صرخات من أجل الخبز. وأثناء عودتي إلى المنزل تأملت في هذا المشهد فأصبحت أكثر اقتناعا من أي وقت مضى بأهمية الإمبريالية... إن فكرتي المحببة هي الحل للمسألة الاجتماعية. بعبارة أخرى، من أجل إنقاذ الأربعين مليونا من سكان المملكة المتحدة من حرب أهلية دموية ينبغي علينا نحن رجال الدولة المسؤولين عن المستعمرات الاستيلاء على أراض جديدة لنوطن فيها فائض السكان، ولنوفر أسواقا جديدة للبضائع التي تنتجها المصانع والمناجم. فالإمبراطورية كما كنت أقول دوما، هي مسألة تتعلق بخبز الناس وغذائهم، فإذا كنتم تريدون تجنب الحرب الأهلية فعليكم أن تصبحوا إمبرياليين...».
لينين، الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية (موسكو: 1967) القسم السادس. ويبدو أن البرجوازية اليهودية، كما سنلاحظ بعد قليل، أدركت أهمية مشروع توطين اليهود في فلسطين للتخلص من عبء المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي سببها لهم فقراء اليهود.

(2) شهدت هذه المنطقة في أواسط القرن الماضي صراعا استعماريا حادا بين فرنسا وإنجلترا، وكانت منطقة الشرق العربي مجال تنافس شديد بين هاتين القوتين وقد نجحت فرنسا في الحصول على امتيازات كثيرة في مصر كان أهمها امتياز شق قناة السويس، بالإضافة إلى تقوية نفوذها في جبل لبنان عن طريق صلتها الوثيقة مع الأقلية المارونية، وبالطبع فإن إنشاء وطن يهودي عميل لفرنسا في فلسطين يحقق مكاسب كبيرة للنفوذ الفرنسي في المنطقة.

(3) يهودي إنجليزي ولد عام 1784 في ليفورن Levourne. وكان زعيم الأقلية اليهودية في إنجلترا وأصبح عمدة مدينة لندن، وكان أول يهودي يحصل على لقب «سير» ص Sir ص. نجح في إقامة صداقة شخصية متينة مع الملكة فكتوريا. انظر: L. Loewe (ed), Diaries of Sir Moses and Lady Montefiore (London: 1952), P. 165

(4) حدث الشيء نفسه في الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن العشرين. فقد بدأت تفد إلى أمريكا في تلك الفترة هجرات يهودية كبيرة قادمة من روسيا وأوروبا الشرقية مما حدا باليهود الغربيين في أمريكا الذين سبق أن حققوا مكانة اقتصادية واجتماعية متقدمة في العالم الجديد أن يضغطوا على الحكومة الأمريكية لتضييق أبواب الهجرة لأمثال هؤلاء اليهود والعمل على دفعهم ا للهجرة صوب فلسطين. لقد شعر اليهود الغربيون أن هؤلاء الوافدين الجدد سيشكلون عبئا ثقيلا عليهم نظرا لجهلهم التام باللغة الإنجليزية وأصول الثقافة الغربية، ونظرا لخشونتهم وفقرهم المدقع مما قد يحيى من جديد نزعة (اللاسامية) ضد اليهود بصفة عامة في أمريكا.

(5) أبو عسل ص 146، وانظر أيضا Ben Halpem, The Idea of the Jewish State (Cambridge, Mass:1961), Pp. 114-115.

(6) Ben Halpem, pp. 108-109

(7) محمد سليمان، قانون التنظيمات العثماني وتملك اليهود في أرض فلسطين، صامد الاقتصادي (بيروت: نوفمبر 1981)، العدد 33 ص 82.

(8) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية (القاهرة: 1975)، ص 858.

(9) جريس، ص 67-68. أشرف على تأسيسها كارل نيطر Karl Netter أحد مؤسسي الاتحاد وقد ساهمت المدرسة فيما بعد في دعم الاستيطان الصهيوني في مناطق أخرى من فلسطين. انظر: ESCO Foundation, p. 9.

(10) بالرغم من أن نشأة القلعي كانت في منطقة البلقان إلا أن منطلقات فكرة واهتماماته كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالواقع اليهودي في أوروبا الغربية. وقد استغل أوضاع يهود روسيا وأوروبا ليتخذ منها وسيلة لخدمة مصالح البرجوازية اليهودية في أوروبا الغربية كما سيتضح من مناقشة الأفكار والآراء التي طرحها. وينطبق هذا أيضا على كاليشر الذي نشأ في الجزء البروسي من بولندا.

(11) وتكتب أحيانا «قبالة Kabbalah انظر: المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ص ,29 ويقصد بالكابالاة علم التأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود ومعناها الأصلي في اللغة العبرية «التراث» وكان يقصد بها في الأصل التراث اليهودي الشفوي. وقد أصبحت الكابالاة في القرن السادس عشر تمثل التفكير الأسطوري في اليهودية، البعيد عن العقلانية، وحلت محل الكتب اليهودية الدينية المعروفة. وارتبطت الكابالاة بعدد من العلوم السحرية مثل التنجيم والفراسة وقراءة الكف وصنع الاحجبة وتحضير الأرواح. ويؤمن دعاة هذه العقيدة بأن كل حرف ونقطة وإشارة وردت في التلمود ترمز إلى معنى خفي باطني. وقد انتشرت الكابالاة بين يهود أوروبا الشرقية، وكانت تبلغ ذروتها بينهم أيام البؤس والكوارث، لتمنحهم «قوة داخلية» تحميهم من الاندماج في مجتمعات الجوييم.
انظر المصدر السابق ص 290-291.

(12) وكان من أهم هذه الثورات ثورة اليونان عام 1821 التي كانت تطالب باستقلالها عن الدولة العثمانية. وقد أثارت هذه الثورة اضطرابات متلاحقة للعثمانيين في منطقة البلقان مما اضطر السلطان إلى الاستنجاد بمحمد علي والي مصر في ذلك الوقت: (انظر: William Yale, The Near East (Ann Arbor: 1958), pp. 127-131.

(13) يعتبر القلعي أول مفكر يهودي في القرن التاسع عشر ينادي بإنشاء دولة يهودية في فلسطين.

(14) تسفي زهافي، من هيحاتام سوفير حتى هرتزل (القدس: 1967) ص 150 نقلا عن جريس ص 72.

(15) Arthur Hertzberg, The Zionist Idea (New York: 1970), p.105 أنظر أيضا الترجمة العربية ص 10-11 وقد لجأ القلعي هنا إلى المنطق الاستعماري التقليدي، حيث أشار إلى أن هؤلاء المستوطنين اليهود سيستقرون في الأرض الخربة ويحولونها إلى أرض مزدهرة ينشرون المفاهيم الحضارية الحديثة بين سكانها «المتخلفين». وقد استعمل نفس هذا المنطق دعاة الاستيطان اليهودي من الصهاينة الإنجليز أمثال اللورد شافتسبوري وهنري تشرشل وغيرهم. ولمزيد من التفاصيل انظر العظم المرجع السابق.

(16) لعل السر في حرص القلعي على توفير الحماية لليهود هو المتاعب التي واجهها يهود دمشق عام 1840 ويورد عبد الكريم غرايبة تفاصيل تلك المتاعب على النحو التالي: «... اتهم اليهود في دمشق بقتل الأب ثوما الكبوشي. وكان الأب قد اختفى في شباط 1840 فاهتم القنصل الفرنسي بالأمر وأقنع السلطات المحلية بتفتيش الحي اليهودي والتحقيق مع بعض اليهود لا سيما الحلاق سليمان اليهودي. ووقع سليمان على اعتراف بأنه ذبح الأب توما بأمر الحاخاميين. ووجدت بعد ذلك عظام بشرية ولحم بشري في ساقية في حارة اليهود فقويت الأدلة ضد اليهود. وأخيرا أعلن الحاخام موسى أبو العافية إسلامه واعترف بذبح الأب توما ليصنع من دمه فطيرا أرسل قسما منه إلى بغداد. واعتقل عدد من اليهود. وتضامن اليهود في دمشق وأنحاء العالم لإثبات براءة المتهمين. وأخيرا قدموا مبلغا من المال إلى محمد علي باشا كدليل على براءتهم فأطلق الحاكم المصري شريف باشا سراح المتهمين وأغلق التحقيق وحفظت القضية. ووقف قنصلا بريطانيا وروسيا إلى جانب اليهود خلال هذه الأزمة». وقد ساهم القلعي في كتابة المقالات دفاعا عن اليهود خلال هذه الأزمة. انظر غرايبة، ص 124.

(17) يلاحظ أن القلعي في دعوته لإنشاء مجلس حكماء اليهود كان متأثرا على ما يبدو بالسنهدرين اليهودي الذي تعرضت له الدراسة في الفصل السابق.

(18) يلاحظ أن هذه الأفكار في مجملها كانت قريبة من أفكار التي تبناها فيما بعد تيودور هرتزل. ويقال أن جد هرتزل سيمون لوب كان س تلامذة القلعي والمعجبين بآرائه.

(19) Hertzberg, p. 107 والترجمة العربية ص 15.

(20) الحركة اليهودية الإصلاحية ثمرة من ثمار حركة الاستنارة اليهودية التي قادها موزس مندلسون. وقد دعت هذه الحركة منذ تأسيسها إلى القيام بتعديلات أساسية في العقيدة اليهودية وفي مقدمتها التخلي عن جميع الطقوس المرتبطة بالدولة والهيكل والتي لم يعد لاستمرارها-على حد تعبير أعضاء الحركة-أي مبرر. ونادى الإصلاحيون بإعادة تفسير اليهودية على أساس عقلاني وبمنظار علمي يتم من خلاله التركيز على الجانب الأخلاقي للتلمود، وإهمال قسم كبير من المحرمات التي نصت عليها الشريعة الموسوية كالقوانين الخاصة بالطعام وغيرها. كما دعا الإصلاحيون إلى التخلي عن فكرة «الشعب المختار» مؤكدين أن النفي والتشتت اليهوديين يجب أن يكونا حافزين لنشر اليهود للمثل الأخلاقية بين الأمم وبالتالي للتقرب من الآخرين وليس الانعزال عنهم. كما نبذ الإصلاحيون فكرة «العودة» إلى فلسطين وإنشاء «دولة يهودية» فيها. وقد أدى ذلك إلى قيام عداء بين الإصلاحيين والصهاينة غير أن هذه العدائية لم تستمر طويلا. فبعد قيام «الدولة اليهودية» بدأ الإصلاحيون يتقربون من الصهاينة ويعملون على تغيير مبادئهم المعادية لهم بالتدريج. وفي عام 1968 عقد الإصلاحيون مؤتمرهم الخامس عشر في مدينة القدس حيث اعترفوا بدولة «إسرائيل» وبحدودها الجديدة التي توسعت إليها في أعقاب حرب عام 1967. ولمزيد من التفاصيل انظر: المسيري المصدر السابق، ص 452-454 وانظر أيضا: David Philipson, The Reform Movement in Judaism (N. Y.: 1907)

(21) Hertzberg, p.111. الترجمة العربية ص 114.

(22) المصدر السابق ص 109.

(23) المصدر السابق ص 111.

(24) المصدر السابق ص 112.

(25) انظر جريس ص 75، خشي هؤلاء المتدينون أن تكون دعوى كاليشر حركة مسيائية زائفة

أخرى كباقي الحركات التي ظهرت خلال القرنين السابقين. ولذلك فقد عمل كاليشر على الاستعانة بالعديد من الصفحات المقتبسة من التلمود ومن أقوال من سبقه من مئات حكماء اليهود بغية تأييد وجهة نظره. وفي النهاية أعلن رأيه بصراحة قائلا: «إن العقل والشريعة يلزمان كل يهودي بالعمل بمنتهى الشجاعة والقوة والتصميم من أجل الاستيطان اليهودي في أرض إسرائيل. انظر Hertzberg, p 112..

(26) المصدر السابق ص 114، الترجمة العربية ص 17.

(27) المصدر السابق ص 109. الترجمة العربية ص 12.

(28) المصدر السابق ص 114، الترجمة العربية ص 17.

(29) المصدر السابق، ص 113، الترجمة العربية ص 16.

(30) ولد هس في أسرة ثرية، كان والده يهوديا أرثوذكسيا يعمل في التجارة. أما جده لأمه فقد كان حاخاما جاء أصلا من بولندا وكان له تأثير كبير عليه في بدء حياته. تزوج من امرأة مسيحية أمية كانت تعمل في الدعارة، ولم يعلن زواجه بها إلا بعد مضي عام كامل على وفاة والده أي عام 1852 وذلك ليضمن حقه في الميراث.

(31) فيلسوف هولندي عاش في الفترة ما بين عامي 1632- 1677. كان أجداده يعيشون في إسبانيا ويعتنقون اليهودية ثم ما لبثوا أن تنصروا، غير أنهم عادوا إلى يهوديتهم إثر مجيئهم إلى هولندا. وقد تأثر سبينوزا بأفكار الفيلسوف اليهودي العقلاني ابن ميمون الذي عاش في القرن الثاني عشر. انتهى المطاف به إلى طرده من حظيرة الدين اليهودي نتيجة ثورته على اليهودية ورفضه فكرة الإله الواحد المرتبط بالشعب اليهودي وأصر على أن الإله الحقيقي هو إله الإنسانية عامة الذي يدعو إلى التضامن والتآلف بين البشر. وللمزيد من الاستيضاح: انظر: اسحق دوبتشر، دراسات في المسألة اليهودية (ترجمة مصطفى الحسيني) (بيروت: 1971)، ص 17- 34.

(32) Laqueur, p . 48

(33) عارض هس فكرة حتمية الصراع الطبقي حيث إنه اعتبر العالم مكونا من عناصر وأعراق بشرية وليس بالضرورة من طبقات. وإذا كان لا بد من صراع فالصراع يتم عادة بين العناصر، والعنصر المتفوق هو الذي يكسب الجولة. وبالطبع فإن هس اعتبر العنصر اليهودي في مقدمة العناصر البشرية تفوقا وذكاء و انه العنصر الوحيد الذي تقع عليه مسؤولية إنقاذ العالم من البؤس والكوارث. إنه بلا شك منطق أبعد ما يكون عن المنطق الاشتراكي وأقرب ما يكون إلى المنطق القومي الشوفيني المتعصب.

(34) Hess, p.3

(35) Hess, PP.52-53

(36) المصدر نفسه، ص 102.

(37) المصدر نفسه، ص 142.

(38) العظم، ص 96.

(39) Hess, p.145

(40) Isidore Epstein, Judaism (London: 1975) p. 306 .

(41) من الواضح أن هس كان متأثرا بالتجربة الإيطالية إلى الحد الذي جعله يختار عنوان كتابه «روما والقدس» من وحي هذه التجربة، ويبدو أنه كان معجبا بشخصية مازيني الذي كان يحث اليهود باستمرار على إنشاء «وطن قومي» لهم. ومما قاله مازيني في هذا المجال «... بدون وطن

تبقون بلا اسم، بلا علامة مميزة، بلا صوت ولا حقوق، ... أيها الإسرائيليون... لا تخدعوا أنفسكم بأمل التحرر من ظروف اجتماعية مجحفة ما لم تنشئوا أولا وطنا لأنفسكم، لأنه حيث لا يوجد وطن لا يوجد إجماع على رأي يمكنكم اللجوء إليه...» نقلا عن صادق العظم دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية (بيروت: 1970) ص 92-93.

(42) Hess, pp. 228-229

(43) كان هس على ما يبدو متأثرا «بنظرية روما الثالثة» التي كانت سائدة في روسيا القيصرية خلال القرنين السابقين لعصره. وكان مضمون هذه النظرية يدعو إلى أن تكون موسكو خليفة روما الأولى الحقيقية وروما الثانية (القسطنطينية). ففي أعقاب سقوط هاتين المدينتين أصبحت موسكو المؤهلة الوحيدة لاتخاذ اسم روما الثالثة، وبالتالي فلها الحق أن تصبح مركز العالم وبؤرة الحضارات، وعليها مسؤولية بسط نفوذها وسيطرتها على مدن العالم. وقد شكلت هذه النظرية أحد العوامل الأساسية التي استعملها الروس لتبرير توسعهم المستمر في تلك الفترة، وبالطبع فقد كانت هنالك عوامل أخرى أساسية من بينها الوصول إلى المياه الدافئة وتحرير الشعوب السلافية وضمها.

(44) المسكيليم كلمة عبرية تعني دعاة حركة الاستنارة اليهودية ومفردها مسكيل. ومعظم دعاة هذه الحركة من تلاميذ موزس مندلسون (1729-1786). ويعتبر مندلسون من دعاة الاندماج اليهودي في الحضارة الغربية. وقد قام بترجمة العهد القديم إلى الألمانية بالإضافة إلى قيامه بترجمة المؤلفات الألمانية إلى العبرية وذلك كله بهدف بناء جسور ثقافية بين اليهود والألمان للتهيئة لعملية الاندماج بينهما، وقد طالب بالقضاء على الجيتو العقلي الذي فرضه اليهود حول أنفسهم مما أدى إلى عزلهم عن المجتمعات الإنسانية الأخرى.

(45) Laqueur, p.50

(46) Hess, P.145

(47) انظر Leonard Stein The Balfour Declaration (London: 1961), P. 11

(48) Hess, PP. 228-229

(49) Ibid, PP.148-149

(50) Ibid., P.132. كان لاهران على صلة وثيقة بالفيلسوف الفرنسي اليهودي الأصل جوزيف سلفادور Joseph Salvador الذي دعا إلى إقامة دولة يهودية على «شواطئ طبرية وكنعان». وقد كان سلفادور يقول بأن هنالك عنصرين بشريين فقط في الشرق الأدنى بمقدورهما المساهمة في الحضارة الإنسانية وهما اليونان واليهود.

(51) Hess,P.139

(52) Laqueur, P.51

3 النزعة الاستيطانية في الفكر اليهودي الروسي (خلال القرن التاسع عشر)

تتناول الدراسة في هذا الفصل مفهوم المسألة اليهودية من حيث نشأتها وتطورها في روسيا القيصرية في القرن الماضي وخاصة في النصف الثاني منه.

وتحلل الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى بروز هذه المسالة على شكل هجرات واسعة من عامة اليهود الروس صوب أوروبا الغربية، وتبين الأسباب التي دعت إلى توجيه مسار هذه الهجرات إلى خارج القارة الأوروبية وإلى فلسطين بالذات.

ومن خلال دراسة آراء عدد من المفكرين اليهود الروس ممن طرحوا الصهيونية حلا عمليا للمسألة اليهودية، فإن الدراسة ستتعرض لهذا الحل الصهيوني بالنقد والتحليل للتوصل إلى الأهداف الحقيقية التي كان يسعى إليها هؤلاء المفكرون والذين اقتدى بهم فيما بعد غالبية المفكرين الصهاينة.

نشأة المسألة اليهودية:

كانت روسيا القيصرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تضم أكبر نسبة من يهود العالم. فقد بلغ عددهم فيها عام 1880 حوالي 1/4 4 مليون من أصل 1/2 7 مليون يهودي منتشرين في شتى أرجاء العالم [1]. وكانت غالبية اليهود الروس متركزة في المناطق الغربية والجنوبية الغربية من روسيا. وقد شهدت روسيا في نهاية القرن الثامن عشر زيادة ملحوظة في عدد قاطنيها اليهود وذلك نتيجة لتقسيم بولندا للمرة الثالثة وحصول روسيا على مناطق أوكرانيا وبيلوروسيا (روسيا البيضاء) وحوض البلطيق، وكانت هذه المناطق تضم أعدادا كبيرة من اليهود تصل إلى حوالي 1,4 مليون نسمة.

من ناحية أخرى تميزت الأوضاع الاقتصادية ليهود روسيا حتى منتصف القرن التاسع عشر بأنه يغلب عليها الطابع التجاري المركنتيلي Mercantile والحرفي الصغير الذي كان قائما في فترة ما قبل الرأسمالية. وقد كان اليهود يحتكرون التجارة والربا ويقومون بدور الوسيط بين الإقطاعيين الروس وبين الفلاحين ويستأجرون المزارع والحانات والمطاعم والفنادق ويتولون إدارتها. [2] «كان الكثيرون منهم» (اليهود الروس)-كما يقول فون فورتنباغ-«يضمنون ويديرون أملاك الإقطاعيين ويستثمرون الحانات. وكان كل شيء بين أيديهم: فهم يقرضون الأموال للأسياد والفلاحين... وهم الذين كانوا يستوردون البضائع من ليبزغ وباقي مدن أوربا الغربية لبيعها في الأسواق الروسية». [3] وقد ورد على لسان جندي فرنسي يدعى بوييسك في رسائل من حرب روسيا معلومات هامة عن دور اليهود الاقتصادي في روسيا: «كانوا الوسطاء بين الفلاحين والأسياد، وكان الأسياد يؤجرونهم حاناتهم ويلزمونهم ببيع المشروعات المصنوعة في أملاكهم. وكان على الفلاحين الروس بمناسبة الأعياد والعماد والدفن والزواج أن يشتروا على الأقل وعاء كبيرا واحدا من المشروبات الروحية (من المرابين) اليهود (الذين يفرضون) فوائد مرتفعة (متدخلين) في كافة العمليات التجارية في المنطقة إلى جانب اشتغالهم بالصيرفة». [4]

وقد كان اليهود في غالبية مناطق سكناهم يقيمون في تجمعات خاصة بهم أشبه بمستوطناتهم الحالية في فلسطين. وكل مستوطنة تقام عادة

خارج حدود المدن والقرى الروسية، ويختار لها موقع استراتيجي يوفر للمستوطنين من ناحية،الوصول بسهولة إلى الأماكن المأهولة بالسكان للقيام بأعمالهم، ويوفر لهم من ناحية أخرى العزلة وعدم الاختلاط بجيرانهم الروس. وكان لكل مستوطنة مجلس إداري خاص يتولى تسيير أمورها الداخلية وتنظيم علاقاتها مع المستوطنات اليهودية الأخرى بالإضافة إلى تنظيم علاقاتها مع الأغيار. وقد أطلق على هذا النظام الإداري اسم كهال (أو قهال)، Kahal وعرفت المستوطنات اليهودية في روسيا الغربية باسم «حظيرة التوطن اليهودية»[5] Pale of Settlement، ويلاحظ أن نظام المستوطنات لم يكن معروفا على هذا النحو في أوروبا الغربية. فنظرا لأن المدن الغربية كانت مدنا مزدهرة وكبيرة وتمتلك إمكانات اقتصادية واسعة، فقد وجد اليهود أن بإمكانهم الاستيطان داخل حدود كل مدينة ولكن ضمن حي خاص بهم اصطلح على تسميته بالجيتوGhetto أو كما عرف في المدن الألمانية Judengasse (حارة اليهود).

لكن أوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية سرعان ما بدأت تتعرض لهزات كبيرة في أعقاب التطورات الجديدة التي شهدتها روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد أخذت الطبقة الوسطى الروسية تظهر لأول مرة على مسرح الأحداث في أعقاب إلغاء القنانة الروسية عام 1861 ,[6] وأخذت تنافس التجار اليهود من جهة، وتضيق سبل العيش أمام الحرفيين منهم الذين لم يتمكنوا من منافسة عملية «الميكنة» الحديثة من جهة أخرى. ومما قوى شوكة هذه الطبقة الروسية تدفق رؤوس الأموال الأوروبية الغربية على روسيا بحيث فتحت آفاق استثمار صناعي واسع أدى في النهاية إلى اندثار الحرف الصغيرة والتجارة المحدودة وعملية الربا التي كان غالبية يهود روسيا يعتمدون عليها في معيشتهم. وقد عبر أحد كبار دارسي النظام الرأسمالي فيرنر زومبارت F.Sombart مشخصا هذه الظاهرة بقوله: «يعود بؤس اليهود في روسيا إلى فترة إلغاء القنانة، والنظام الإقطاعي في الملكية الريفية. لقد وجد اليهود فرصا واسعة للاستمرار كتجار ووسطاء طوال فترة وجود الإقطاع والقنانة.[7]

وهكذا وجد غالبية اليهود الروس أنفسهم إزاء تحد اقتصادي كبير يقتلعهم ا من مواقعهم التجارية والحرفية التقليدية ويضطرهم إلى هجر

مستوطناتهم والتدفق في هجرات واسعة بادئ الأمر صوب المدن الروسية التي أخذت تنمو بسرعة وتنتشر فيها الورش والصناعات الثقيلة. غير أنه لم يكن بمقدور الحرفي اليهودي في المدينة الروسية النامية الصمود أمام هجرة الفلاحين الروس الوافدة من الريف في أعقاب تحررهم من السلطة الإقطاعية. لقد كان بوسع هؤلاء الفلاحين الذين اعتادوا منذ زمن بعيد على المستوى المعيشي المنخفض والعمل الجسدي الشاق أن يتحولوا إلى طبقة عاملة تتحمل صعوبة الحياة وشظفها. أما الحرفي اليهودي ففي الوقت الذي لم يكن بمقدوره منافسة المصانع الضخمة نجده يواجه صعوبة كبيرة في التحول إلى صفوف الطبقة العاملة، [8] مما اضطره إلى التفكير ثانية في الهجرة، ولكنه بدل أن يلجأ هذه المرة إلى مناطق أخرى داخل روسيا أخذ يستعد ويحاول الهجرة إلى الخارج. ولعل مما أجبره أيضا على التفكير في الهجرة موقف الطبقة الوسطى الآخذة آنذاك في الصعود، والتي دفعتها تطلعاتها المادية صوب المزيد من توسيع أعمالها ونشاطاتها لتستحوذ على السوق المحلية وتتخلص من أية منافسة من جانب القوى الاقتصادية التقليدية. وكانت هذه القوى تتضمن أعدادا كبيرة من اليهود ممن كانوا يسيطرون على الحرف الصغيرة والمواد الاستهلاكية. ويلاحظ أن الفئات الحرفية اليهودية كانت تلجأ باستمرار-في المراحل الأولى لنمو الرأسمالية وصعودها في بلد معين-إلى هجر ذلك البلد، والبحث عن مجتمعات إقطاعية أخرى كي تعيش في «مساماتها» كما حدث في القرنين السادس عشر والسابع عشر، حينما اتجهت الهجرات اليهودية من أوربا الغربية صوب أوربا الشرقية. ونظرا لأنه لم يعد بإمكان هؤلاء الحرفيين من اليهود الروس الهجرة إلى مجتمعات إقطاعية أخرى داخل القارة الأوروبية فإن البديل الوحيد الذي بقي أمامهم هو الهجرة إلى دول أوربا الغربية التي كانت قد قطعت شوطا واسعا في التطور الرأسمالي وتجاوزت المراحل المبكرة التي يشتد فيها عادة التنافس بين الحرفيين اليهود وأفراد الطبقة الوسطى الصاعدة. وقد كانت أمريكا الشمالية مكانا آخر استقطب اهتمام الكثير من اليهود للهجرة والاستيطان فيه. فالظروف الاقتصادية في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر كانت تتحسن بصورة مطردة، وشكلت الإمكانات المعيشية الواسعة فيها حافزا كبيرا لليهود الروس كي يهاجروا إليها

ويستوطنوا فيها. [9]

ولعله من المناسب في هذا المجال التوقف هنا لتفسير ظاهرة المعاناة والاضطهاد التي تعرض لها غالبية اليهود في روسيا خلال القرن التاسع عشر. إن السلوك الاقتصادي اليهودي وارتباطه بخدمة الإقطاعي الروسي في استغلاله للجماهير الفلاحية من الشعب الروسي، لم يؤد فقط إلى كراهية الفلاحين للإقطاعيين وحدهم وإنما تجاوزه ليشمل، على نحو أشد، كراهيتهم ا لليهودي الذي كان يقوم بدور الوسيط في عملية الاستغلال بين الفلاح والإقطاعي.

ومما زاد من هذه الكراهية، العزلة التي التزمها اليهود بعدم اختلاطهم بغيرهم من سكان البلاد، مما أدى إلى بقائهم في نظر هؤلاء عنصرا غريبا ينتفع بخيراتهم ويزاحمهم في أرزاقهم. وقد انتهزت الطبقة الوسطى الروسية الفرصة، فأخذت تنظم حركة مناهضة لليهود كي تستفيد منها في تحويل الأنظار عن المشكلات والتناقضات التي كانت تعاني منها. وبالرغم من أن اليهود قد تعرضت بعض فئاتهم من جراء ذلك إلى اضطهادات متلاحقة عرفت باسمها الروسي Pogrom، [10] إلا أن هذه الاضطهادات لم تبلغ من القسوة حدا لم تتعرض له فئات أو أقليات روسية أخرى. غير أن المعاناة اليهودية على مر العصور وجدت من يصورها بحجم مبالغ فيه، وبطريقة يسهل استغلالها لتعميق تآلف اليهود وتكاتفهم في سبيل مصالحهم وتطلعاتهم الذاتية. [11]

إن الاضطهادات التي تعرض لها اليهود الروس وتردي أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية أدى بهم إلى البدء بالهجرة صوب الدول الغربية. وهذه كانت بداية ما عرف «بالمسألة اليهودية». وشكلت هجرات هؤلاء اليهود الروس عبئا ثقيلا على البرجوازية اليهودية في أوروبا الغربية. ولقد أدركت هذه الفئة من اليهود الأثرياء انه ليس من السهل على هؤلاء الوافدين الجدد الاندماج السريع في مجتمعات أوربا الغربية وتخطي الحواجز اللغوية والثقافية التي كانت تفصلهم عن هذه الشعوب.

ومما زاد من تخوف البرجوازية اليهودية-كما مر ذكره في الفصل السابق- إمكانية انضمام أعداد كبيرة من فقراء اليهود الروس في الحركات الثورية والأحزاب اليسارية المناهضة للأنظمة التي تسير على النهج الرأسمالي

ومن ضمنها النظام الروسي الذي أخذ يتبنى هذا النهج في أواخر القرن الماضي. وبدت هذه الظاهرة وكأنها تلقي ظلالا من الشك والريبة على وطنية وإخلاص اليهود عامة للبلاد التي كانوا يعيشون فيها. وبالإضافة إلى ذلك فإنه نظرا للاستعمارات الواسعة التي كانت للبرجوازيين اليهود في روسيا، فإنهم أدركوا أن الخسارة ستحيق بهم إذا ما حدثت اضطرابات أو ثورات فيها. [12] وأدى هذا إلى دفع البرجوازية اليهودية للبحث عن مكان خارج القارة الأوروبية تتجه إليه هذه الهجرات.

وبالرغم من اهتمام البرجوازية اليهودية الغربية بإيجاد حل لمشكلة المهاجرين اليهود الروس فإن أولئك الذين اهتدوا إلى «الحل الصهيوني» للمشكلة لم يكونوا من اليهود بل من المسيحيين من ممثلي الطبقات البرجوازية الحاكمة في الدول الأوروبية. فقد أخذت هذه الطبقات منذ مطلع القرن التاسع عشر تجر دولها إلى التنافس في طرح مشاريعها الخاصة بتوطين اليهود في فلسطين أو أية منطقة أخرى ضمن المناطق التي كانت هذه الدول تسعى إلى مد سيطرتها ونفوذها عليها.

أما البرجوازية اليهودية فإن تحركها جاء في أعقاب تحرك الصهاينة الأغيار كما بينا سابقا .وكان كبار الأثرياء من أعضاء البرجوازية اليهودية هم أول من تبنى ذلك الحل الصهيوني واتخذ تبنيهم-في بادئ الأمر-شكل تنظيم مشاريع تهجير وتوطين اليهود الروس في مستعمرات زراعية في مناطق مختلفة من العالم. وهذه المشاريع الهادفة لإبعاد الفقراء اليهود أنشئت بتمويل من كبار أثرياء البرجوازية اليهودية في أوروبا الغربية.

وفي هذا السياق أيضا امتد التحرك البرجوازي اليهودي ليشمل دعم وتشجيع المزيد من المفكرين اليهود، للعمل من خلالهم على كسب أكبر قطاع من الجماهير اليهودية لخدمة الأهداف التي كانت البرجوازية اليهودية تسعى إلى تحقيها. وكان من بين هؤلاء المفكرين ليوبنسكر، وسمولينسكين، وليلينبلوم، وبن يهودا.

غير أن واضع الأسس العملية للصهيونية السياسية كان ليوبنسكر Leo Pinsker الذي ستتناول الدراسة آراءه بالنقد والتحليل مسلطة الأضواء على الأهداف الحقيقية التي كان يسعى إليها، ثم تنتقل الدراسة لتناول آراء باقي المفكرين الروس الذين مر ذكرهم.

الحل الصهيوني الاستيطاني كما طرحه بنسكر:

إن أول دراسة حقيقية للصهيونية السياسية يكتبها مفكر يهودي، ظهرت في الكراس الذي وضعه ليوبنسكرLeo Pinsker (1821-1891) عام 1882 تحت عنوان التحرر الذاتي Auto-Emancipation[13]، وقد كان بنسكر بحكم مولده ونشأته ينتمي إلى الفئة البرجوازية من يهود روسيا. فوالده كان واحدا من زعماء الجالية اليهودية في مدينة توماشوف من أعمال بولندا الروسية. وحظي بنسكر بثقافة روسية علمانية بالإضافة إلى ثقافة الهسكلاه اليهودية[14] Haskala. وقد أنهى دراسته الثانوية في مدرسة روسية، ودرس القانون في مدينة أوديسة، ثم دخل جامعة موسكو لينال منها شهادة طبية، وعمل بعد ذلك طبيبا في أوديسة، ثم خدم كضابط طبيب خلال حرب القرم، (1853-1856) مما حدا بالقيصر نقولا الأول أن يمنحه وساما اعترافا بخدماته في معالجة الجنود الروس الذين انتشر بينهم مرض التيفوس خلال الحرب.

بدأ بنسكر عام 1861 في كتابة مقالات أسبوعية في بعض المجلات اليهودية التي كانت تصدر بالروسية وكانت كتاباته ذات طابع اندماجي تدعو لجعل اللغة الروسية والثقافة الروسية تتغلغلان في صلب حياة اليهود الداخلية بما فيها مقوماتها الدينية والفكرية. وقد أصبح بنسكر زعيم المسكليم Maskilim[15] في مدينة أوديسة وأحد المشرفين على نشاط فرع «جمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا Society for the Diffusion of Culture among the Jews of Russia (التي تأسست عام 1863). [16] وكان مجال عمل تلك الجمعية-التي اشترك بنسكر في وضع خطتها-هو «مساعدة اليهود على اكتساب اللغة الروسية كلغة شعبية» وذلك « ... بواسطة الاهتمام بالدائرة الدينية للحياة اليهودية»، لأنه معروف للجميع ومقبول لديهم كحقيقة تاريخية مدعمة بالبراهين أن على اليهود أن يندمجوا في سكان الدول التي يعيشون فيها، ويحافظوا على ديانتهم فقط»[17] وقد قامت الجمعية بمحاولات لنشر اللغة الروسية بين الجماهير اليهودية عن طريق إصدار كتب لتدريس الديانة اليهودية مكتوبة باللغة الروسية، وبدأت العمل على ترجمة المزامير والتوراة إلى هذه اللغة أيضا. ومن الجدير بالذكر أن الأغلبية الساحقة من يهود روسيا كانت لا تعرف لغة البلاد، وتتخذ من الييدش لغة التخاطب بينهم.

وقد أظهر بنسكر حماسا هائلا لخطة عمل الجمعية مما جعله يتعرض لهجوم ونقد الفئات المتدينة من اليهود.[18]

بقي بنسكر طيلة الفترة ما بين عامي 1861-1881 متمسكا بدعوته لاندماج اليهود في المجتمع الروسي وفي بقية المجتمعات الأخرى التي كانوا يعيشون فيها. وظل يدعو اليهود إلى ضرورة الأخذ باللغة الروسية والثقافة الروسية وكافة أوجه الحضارة الروسية. وكان تبرير بنسكر لالتزامه بهذه الدعوة طيلة تلك الفترة بأن نظام الحكم الروسي لا بد أن يتطور لكي يصبح ملكيا دستوريا على النسق البريطاني، تعيش في ظلاله جميع الشعوب بمساواة تامة.[19] ولكن هذا الحماس الشديد الذي أبداه بنسكر لعملية اندماج اليهود في المجتمع الروسي وتخليهم عن عزلتهم التقليدية يثير تساؤلات هامة حول مغزى وجدية هذا الحماس؟ لم تكن هذه الدعوة الاندماجية مقتصرة على بنسكر وحده، فقد كان هنالك عدد آخر من المفكرين اليهود أمثال سمولينسكين وليلينبوم وبن يهودا ممن ارتفعت أصواتهم بنفس الحماس لهذه الدعوة. والغريب أن تجيء هذه الدعوة في أعقاب تحرير الفلاحين الروس عام 1861، وحدوث هزات اجتماعية واقتصادية كبيرة في روسيا لدرجة أنه بات بالإمكان تفسيرها كمحاولة قصد من ورائها تجنيب اليهود مغبة الوقوع هدفا لانتقام الفلاحين، بسبب موقفهم الرافض للاندماج وسلوكهم كأقلية مستغلة في المجتمع الروسي. وإذا صح هذا التفسير فإن الدعوة الاندماجية يمكن اعتبارها محاولة للخروج المؤقت من الأزمة التي تصور أصحاب هذه الدعوة أن اليهود سيواجهونها لا محالة.

ويفسر غالبية الكتاب تحول بنسكر إلى صهيوني «متقد حماسة» عام 1882 حينما أصدر كراس التحرر الذاتي بأن ذلك جاء نتيجة مباشرة للاضطهادات التي تعرض لها اليهود في روسيا عام 1881 وأنه لولا حدوث هذه الاضطهادات لما أقدم بنسكر على طرح فكره الصهيوني.[20] وبعبارة أخرى فإن حلول وآراء بنسكر الصهيونية جاءت كرد فعل للمعاناة اليهودية. إن هذا هو المنطق الصهيوني التقليدي في تفسير مبادرات حركته الهجومية العدوانية فكرية كانت أم عسكرية أم اقتصادية أم سياسية. فمثل هذه المبادرات تفسر باستمرار على أنها مجرد ردود فعل، الهدف منها حماية الكيان اليهودي من خطر خارجي يتربص بأفراده ليدفع بهم صوب مزيد

من الشقاء والمعاناة، فهل كانت آراء وحلول بنسكر الصهيونية حقيقة مجرد رد فعل للمعاناة اليهودية ؟

لعله ليس من قبيل الصدفة أن يجيء ظهور كراس بنسكر فور عودته من جولة قادته إلى بريطانيا وعدد من الدول الأوروبية الأخرى. لقد أمضى فترة في لندن اجتمع خلالها بعدد من زعماء الجالية اليهودية وبعض الساسة البريطانيين. وكانت الشكوى واحدة لدى غالبية الزعماء اليهود الغربيين، وتركزت حول الهجرات اليهودية المتزايدة إلى أوروبا الغربية وضرورة الحد منها عن طريق إقناع اليهود الروس، وإغرائهم بالتوجه إلى منطقة بديلة أخرى يلجئون إليها ويتخذونها وطنا لهم. وقد جاءت اقتراحات بنسكر ملبية لرغبات البرجوازية اليهودية العربية حين اختار مناطق خارج القارة الأوروبية لتوطين اليهود في واحدة منها. والمناطق التي اقترحها بنسكر في كراسه كانت إما في «تركيا الآسيوية» أو أمريكا الشمالية. أما فلسطين فانه لم يركز عليها في هذه الفترة بالرغم من أنه لم يستثنها نهائيا فقد قال بهذا الخصوص: « ... نحن لسنا بحاجة إلى أكثر من قطعة أرض يقيم فيها إخواننا ولا يستطيع أي سيد أجنبي اقتلاعنا منها ... إلى هذه الأرض سنأخذ أقدس ما نملك وهو ما استطعنا تخليصه من حكام أرض أجدادنا ... فكرة الله والتوراة... هذه الأشياء فقط وليس (قدس) نهر الأردن عملت من أرض أجدادنا أرضا مقدسة. قد تعود الأرض المقدسة لنا، فإذا حدث هذا الشيء فهو أفضل، إنما قبل كل شيء يجب أن نستقر-وهذه هي النقطة الصعبة-على بلد نستطيع الوصول إليه، وفي الوقت ذاته يكون صالحا لإعطاء اليهود على اختلاف البلدان التي يتركونها ملجأ يتمكنون من استثماره والعيش فيه». [21] أما بالنسبة لأمريكا الشمالية فإنه نظرا لإمكاناتها الاقتصادية الواسعة فإنها بقيت هدفا رئيسيا لهجرات اليهود الروس حتى نهاية الحرب العالمية الأولى حتى بدأ اليهود الأمريكيون ينظرون إلى تدفق سيل هؤلاء المهاجرين بقلق، وخوف من أن يسيء ذلك إلى مكانتهم بسبب وصول جماعات كبيرة من المهاجرين الذين يختلفون عن الأمريكيين في لغتهم وعاداتهم اختلافا كبيرا. [22]

لقد بات واضحا أن مصالح الفئات البرجوازية اليهودية الغربية كانت تكمن وراء العمل على وقف السيول المتدفقة من هجرات اليهود الروس

صوب أوروبا الغربية وإيجاد «البقعة البديلة» ليتخذ منها هؤلاء المهاجرون وطنا لهم. وآراء بنسكر التي طرحها في كراسه جاءت تعبر تماما-بقصد أو دون قصد-عن مصالح هذه الفئات وتقدم الخدمات والحلول لمشاكلها. ففي الوقت الذي كان يدعو فيه بنسكر إلى هجرات يهودية واسعة لبعث «الوطن القومي» اليهودي، نراه يبدي حرصه الشديد على مصالح ومكانة البرجوازية اليهودية، فيدعو صراحة في كراسه إلى ضرورة احترام رغبة هذه الفئة في بقائها في أماكنها واستثناء أفرادها من الانضمام للمهاجرين، «... والبقاء حيث هم حتى في البلاد التي لا تسامح فيها». [23] والغريب في هذا الصدد أن بنسكر حينما تناول مصير عدة ملايين نسمة من الجماهير اليهودية الروسية نجده يشير إليهم على أنهم مجرد «فائض وفضلة»، يجب العثور لهم على «وطن» يلجئون إليه. إن هذا العدد كان يشكل الغالبية اليهودية في ذلك الوقت، ولكن يبدو أن بنسكر لم تكن تهمه الغالبية بقدر ما كانت تهمه تلك الفئة القليلة من اليهود، التي حققت لنفسها شأنا عاليا في المجالات الاقتصادية والاجتماعية. فحل مشكلة «الشعب اليهودي» كما طرحها بنسكر كانت تكمن في المقام الأول في تحرير البرجوازية اليهودية من الأعباء المرتبة عليها، نتيجة هجرات فقراء اليهود الروس، إلى أوروبا الغربية. أي بعبارة أخرى حل مشكلة الفئة اليهودية المتنفذة من خلال اقتلاع وتهجير الأغلبية الساحقة من الجماهير اليهودية. ويتضح منظور بنسكر الطبقي حين يتحدث عن تركيب الهيئة الإدارية والشركة اليهودية التابعة لها والمختصة بالإشراف على تهجير اليهود خارج القارة الأوروبية-فنجد أن العناصر المندرجة فيها عناصر بارزة وثرية تمثل الفئة البرجوازية التي كان ينتمي إليها بنسكر وهي التي أشار إليها دوما ب «نحن» في حين أنه كان يشير إلى الأغلبية اليهودية التي يعمل على تهجيرها بـ «هم»... فتحرير «نحن» من «هم» هو المعنى الكامن فيما بين سطور كراس «التحرير الذاتي».[24].

يستهل بنسكر كراسه بالإشارة إلى الصعوبات التي كان يجابهها المهاجرون اليهود إلى أوروبا الغربية وعدم مقدرتهم على «الذوبان في كيان أممها» وهذا في نظره يعود إلى كون «اليهود عنصرا متميزا عن باقي الشعوب» وحل المشكلة لا يتم إلا عندما «تصبح المساواة بين اليهود وباقي الشعوب أمرا واقعا». وعدم التوصل إلى هذه المساواة-في رأيه-يكمن في عدم وجود

«وطن أبوي Vaterland للشعب اليهودي رغم كثرة أوطانه الأم Mutterlander، فهو لا يتمتع بمحور مركزي أو مركز ثقل، وليست لديه حكومته الخاصة أومن يمثله، إنه حاضر في كل مكان وليس له أي بيت في أي مكان أبدا».[25].

وانطلق بنسكر في حديثه عن عدم وجود «دولة» لليهود أو «حكومة» أو «وكالة» خاصة بهم إلى القول بأن هذا الوضع قد أدى إلى عدم بلورة شخصية قومية للشعب اليهودي، تتعامل معها الشعوب الأخرى بشكل طبيعي بالرغم من أن «الأمة اليهودية»-في رأيه-بقيت قائمة دائما كأمة روحية. وهنا تحل العوامل الميثولوجية لدى بنسكر محل العوامل العلمية. فإصراره على أن «الأمة اليهودية» موجودة بسبب «وحدة التكوين الروحي» لليهود و «ماضيهم التاريخي الواحد» وأنها أمة ثابتة عبر التاريخ، يمثل ادعاء لا يقره أي مفهوم علمي للأمة بأي شكل من الأشكال. فالأمم «ليست أزلية بمعنى أنها تشكل في زمان ومكان معينين، ثم تخلد عبر العصور والأزمنة، غير متأثرة بتبدل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم». [26].

إن التأمل البسيط في مقولة «الأمة اليهودية» التي تدعي أنها ظلت تنتظر وترنو ببصرها إلى «صهيون» طيلة ألفي عام «للعودة» إليه وبناء «دولتها» يظهر لنا أن هذه المقولة أمر لا يمكن إدراجه إلا ضمن تلك «التزييفات الفاضحة» التي وجدت - بشكل أو بآخر - مسارب لها في سجل تاريخ البشرية. فنظرة سريعة إلى طبيعة الحياة التي كان يعيشها قدماء اليهود، تبين أن مجمل ما حصل في تلك الفترة لا يعدو أن يكون قيام كيان يماثل في معالمه الأساسية تلك الدويلات التي كانت تقوم وتنشأ في عهد العبودية. فقد كان ذلك العهد هو عهد الحروب القبلية المتواصلة التي «تنشب من أجل النهب وامتلاك العبيد والاستيلاء على أفضل الأراضي. وكانت أشكال الدولة تتعاقب والأقوام والقبائل تتخالط فيما بينها. وتنتقل للعيش في البلدان المجاورة». [27].

وفي محاولة لإثارة حماس الجماهير اليهودية لدعوته، أخذ بنسكر يركز أفكاره على وجوب إيقاظ الرغبة لدى هذه الجماهير في السعي نحو«الوجود القومي المستقل». لقد اعترف بنسكر بعدم استجابة غالبية الجماهير اليهودية للهجرة المنظمة، وعلق على ذلك بقوله: « ... إن العامل الأقوى الذي يؤثر في منع اليهود من السعي لأجل تحقيق وجود قومي

مستقل هو عدم شعورهم بالحاجة لمثل هذا الوجود وهم لا يكتفون بعدم تحسس الحاجة إليه بل يذهبون إلى حد إنكار أن تكون مثل هذه الحاجة أمرا معقولا»، ويضيف بنسكر قائلا إنه بناء على «غياب هذه الرغبة في الاستقلال القومي» بين الجماهير اليهودية «لا بد لنا إذن نحن الصهيونيين» من العمل على إثارتها ومن «البرهنة على أنه ينبغي عليهم (أي اليهود) أن يمارسوا قوميتهم»[28]

وطبقا لرأي بنسكر فإن غياب الرغبة في «الاستقلال القومي» لدى عامة اليهود أدى بهم إلى أن يظلوا تائهين في الدنيا «شعب أشباح» يتجول عبر القرون التاريخية «روحا بدون جسد». وقد مضى بنسكر في تحليله هذا إلى القول بان العالم على مر السنين انتابه شعور الخوف من هذا «الشعب» الذي أصبح يمثل «شبح الموت المخيف الذي يجول وسط الأحياء». وبما أن الإنسانية «تكره الأشباح»، فإنه لا عجب إذا أخذت شعوب العالم، تنزل باليهود «الاضطهاد والتعذيب». ومن هنا انطلق بنسكر ليطرح قضية «اللاسامية» أو حركة معاداة السامية. والغريب في هذا الصدد أن بنسكر لم يحاول في كتاباته العمل على مقاومة هذه الحركة واستئصال مسبباتها وإنما وجد فيها مادة حيوية لاستغلالها كقوة دافعة للجماهير اليهودية في تغيير مسار هجراتها بعيدا عن أوروبا الغربية وتحويلها باتجاه خدمة مصالح البرجوازية اليهودية بشكل خاص والرأسمالية الغربية بشكل عام. لقد اعتبر بنسكر (اللاسامية) نوعا من أنواع الأمراض المستعصية الحل: «الهلع المرضي من اليهودJudeophobia هو شذوذ سيكلوجي، ولأنه شذوذ سيكلوجي فإنه موروث، ولكونه داء انتقلت عدواه خلال ألفي سنة، فإنه غير قابل للشفاء»[29].

ويستخلص بنسكر من هذا التشخيص استنتاجا مؤداه أن لا جدوى من وراء أي عمل أو كفاح ضد الحركة اللاسامية وقد عبر عن ذلك بقوله: «بعد الانتهاء من تحليل الهلع المرضي من اليهود كنوع من الديمونوباثيا Demonopathy (الخوف المرضي من الجن أو الشياطين) الموروثة التي يختص بها الجنس البشري، وبعد تصوير معاداة السامية على أنها ظاهرة تستند إلى شذوذ موروث للعقل البشري، علينا أن نستخلص النتيجة الهامة التالية: «لا يمكن للصراع ضد هذه الكراهية إلا أن يكون عبثًا مثله في ذلك مثل أي

صراع ضد الميول الموروثة». [30] وهكذا يتضح أن المنطق الذي استخدمه بنسكر في تحليله هو نفس المنطق العنصري الذي كان يشكو منه. فهو يعتبر أن (اللاسامية) موجودة طالما كان الإنسان موجودا (من خصائص الطبيعة البشرية غير اليهودية). والتي لا تتغير بتغير الزمان أو المكان طالما أن هنالك يهودا في المجتمعات البشرية. [31].

ومما يميز بنسكر عن سابقيه من المفكرين اليهود أمثال القلعي وكاليشر وهس أنه دعا إلى تكوين قوة يهودية مادية فاعلة تبدو وكأنها تعمل معتمدة على نفسها في سبيل «بعث الوطن القومي» اليهودي، وتتظاهر باكتفائها بمجرد تنسيق الجهود مع القوى الأوروبية الكبرى وخاصة بريطانيا. وبتعبير آخر طرح بنسكر ضرورة التصرف بشكل يوحي بأن المبادرة كأنها صادرة عن اليهود أنفسهم، في حين أن المفكرين الآخرين كانوا حريصين على أن تصدر المبادرة من الدول الأوروبية الكبرى لاستغلالها في محاولة إقناع الجماهير اليهودية بالهجرة إلى «الوطن» المقترح.

ولتحقيق هذه الغاية، دعا بنسكر إلى إقامة الأدوات التنفيذية المباشرة، تنظيميا وإداريا وسياسيا وماليا، من أجل البدء فورا في العمل على بناء «الوطن القومي» لليهود. لقد وجد بنسكر في الجمعيات اليهودية المنتشرة في روسيا النواة المطلوبة لبناء الهيكل التنظيمي الأولي لاستيعاب التحرك القومي اليهودي وتجسيده. لذلك دعا الجمعيات إلى صهر نفسها في «مجلس قومي» تنبثق عنه «هيئة إدارية يهودية» تقرر أولا اختيار المنطقة المناسبة لتوطين بضعة ملايين من اليهود، وتعمل من أجل توفير الدعم الكافي من أكبر عدد ممكن من الدول الأوروبية لتنظيم الهجرة اليهودية الواسعة من خلال شركة مساهمة تقام لهذا الغرض. ورغم التحرر الذاتي الذي يدعيه الكراس بعنوانه فإن بنسكر-كما أسلفنا سابقا-لم يقترح نزوحه هو وأفراد طبقته، بل نزوح عامة اليهود إذ قال « ... يجب أن يكون الهدف الرئيسي للهيئة الإدارية هو إيجاد وطن آمن يعيش فيه-بطمأنينة-الفائض من أولئك اليهود الذين يعيشون ك «بروليتاريين» في مختلف البلاد، ويشكلون عبئا على المواطنين الأصليين... لذلك يجب أن نتأكد من إبعاد الفائض من اليهود، تلك الفضلة غير القادرة على الذوبان وتوفير المقام لها في مكان آخر» [32]

ويلاحظ أن الاقتراح الذي طرحه بنسكر حول إنشاء شركة مساهمة يهودية للإشراف على عملية تهجير اليهود من روسيا قد تكرر ثانية في كتابات تيودور هرتزل. وإذا ثبت صدق ادعاء هرتزل بأنه لم يسبق له أن اطلع على كتابات بنسكر فإن هذا يقودنا إلى واحد من احتمالين: إما أن يكون هذا التكرار مجرد توارد خواطر وإما-وهذا هو الأرجح-أن يكون للاتصالات الوثيقة بين كل من بنسكر وهرتزل مع الأوساط البرجوازية اليهودية بشكل خاص والرأسمالية الغربية بشكل عام أثر رئيسي في تشابه الحلول التي طرحها هذان المفكران، أي بعبارة أخرى كانت هذه النوعية من المفكرين الصهاينة تعكس إلى حد كبير مصالح الأوساط السالفة الذكر.

وإذا ما عدنا إلى الشركة المساهمة التي اقترحها كل من بنسكر وهرتزل فإنها كانت تمثل فيما تمثله طموحات رأس المال اليهودي الكبير في تكوين شركة استعمارية ناجحة وكبيرة يجني من ورائها الفوائد والأرباح. وقد كان هرتزل أكثر وضوحا من بنسكر في هذا الصدد حين أشار إلى إمكانية استغلال الاحتياطي الكبير من اليد العاملة الرخيصة المتوفرة بين يهود أوروبا الشرقية بقوله: «سيفد عالمنا غير الفنيين أولا من روسيا ورومانيا حيث يوجد أكبر تجمع يهودي في العالم. والشركة لن تتحمل مسؤولية دفع رواتب لهؤلاء العمال الوافدين وإنما ستتحمل مسؤولية إسكانهم وإعالتهم».[33] وقد أشار بنسكر إلى أن الكلمة العليا في هذه الشركة الاستعمارية «لا بد أن تكون لمؤتمر الشخصيات اليهودية المرموقة من أشل قوانا من رجال المال والأعمال» ويضيف: «وينبغي أن يكون شراء الأراضي وإدارتها موقوفا على هذه النخبة الممتازة من المشاركين في الشركة المساهمة».[34] ولن تكون الفوائد والأرباح بطبيعة الحال مقصورة على الرأسمالية اليهودية فقط وإنما ستمتد لتستفيد منها الدول الغربية بشكل عام وذلك على النحو التالي: «ستحصل الدول الأوروبية على فائدة إضافية تأخذ شكل الزيادة الضخمة في صادراتها التجارية، إذ بما أن المهاجرين اليهود هناك سيعتمدون لفترة طويلة في المستقبل على المنتجات الأوروبية فإنهم سيضطرون بحكم، الضرورة إلى استيرادها من تلك الدول.»[35]

ويلاحظ أن بنسكر كان دائم الحرص في كتاباته على إبراز الصلة الوثيقة بين أية مبادرة صهيونية وبين الإمبريالية العالمية التي بقيت بريطانيا تقودها

حتى الحرب العالمية الثانية. فمقابل الدعم السياسي والعسكري الذي كان من المفروض أن يحصل عليه المستوطنون اليهود من الدول الغربية، فإن هؤلاء المستوطنين كانوا على أتم استعداد للقيام بدور «العمالة» السياسية والاقتصادية للمستعمرين الغربيين في المناطق المحيطة بمركز استيطانهم.

وتفسر غالبية الدراسات الصهيونية إحجام بنسكر في كراسه عن الإصرار على فلسطين كمركز للتجمع الاستيطاني اليهودي بأنه ناتج عن عدم تشربه الثقافة الجيتوية حيث كانت نشأته نشأة علمانية. والغريب أن برنسكر-بعد مضي عامين فقط على كتابة كراسه-نجده ينتخب رئيسا لجمعيات أحباء صهيون ويصبح من أشد المتحمسين للاستيطان اليهودي في فلسطين. ولعل التفسير المعقول لهذا التغير في موقف بنسكر يعود إلى أنه كان يعي أبعاد السياسة الغربية والبريطانية منها بالذات، فهو كان مطلعا على محاولات بريطانيا المتكررة منذ عام 1840 لإنشاء كيان يهودي «عميل» في منطقة الشرق العربي يعمل على تثبيت دعائم نفوذها الاستعماري حين تحين الفرصة المناسبة لتمزيق جسم الدولة العثمانية. ولكز رد فعل اليهود بقي ساكنا تجاه هذه المحاولات نظرا لعدم وجود قوة عسكرية توفر لهم الحماية في حالة توجههم نحو فلسطين للاستيطان فيها. غير أن الأمور على ما يبدو قد تغيرت عام 1884 وذلك في أعقاب احتلال بريطانيا قبر عام 1878 ثم مصر عام 1882. وهنا أصبحت الحاجة ملحة لبريطانيا في إيجاد كيان سياسي موال لها في فلسطين. ولعل هذه الظروف الجديدة لعبت دورا حاسما في تحريك سكون الموقف اليهودي تجاه قضية الهجرة والاستيطان في فلسطين، بحيث أصبحت الهجرات إليها تتزايد مع تزايد النفوذ الاستعماري البريطاني في منطقة الشرق العربي. ولعل هذا يفسر إلى حد كبير إصرار بنسكر المفاجئ عام 1884 على فلسطين «وطنا قوميا» لليهود بعد أن كان مترددا تجاه هذا الموضوع قبل ذلك بعامين فقط.

وباختصار فان الآراء التي طرحها بنسكر كانت تهدف في النهاية إلى تحرر البرجوازية اليهودية الغربية من عبء هجرات عامة اليهود الشرقيين إلى دول غرب أوروبا والحيلولة دون استقطاب الحركات الثورية لهم وذلك عن طريق إيجاد «وطن» يلجئون إليه خارج القارة الأوروبية. وفضلا عما يتيحه مثل هذا «الوطن» من إغراءات اقتصادية للبرجوازية اليهودية في

توسيع نطاق استثماراتها، فإنه كان في الوقت نفسه يحقق هدفا أساسيا للدول الغربية ولا سيما بريطانيا التي كانت تسعى لخلق كيانات سياسية موالية لنفوذها ومصالحها الاستعمارية. وما إن تمكنت بريطانيا من إثبات وجودها العسكري في المشرق العربي حتى أصبحت فلسطين مطلبا يتسابق بنسكر وأمثاله من المفكرين الصهاينة في الدعوة لاتخاذها «وطنا قوميا» لليهود.

سمولينسكين

بدأ بيرتس سمولينسكين [36] 1842-1885 (Peretz Smoolenskin) حياته «مسكيلا» على غرار بنسكر. وبالرغم من الثقافة التلمودية التقليدية التي تلقاها في صغره في اليشيفا (أكاديمية التلمود)، إلا أنه أبدى اهتماما متزايدا بالاتجاهات العلمانية وبأفكار عصر التنوير وأخذ يقرأ الكتب الحديثة. [37] ولكن خوفه من بطش واضطهاد الأوساط الدينية المتزمتة دفعه إلى ممارسة النشاط الديني عن طريق إنشاده في جوقات الكنيس وإقامة المواعظ والصلوات والانتماء في الخفاء إلى الجماعات التي اعتنقت أفكار عصر التنوير.

وكان قد هجر مسقط رأسه مبكرا وأخذ يتجول في أماكن عديدة ثم ما لبث أن وصل به المطاف عام 1862 إلى أوديسا مركز الثقافة الروسية اليهودية، حيث قضى خمس سنوات يكسب عيشه من وراء تعليم اللغة العبرية وتدريس الموسيقى وكتابة مقالات وقصص باللغة العبرية لصحيفة هاميليتس. [38] وفي عام 1868 هاجر إلى فينا بهدف الدراسة في جامعتها، ولكنه بدلا من ذلك التحق بإحدى المجلات يعمل «صاف أحرف» تمكن بعدها-بالاشتراك مع رفيق له-من إصدار مجلة شهرية أطلق عليها اسم «هاشاحار» Ha-Shahar (الفجر) وتولى رئاسة تحريرها. [39] وكان يحررها ويطبعها ويوزعها على المشتركين في أوروبا الشرقية وينشر معظم مقالاته ورواياته على صفحاتها.

كانت كتابات سمولينسكين في هذه المرحلة تعبر عن وضعه المتردد بين التمسك بالثقافة التقليدية الدينية وبين الرغبة في الانتقال إلى أفكار العصر الحديث ودعوتها إلى التحرر والانطلاق. وقد بين وضعه هذا كتابه

المتجول في سبيل الحياة، وهو عبارة عن تسجيل لسيرته الذاتية، أشار فيها إلى «مغامرات إنسان يتيم راح يطوف عبر مختلف نواحي الحياة اليهودية المعاصرة في أوروبا، ثم انتهى به طوافه إلى الموت في الدفاع عن شعبه خلال الاضطهادات التي تعرض لها»[40] أي بعبارة أخرى تصور أن بإمكانه الاندماج بسهولة مع باقي الفئات الروسية المسيحية ولكنه سرعان ما اكتشف أن الاندماج مطلب غير مطروق من جانب جماعته فأنهى قصته «حزينا كسير القلب» وفضل التخلي عن الحياة الحرة العلمانية وعاد إلى بني جلدته ليموت بينهم ميتة «الشهداء». [41]

ودأب سمولينسكين في مقالاته ورواياته على انتقاد أسلوب العيش اليهودي ذي الطراز التقليدي المتدين و«الشخصية اليهودية» المتخلفة الخاضعة للتقاليد، ومن جانب آخر طرحت هذه المقالات والروايات جملة حلول لمعالجة أوضاع اليهود ومشاكلهم كان أبرزها «الحل القومي» مما أدى بسمولينسكين إلى أن يلقب ب «أب فكرة القومية اليهودية»[42]. وفي صدد معالجته لأوضاع اليهود الداخلية أكد سمولينسكين على أن العديد من المشاكل التي كان اليهود يجابهونها في روسيا ناجم عن انتشار الجهل بينهم. وبالرغم من أنه وجه انتقادات شديدة لليهود لأنهم لم يستجيبوا لمحاولات الحكومة الروسية الإصلاحية إلا أنه وجه انتقادات أشد لهذه الحكومة التي أساءت معاملة اليهود، واعتبرتهم مواطنين من «حيث الواجبات فقط لا الحقوق.»[43] وعزا سمولينسكين أساس المسألة اليهودية إلى وجود اتجاهين متصارعين بين اليهود: اتجاه المتدينين المتزامتين، واتجاه المثقفين المنصهرين. وهذان الاتجاهان مسؤولان مسؤولية مباشرة عن حالة الضعف والانحلال التي كان يعيشها اليهود آنذاك. وجاءت دعوة سمولينسكين محاولة لإنقاذ اليهود من محنتهم عن طريق إحياء «الروح اليهودية المتميزة»، وبعث الرسالة الخاصة بهم تجاه الإنسانية ومجملها «نشر تعاليم الأنبياء بشأن وحدانية الله والمساواة وأخوة الشعوب والسلام العالمي» وهي الرسالة التي تتيح لليهود مكانة خاصة بين شعوب الأرض لأن تحقيق هذه الرسالة لا يتم إلا بقيادة يهودية محضة. [44]، قد أبدى سمولينسكين استياءه من حالة الضعف التي كان يعيشها اليهود وجاء تعبيره عنها بقوله: « .... إن الشعب اليهودي أحجية عمرها أربعة آلاف عام... تسير بين باقي الشعوب التي

تنظر إليها... نظرتها إلى حيوان كبير مخيف» ولهذا «فإن كل الشعوب تبغض الشعب اليهودي في قلبها، لأن ديانته وعقيدته تختلفان عن مثيلتيها، بالنسبة لأي شعب آخر» وقد أشار سمولينسكين إلى قناعته بأن (اللاسامية) نزعة مغروسة في قلوب جميع الشعوب ضد اليهود في سبيل التخلص منهم. وقد عزا سمولينسكين كراهية الشعوب لليهود إلى أسباب دينية واقتصادية وعنصرية.[45]

وفي معرض تحديده لمفهوم الوجود اليهودي ركز سمولينسكين على وجود اليهود كأمة ترتكز على إحساس ذاتي وتراث ثقافي لدرجة أنه سمي برائد قومية الشتات حيث إنه نص على أن اليهود شكلوا شخصية قومية متميزة بالرغم من أنهم بقوا أقلية في كل مكان بدون وطن خاص بهم .... «كانوا أمة روحية(Am Haruach) والتوراة كانت أساس دولتهم». «نظرنا إلى أنفسنا» قال في مقالته حان وقت الزرع :Et Lata' at (It Is Time To Plant) اعتبرنا أنفسنا «دائما كأمة مع علمنا بأن التوراة هي الرابط الأساسي بيننا، ولم نتوقف حتى يومنا هذا من أن نكون شعبا وأن نكون أمة روحية ينتمي إليها الأفراد على مستوى الروح والفكر وليس على أسس مادية. من حيث الواقعية العملية، كل يهودي هو مواطن تلك الدولة التي يقطن فيها، ومن واجبه أن يكون مواطنا صالحا مطيعا لكل الواجبات التي يقوم بها مواطنو تلك البلد. موطننا هو البلد الذي نسكن فيه. كانت لنا أرض في يوم من الأيام، لكن لم يكن هذا هو السبب في وحدتنا. توراتنا هي وطننا من الناحية الروحية لكننا في حياتنا العملية الطبيعية كبقية الناس. نحن أمة روحية-هذه هي العقيدة الصحيحة التي يجب أن ننادي بها»[46]

يتضح مما سبق أن سمولينسكين نادى ببعث القومية اليهودية الروحية في أرض الشتات وذلك عن طريق توسيع الثقافة اليهودية وإقامة منظمة يهودية عالمية والإبقاء على أمل الخلاص حيا لدى اليهود[47]. وهنا يبدو تأثره واضحا بالحركات التحررية الاستقلالية التي عمت مختلف أرجاء أوروبا وكان يأمل في أن يتمكن اليهود من أن يتبعوا خطاها. «إننا نرى اليوم حكومات جديدة كثيرة وشعوبا جديدة كأنها تبعث حية من بين الأموات وتنضم إلى أسرة الشعوب: اليونان، رومانيا، الصرب، بلغاريا. ومن يعلم كم من الشعوب الأخرى ستنهض وتنفض الغبار عن نفسها وتثبت وجودها.

وحتى في هذا الوقت، وقت بعث الأموات، لا يخطر على بال اليهود أن يفتحوا أفواههم أو يفكروا، ربما جاء يوم خلاصنا أيضا. ربما نستطيع نحن أيضا أن ننهض ولا نبقى مهانين ومحتقرين لدى بقية الشعوب» [48].

وفي أواخر السبعينات أخذ مركز سمولينسكين يتعرض لهجوم على صفحات جريدته من جانب بن يهودا. فقد انتقد بن يهودا القومية الروحية لسمولينسكين كشيء غير مادي وغير عملي لا يستطيع التجاوب بفعالية مع المعاناة المادية لليهود، ويحافظ بالتالي على كسب ولاء الجيل الصاعد. وما لبث سمولينسكين في أعقاب أحداث 1881- 1882 أن اعترف بصحة هذه التهم، وانتابه اليأس من مستقبل اليهودية في المنفى، وتنكر لموقف (المسكيليم) واتجاهاتهم العلمانية. وأخذ يشن حملات انتقاد عنيفة ضد المسكيليم الداعين إلى الانصهار، واعتبر سمولينسكين عملية الانصهار بأنها عملية لا كرامة فيها ولا تتصف بالنزاهة الفكرية. [49] وهاجم أيضا حركة الهسكلاة ووجه نقدا حادا لها وللمصلحين اليهود الألمان، وأخذ يبحث عن تعريف جديد للشخصية اليهودية. وفي سلسلة من المقالات التي هاجم فيها هسكلاة برلين تعرض لمندلسون بالنقد الشديد واتهم دعوته للاستنارة بأنها كانت أيضا دعوة للاندماج والانصهار، واعتبرها انحرافا وخيانة «للتراث اليهودي».كما وصف مندلسون بأنه مثال للجبن اليهودي ونكران الذات القومية. [50] وقد اتهم سمولينسكين الدعوة المندلسونية بأنها تقليد ذليل للمسيحية حيث أدخلت الفرقة والطائفية في الديانة اليهودية، و عاقت التقدم اليهودي عن طريق جعل التقليديين يهابون أي تغيير مهما كان نوعه. وأعاد سمولينسكين الجذور الأساسية للانحلال والتفكك اليهودي إلى مندلسون الذي بشر بأن اليهودية مجرد دين فقط وأن الخضوع لتعاليم التوراة الظاهرة كان المطلب الوحيد للحياة اليهودية. [51]

وقد أكد سمولينسكين على أنه لو تحقق لهسكلاة مندلسون والحركة الإصلاحية اليهودية النجاح لتمخض عن ذلك زوال اليهودية والقضاء عليها لأن هاتين النزعتين-على حد رأيه-قد تخلتا عن قوتين جوهريتين للوحدة اليهودية: اللغة العبرية والأمل بخلاص جماعي للشعب اليهودي. وبالرغم من أنه اعترف بأنه لا ضير على اليهود من استعمال لغة البلد الذي عاشوا فيه في حياتهم اليومية، إلا أنه أصر على أنه «بدون العبرية فلا وجود

لتوراة وبدون توراة لا وجود لشعب إسرائيل». وبالرغم من دعوة سمولينسكين لإحياء اللغة العبرية إلا أنه اشترط أن «لا يحل حب اللغة مكان حب الوطن» فدور اللغة هو غرس «حب الوطن في قلب أخوتنا» [52]

ولهذا دعا إلى تشكيل جمعيات تستطيع الأخذ على عاتقها دراسة وتدريس اللغة العبرية وتقديم العون لكل من يريد دراسة هذه اللغة. كما دعا إلى تأسيس مدارس لتدريب المعلمين والحاخامات وحثهم على إدخال مفاهيم حياتية جديدة لدى الأجيال النامية عن طريق تعليمهم العبرية وتنمية شعورهم القومي وتعميق إخلاصهم لتراثهم وتقاليدهم.

وفي معرض هجومه على المصلحين اليهود الألمان تناول مشكلة القلق النفسي التي تعتري اليهود فعزاها إلى تشتيتهم في مختلف بلدان العالم، ودعا إلى التغلب على هذا التشتت عز طريق «بعث قومي» يهدف إلى تجميع اليهود في مكان معين. ومن اللافت للنظر أنه اتجه بادئ الأمر إلى دعوة الجماهير اليهودية للتجمع في مكان يختارونه إما في شمال أمريكا أو جنوبها. وبقيت فلسطين حتى عام 1882 غير مطروحة لدى سمولينسكين كمكان لاستيطان اليهود. وقد أشار سمولينسكين في تحليله لسر الكراهية التي كان يتعرض لها اليهود فأوضح أن مرد ذلك لا يعود للعامل الديني فحسب وإنما يعود إلى صورة التشرذم والتفتت والنقص التي كان يعشها اليهود كمجموع. ويلاحظ في هذا الصدد أن سمولينسكين حشر في كتاباته الكثير من صور البؤس والمتاعب والآلام وأسهب في الحديث عن التشرد والاضطهاد والتجوال كما اختارها لحياته الخاصة، وحاول إلصاقها بجيله ومعاصريه بشكل خاص، والأجيال اليهودية بشكل عام. ولعله كان يهدف من وراء ذلك إلى تشويه أفكار التنوير كي تبرز الصهيونية كحل وحيد ويعلن استحالة التحرر دون الارتداد عن الدين اليهودي. [53]

وقد استغل سمولينسكين أول موجة من الاضطرابات الداخلية التي تعرضت لها روسيا عام 1881، فبادر إلى إثارة اليهود الروس وإقناعهم بأن هذه الاضطرابات كانت موجهة ضدهم الذات، وأخذ يدعوهم لمغادرة روسيا إلى بلدان أخرى وبالذات صوب العالم الجديد كما مر بنا قبل قليل. غير أنه ما لبث في نهاية عام 1882 أن غير موقفه وأخذ يدعو فقط إلى هجرة «فقراء اليهود ومعوزيهم» إلى فلسطين بهدف استيطانها وإقامة كيان يهودي

فيها، وقد أشار إلى ذلك بقوله: «... وإذا كانت موجة الهجرة ستتوجه إلى أرض واحدة فمن المؤكد أنه ليس هناك مكان في العالم يمكن التفكير فيه سوى أرض فلسطين». [54] وقال أيضا: «... لا يوجد مكان في العالم يمكن أن نأمل بأن يصبح ملجأ لكل التائهين والمشتتين، من أماكن سكنهم، عدا أرض فلسطين... حيث إنهم في كل الدول تقريبا سيحاولون تطبيق قوانين غير جيدة... لا نستطيع العيش معها». [55] ويلاحظ أن سمولينسكين في معرض تبريره لاختيار فلسطين «وطنا قوميا» لليهود قد استند على نتائج الدراسة التي وضعها عدد من الباحثين البريطانيين حول الأرض الفلسطينية وإمكانية استيعابها ما لا يقل عن أربعة عشر مليون مستوطن. [56] ومعنى ذلك أنه كان بمقدور جميع اليهود الراغبين بالهجرة آنذاك أن يهاجروا إلى فلسطين بسهولة متناهية لإمكانها استيعابهم، ولكن سمولينسكين دعا إلى قصر الهجرات اليهودية إلى فلسطين على الفقراء والمعوزين من اليهود. وكان يكفي-في رأيه-أن يهاجر مليون نسمة بادئ الأمر كي تتسنى لهم حياة عمل منتجة ومزدهرة تكون خير دعاية لجلب المزيد من المهاجرين إلى فلسطين. وقد أشار سمولينسكين إلى أن قيام مثل هذه الهجرات يؤدي إلى نتيجة مزدوجة: الأولى تحسين أحوال المهاجرين والأخرى تخفيف الضغط عن الباقين من اليهود في «أرض الشتات». واستطرد سمولينسكين قائلا إن قسما كبيرا من هؤلاء «الباقين» سيستمر في سكناه خارج فلسطين لتمويل عملية الاستيطان اليهودي وتصعيدها. وهذا منطق واضح يبرر سمولينسكين فيه ضرورة بقاء الرأسماليين والأغنياء اليهود في بلدانهم، المختلفة وخاصة بلدان غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. ولذا لم يكن غريبا عندما اشتدت موجة الهجرات اليهودية من روسيا صوب العالم الغربي أن يتخذ سمولينسكين موقفا معارضا لهذا الاتجاه بحجة أنه «لا يخدم مصلحة اليهود» حيث لا ضمان بألا تتغير الأوضاع في الدول الغربية مما قد يؤدى إلى تعرض اليهود إلى مصاعب واضطهادات متزايدة يضطرون عندها إلى البحث عن ملجأ جديد يتجهون إليه.

وقد دعا سمولينسكين إلى عقد مؤتمر يضم عددا من حكماء اليهود وكتابهم في بلد معين بغية إضفاء صبغة الشرعية الروحية على العملية الاستيطانية اليهودية في فلسطين. كما دعا إلى أن يعمل المؤتمرون على

حث المستوطنين على العمل في الزراعة إلى جانب حرفهم التقليدية في مجالي الصناعة والتجارة. فالزراعة-في رأي سمولينسكين-خير ما يؤدى إلى تفاعل المستوطن مع الأرض وتعلقه بها واستقراره عليها.

انضم سمولينسكين إلى حركة أحباء صهيون وكان من أشد المتحمسين لدعوتها إلى تهجير اليهود إلى فلسطين، ولكن حماسه لم يتجاوز نطاق الكتابة والدعوة. أما من حيث القيام بنشاط عملي لتنفيذ أفكاره ومخططاته فهذا ما لم يتطرق إليه سمولينسكين ولم يقم بأي شيء يذكر في هذا المجال.

ليلينبلوم:

أما بالنسبة لموشيه ليلينبلوم [57] Moshe Lilienblaum (1843- 1910) فقد نشأ نشأة متواضعة في أسرة يهودية تقليدية. كان حلم والده أن يحظى ابنه بنشأة دينية، فأرسله وهو في سن الخامسة ليتلقى ثقافة تلمودية [58]. وما إن بلغ التاسعة من عمره حتى حقق شأنا عاليا من التفوق في الدراسات التلمودية. وكما دأبت عليه التقاليد فقد تزوج وهو في السادسة عشرة من عمره، ثم ارتحل عام 1859 من مسقط رأسه متجها إلى مدينة فيلكومير Vilkomir حيث كان يعيش أهل زوجته [59] وبقي فيها مدة عشر سنوات إلى أن تركها عام 1869 مما شطر أوديسا.

لحق ليلينبلوم أثناء إقامته في فيلكومير بركب حركة الاستنارة اليهودية وخضع لتأثير أفكارها،ومفاهيمها وأخذ يدعو للقيام بإصلاح ديني معتدل يتناول بعض ما ورد في التلمود من تعاليم وتشريعات، مما أثار عليه غضب المتدينين، وأدى إلى أن يتخلى عنه الكثير من أهله وأتباعه. لقد تناول ليلينبلوم في دعوته الإصلاحية الأسس التي قامت عليها الديانة اليهودية وميز بين ركنين أساسيين فيها: الركن الأول هو الشريعة الإلهية(Tora she-min ha-Shamayim) التي نزلت على موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء وهي الركن الثابت الذي لا يجوز إجراء أي تغيير فيه. أما الركن الثاني فهو التلمود (Tora she be‘ al peh)بما تضمنه من تشريعات وتعليمات وهو من وضع حكماء اليهود في مراحل الشتات الأولى وذلك لتلبية احتياجات اليهود وتنظيم حياتهم العملية في مختلف نواحيها. [60] وقد استعرض ليلينبلوم

ظروف اليهود في العصور الوسطى والمعاصرة فوجد أن الحاجة ملحة أكثر من أية فترة مضت لأن يقوم حكماء اليهود بتعديل أو إضافة تشريعات وتعليمات جديدة على التلمود لتسهيل مهمة تفاعل اليهود مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية المحيطة بهم. وبتعبير آخر فان ليلينبلوم حاول التوفيق بين حرفية الشرع التلمودي والأفكار التحررية والمجددة التي كانت منسجمة مع روح العصر. ولم يتوقف في دعوته عند هذا الحد، وإنما دعا إلى ضرورة القيام بهذه الإصلاحات بأسرع وقت ممكن. وحذر من مغبة التهاون والتقاعس حيث إن ذلك يؤدي إلى عواقب وخيمة، كاضطهاد متزايد لليهود، أو اندماج اليهود في مجتمعات «الجوييم» والتخلي عن تراثهم ودينهم.[61] وأشار ليلينبلوم في تشخيصه لمصدر الداء اليهودي بأنه داء ذاتي لا يتم التغلب عليه إلا بعلاج داخلي في صميم المجتمعات اليهودية، مبينا عدم جدوى انتظار معجزة خارجية تفد من مجتمعات «الجوييم» لإنقاذ اليهود من دائهم ومشاكلهم. [62] ولعل ليلينبلوم كان يلمح في هذا الصدد إلى ما أشاعه البعض من أن قيصر روسيا آنذاك، الاسكندر الثاني، كان ينوي القيام بتحسين أحوال اليهود وأوضاعهم.

كان ليلينبلوم يقوم بالتدريس في أكاديمية التلمود في مدينة فيلكومير حيث أمضى فيها مدة خمس سنوات (1864- 1869). ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت آراؤه في المدينة مما جعل حياته فيها صعبة لا تطاق حيث اتهمه الكثيرون بالهرطقة والزندقة، فاضطر عام 1869 إلى الهجرة إلى أوديسا مركز التجديد اليهودي آنذاك. [63]

كان يهود أوديسا البالغ عددهم في ذلك الوقت حوالي 50 ألف نسمة، معروفين بالانفتاح الديني وانتشار الفكر الليبرالي الحر بينهم، وبلغت نسبة المندمجين من يهودها ثلاثة أضعاف معدل نسب المدن الأخرى. وهكذا وجد ليلينبلوم نفسه أمام تحد من نوع جديد، فيهود أوديسا تجاوزوا حدود الإصلاح التي وصل إليها هو نفسه، وكانوا بالتالي لا يعيرون دعوته أي اهتمام، فاضطر إلى أن يعيش منزويا ومنطويا على نفسه واتسمت حياته بالتشاؤم والبؤس والعزلة ونظرا لإتقانه اللغة الروسية،فقد اطلع على ما كانت الصحف الروسية تنشره من مقالات وأخبار مما زاده اقتناعا بما كان «النظام الروسي يبيته لليهود من نوايا سيئة» وقد تأثر فترة بآراء المفكرين

الوضعين الروس ثم اعتنق بعض الأفكار الاشتراكية وأخذ في أواخر السبعينات ينادي بالصراع الطبقي، وفجأة وجدناه بعد عام 1881 يتخلى عن ذلك كله ويكرس بقية حياته للنشاط الصهيون. [64]

يعتقد الكثير من المؤرخين أن اعتناق ليلينبلوم الدعوة الصهيونية قد جاء نتيجة للصدمة التي أحدثتها اضطرابات عام 1881 وأدت إلى ارتداده المفاجئ عن الاتجاهات العلمانية. ولعله ليس من قبيل الصدفة أن تجيء دعوة ليلينبلوم إلى الصهيونية بما تضمنته من حث لليهود الروس على الهجرة في الوقت الذي بدأت فيه الطبقة الوسطى الروسية تأخذ مكانها وتقتلع اليهود من حرفهم ومهنهم، خاصة في مجال التجارة،مما جعل اليهود مهيئين للجوء من روسيا والبحث عن مكان آخر،ومما قاله في هذا الصدد: «... إن أمم أوروبا اليوم أصبحت تجيد فنون التجارة كاليهود، لذا فهم ليسوا بحاجة إلينا... فإلى أين سنهرب... ؟»[65]

وأخذ ليلينبلوم يدعو إلى توجيه المهاجرين اليهود الروس صوب فلسطين، ليقيموا مستوطناتهم هناك كبداية لإقامة دولة يهودية فيها مبديا في الوقت نفسه معارضته الشديدة لهجرة اليهود إلى أوروبا الغربية وأمريكا،لأن في ذلك مضيعة للجهد ولا فائدة ترجى من ورائها واستمر ليلينبلوم يعمل جاهدا على بلورة آرائه ومفاهيمه بهدف وضع حل للمسالة اليهودية، وذلك من خلال مقالات كان ينشرها بالروسية في الصحافة اليهودية أو يترجمها إلى العبرية،وعمل فيما بعد على جمع هذه المقالات وأعاد طباعتها ونشرها عام 1884 عل شكل كراس بعنوان «حول بعث اليهود على أرض آبائهم». [66]

استهل ليلينبلوم كراسه بالشكوى والتذمر من حياة «الغربة والذل والمهانة» التي ادعى أن اليهود يواجهونها في أمكن سكناهم بروسيا، ولعله هنا كان يعكس أيضا معاناته الشخصية أثناء إقامته في أوديسا، ودعا إلى ضرورة إيجاد وطن يستقر فيه اليهود في «... حياة منظمة طبيعية وقومية مثل باقي البشر» وبين أن إيجاد مثل هذا الوطن هو وحده الطريق الذي يكمن فيه خلاص اليهود من حياة «الغربة والذل والمهانة» فبقاء اليهود في وضعهم ا الحالي أو انصهارهم في الشعوب التي يعيشون بينها،ليس في أي منهما استقرار لليهود أو خير لهم.

وانتقل ليلينبلوم بعد ذلك ليتحدث عن المناخ القومي الذي كان يسود

أجواء أوروبا ،فاستعرض الحركات القومية التي اشتعلت في اليونان وهنغاريا وإيطاليا وألمانيا وباقي دول وسط أوروبا ،وبين كيف أن عدوى الحركات القومية بدأت تطرق أبواب أوروبا الشرقية وروسيا بالذات وحذر من مغبة انتشارها وما يرتب عليها من اندلاع لهيب النزعة اللاسامية التي تهدد«أمن اليهود وسلامتهم» ولم يجد ليلينبلوم منفذا لليهود سوى ضرورة البعث القومي بينهم،حيث إن الروح القومية-عل حد تعبيره-كامنة في التعاليم الموسوية وستنشط حال إسراع اليهود بالهجرة إلى فلسطين و« ... بعث اليهود على أرض آبائهم حيث ستعيش هناك أجيالهم حياة طبيعية وقومية بكل معنى الكلمة». [67]

ومن أجل تأمين الحصول على فلسطين دعا ليلينبلوم زعماء اليهود في أوروبا الغربية للتوسط لدى حكوماتهم للضغط على الدولة العثمانية كي تسمح لليهود بالهجرة إلى فلسطين كما دعا ليلينبلوم هؤلاء الزعماء إلى جمع مبلغ عشرة ملايين روبل، لشراء مساحات من الأرض الفلسطينية في الدولة العثمانية لتأمين استيطان جماعات من اليهود عليها. [68] ويلاحظ هنا أن ليلينبلوم قد دعا إلى قصر الهجرات على المزارعين والحرفيين وصغار الرأسماليين ممن هم من أصل يهودي بغض النظر عن مدى تطرفه أو اعتداله في آرائه الدينية أو السياسية. ولم يقتصر ليلينبلوم في دعوته الاستيطانية على أرض فلسطين وإنما تعدى ذلك إلى الأرض السورية بكاملها ودليل ذلك أنه دعا إلى تأسيس جمعية استيطانية سماها «جمعية استيطان أرض فلسطين وسوريا».

وقد انضم ليلينبلوم إلى حركة أحباء صهيون وانتخب فيما بعد لعضوية لجنتها التنفيذية وعمل بنشاط في سبيل دعم وتطوير المستوطنات التي أقامتها الحركة في فلسطين.

بن يهودا:

وتنتقل بنا الدراسة الآن إلى مفكر آخر من المفكرين الصهاينة الأوائل هو اليعيزر بن يهودا Eliezer Ben Yehuda (1858-1922) تلقى في صغره تربية دينية محافظة في أسرة تنتمي لليهود المتميزين [69] من مدينة لوشكي بمقاطعة لتوانيا الروسية. ثم قضى بعض سني شبابه في أكاديمية التلمود

في بولوتسك Polotosk ثم ما لبث أن التحق بمدرسة علمانية،ووقع تحت تأثير الآراء الثورية التي كانت منتشرة بين المثقفين الروس وخاصة العدميين Nihilists منهم.

فاستهوته الأفكار الاشتراكية والعدمية وحركة الإحياء القومية الروسية المعروفة بنارودينكي Narodniki (أي العودة إلى الشعب) ولكنه بالرغم من ذلك ظل يهتم بالثقافة العبرية[70] وحاول تقليد فكرة القومية الروسية (الحركة السلافية) بالدعوة إلى «قومية يهودية» على أساس علماني وسياسي. وبعد فترة قصيرة قضاها في باريس [71] والجزائر (1878- 1881) هاجر إلى القدس عام 1881 واستقر فيها حتى وفاته.[72]

سبق بن يهودا غيره من المفكرين اليهود الروس بتبنيه الحل القومي للمسألة اليهودية فقد أعلن أن اليهود ظلوا يشكلون وحدة قومية متكاملة بفضل ديانتهم وعزلتهم، ولكنه حذر من أن الشعور الديني بدأ يضعف بين اليهود في أواخر السبعينات كما أنهم بدءوا يخرجون عن نطاق العزلة وباتوا مهددين بالانصهار في الشعوب الأخرى ولذا فقد دعا بن يهودا إلى إنشاء جمعية استيطان يهودية لشراء أراض في فلسطين وتوطين اليهود فيها من أجل المحافظة على الوجود اليهودي في المكان الذي وصفه بأنه «الوحيد المناسب لذلك».

أما بالنسبة للمفهوم القومي لدى بن يهودا فقد طوره وميزه عن مفاهيم من عاصره من مفكرين. وقد عبر عن ذلك بقوله: « ... هناك ثلاثة أشياء محفورة بأحرف من نار على راية القومية: بلاد، ولغة قومية،. وثقافة قومية...» وقد انصبت معظم جهوده على إحياء اللغة العبرية لتحويلها من مجرد لغة مكتوبة تستعمل لأهداف دينية وعلميه، إلى لغة منطوقة تستعمل في الحياة اليومية، وتصبح بالتالي «لغة اليهود القومية». «إن اللغة العبرية»، قال بن يهودا عنها: «هي لغتنا القومية... وقد أخطأ آباؤنا باستبدادلهم لغتنا بلغات أخرى... إن بعث اللغة سيكون بمثابة إشارة إلى أن بعث الأمة... لن يتأخر». [73] وقد اعتبر بن يهودا التشتت نتيجة طبيعية لعدم توفر لغة موحدة «فاضطراب الألسنة» أدى إلى تشتت اليهود في شتى أرجاء الأرض. ثم أضاف بعد ذلك قائلا إنه طالما أن اضطراب الألسنة قد أدى إلى التشتت فإن إحياء اللغة الموحدة وبعثها يؤدى إلى إعادة التجمع والتوحد.

وقد بين بن يهودا أن من أهداف إحياء العبرية أيضا حماية اليهود من خطر الاندماج نتيجة استعمالهم لغات محلية وطنية وخاصة لغة اليديش. ومما بينه أيضا أن العبرية-لغة التوراة-توفر للكتاب والروائيين ثروة خصبة من الصور والشخصيات التاريخية «كالإقدام والشجاعة» والمحاربين والمقاتلين و «رجال العمل المواظبين» بهدف إتلاف صور اليهود التقليدية بما تتضمنه من مكر وخداع وبؤس. وفي الوقت نفسه التأكيد على انه بالعمل السياسي الإيجابي وليس بالجلوس والترقب للمسيح المنتظر يمكن القيام بتغيير الصورة اليهودية التقليدية. (74)

ولكن اهتمام بن يهودا باللغة العبرية جلب عليه لعنة اليهود الأرثوذكس الذين كانوا يعتبرون العبرية لغة مقدسة لا تستخدم إلا في الصلاة، فدخل معهم في مناظرات ومجادلات كثيرة واعبروه ملحدا وكافرا. واستمر بن يهودا متمسكا بآرائه ومضى في أعقاب هجرته إلى القدس على العمل جاهدا لإحياء اللغة العبرية وتطويرها. فأخذ في تحديث اللغة وإثرائها بالمفردات اللازمة، وذلك كي تتمكن من تلبية احتياجات ظروف الحياة المعاصرة، ووجد أن أفضل الحلول هو وضع قاموس شامل للعبرية يكون مرجعا لمن يريد تعلمها ودراستها. وقد أمضى بن يهودا مدة تزيد على الأربعين عاما وهو يعمل على إخراج هذا «القاموس العبري القديم والحديث» معتمدا في ذلك على دراسته للتلمود والكتب والمخطوطات العبرية بالإضافة إلى اللغة العربية. وصدر من هذا القاموس 17 مجلدا، كان منها 5 مجلدات قبل وفاة بن يهودا. (75) لقد تمكن بن يهودا بعمله المتواصل من المساهمة بشكل رئيسي في إحياء اللغة العبرية وتحديثها بشكل أصبحت معه اللغة المنطوقة بالنسبة لغالبية المهاجرين اليهود الذين وفدوا لاستعمار فلسطين واستيطانها.

وهكذا وضعت نظريات هؤلاء المفكرين الأسس الفكرية والعقائدية للحركة الصهيونية وكانت مسؤولة إلى حد كبير عن دفع موجات الهجرة اليهودية الأولى من روسيا إلى فلسطين، وساهمت في إرساء دعائم النزعة الاستيطانية التوسعية للعمل الصهيوني في فلسطين والشرق العربي خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

الهوامش

(1) كان اليهود عام 1880 موزعين في العالم حسب التقديرات التالية:

	العدد	النسبة المئوية
المجموع الكلي	7 , 500 , 000	٪100
روسيا وبولندا	4 , 250 , 000	٪56 , 2
النمسا والمجر	1 , 500 , 000	٪20
أوروبا الغربية	1 , 000 , 000	٪13 , 3
الولايات المتحدة	250 , 000	٪3 , 3
آسيا وأفريقيا	478 , 000	٪6 , 4
فلسطين	22 , 000	٪0 , 8

انظر The Jewish Encyclopedia Vol 5, pp. 1493-1502 وانظر أيضا جريس: ص 42.

(2) Erza Mendelsohn, Class Struggle in the Pale; the Formative Years of the . Jewish Workers Movement in Tzarist Russia (London: 1970), pp. 1-26 وانظر أيضا جريس، ص 41.

(3) ابراهام ليون المفهوم المادي للمسألة اليهودية (ترجمة دار الطليعة) (بيروت: 1970)، ص 91

(4) المصدر نفسه.

(5) «حظيرة التوطن اليهودية» تسمية بولندية الأصل. وقد كانت هذه الحظيرة تشمل المستوطنات اليهودية في أقاليم مملكة بولندا الأربعة: بولندا الكبرى Great Poland وبولندا الصغرى Little Poland وفولهينياVolhynia وليثوانيا Lithuania وحين ضمت روسيا معظم هذه الأقاليم إليها عام 1795 بقيت التسمية قائمة حتى أوائل عهد القيصر (الاسكندر الثاني). ولمزيد من التفاصيل انظر: Sachar, pp .31-33.

(6) في الوقت الذي كانت فيه الطبقة الوسطى (البرجوازية المحلية) تقود الثورات في أوروبا الغربية ضد الطبقات الأرستقراطية والإقطاعية معتمدة في ذلك على عامة الشعب، وفي الوقت الذي دعمت فيه هذه الطبقة انتصاراتها عام 1848 بوصولها إلى السلطة في معظم دول أوروبا الغربية، في هذا الوقت بالذات كانت الطبقة الوسطى في روسيا غائبة إلى حد كبير عن مسرح الأحداث. فالنظام الإقطاعي الدكتاتوري كان لا يزال مسيطرا على روسيا، وكانت غالبية الشعب ترزح تحت قيود القنانة. وبالرغم من ظهور الفئات المستنيرة (الانتلجنسيا Intelligentsia ومشاركتها في الثورة الديسمبرية عام 1825 إلا أن دورها ظل محدودا ولم تستطع أن تسد فراغ الطبقة الوسطى. ويمكن اعتبار عام 1861 حين اضطر الاسكندر الثاني إلى إصدار فرمان تحرير الأقنان الروسي مؤشر بداية لظهور الطبقة الوسطى الروسية.

(7) W. Sombart L' apogée du Capitalisme (Paris: 1932) وانظر أيضا ليون، ص 26.

(8) بالرغم من انخراط عدد من يهود روسيا في سلك العمل بالمنشآت والمشاريع الصناعية، إلا أنهم تعرضوا لضغوط شديدة من شتى المجتمعات اليهودية في روسيا وخارجها لإبقائهم بعيدا عن التنظيمات العمالية الروسية، وإن كان لا بد من انخراطهم في تنظيمات عمالية فلتكن

تنظيمات يهودية مرفة كالبوند والصهيونية العمالية.

(9) يلاحظ من الإحصائيات المنشورة في أحد المصادر المتعلقة بالتاريخ اليهودي أن عدد اليهود الروس الذين هاجروا إلى أمريكا في الفترة ما بين عامي 1820 و 1870 بلغ حوالي 500 ,7 نسمة ولكن هذا العدد تزايد بقفزات سريعة في العقود التالية وذلك كما يلي:-

1870- 1880	000 ,40 نسمة
1881- 1890	000 ,135 نسمة
1891- 1900	000 ,279 نسمة
1901- 1910	245 ,704 نسمة

انظر Salo W. Baron, The Russian Jew Under Tsars and Soviets (N. Y. 1964) P. 84. وهناك مصدر آخر يشير إلى أن عدد المهاجرين اليهود الروس إلى أمريكا في الفترة بين عامي 1880-1914 بلغ حوالي مليوني شخص. ولمزيد من التفاصيل انظر :Parkes P. 169 .

(10) دخلت هذه الكلمة معظم اللغات الأوروبية للدلالة عل «الاضطهادات» التي تعرض لها اليهود في روسيا.

(11) تشير جميع المصادر الصهيونية وغالبية المصادر الغربية-عل سبيل المثال-إلى أن مجموع الضحايا اليهود عل يد النازية الألمانية بلغ حوالي ستة ملايين نسمة. غير أن هناك بعض الدراسات الحديثة التي تعتبر أن هذا الرقم مبالغ فيه بشكل كبير. ففي دراسة اطلع عليها الباحث، كان يقوم بإعدادها Joseph Schiebel أستاذ التاريخ الروسي بجامعة جورجتاون - قبل وفاته - تضع الحد الأعلى للضحايا اليهود ما لا يزيد على 2/1 مليون أي الرقم المتعارف عليه.

(12) كانت عائلة روتشيلد-على سبيل المثال-تمتلك استثمارات واسعة في روسيا بالإضافة إلى القروض الضخمة التي قدمتها للحكومة الروسية. انظر: هلبروك ص 51.

(13) ظهر الكراس في سبتمبر عام 1882 وكتب باللغة الألمانية ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن غالبية اليهود الروس كانت تستعمل لغة اليديش القريبة إلى الألمانية (85٪ من مفرداتها ألمانية) ولم يضع بنسكر اسمه عل الكراس في طبعته الأولى،وإنما اكتفى بالعنوان: التحرر الذاتي: نداء من يهودي روسي إلى بني قومه.

(14) وهي كلمة عبرية تعني حركة الاستنارة اليهودية. ظهرت هذه الحركة في منتصف القرن الثامن عشر واستمرت حتى حوالي عام 1880. وكانت تدعو اليهود إلى الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها والتمسك باليهودية كدين فقط. وقد ازدهرت حركة الهسكلاة في ألمانيا وامتدت بعد ذلك إلى دول أوروبا الأخرى. ولمزيد من التفاصيل انظر: المسيرى، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص 72- 74.

(15) كلمة عبرية مفردها «مسكيل» أي «العالم» أو «الرجل المستنير» وقد استخدم هذا التعبير لأول مرة في إيطاليا في القرن الرابع عشر وانتقل بعد ذلك في مطلع القرن التاسع عشر إلى السلافية ليعني ذلك العالم اليهودي الذي يبحث عن المعرفة ويبشر بحركة الاستنارة اليهودية (الهسكلاة) انظر المصدر السابق ص 74.

(16) يطلق عليها صبري جريس اسم «جمعية ناشري العلم». انظر جريس ص 91.

(17) المصدر السابق. وهذا نموذج لفكر المسكيليم دعاة حركة الهسكلاة. ويتضح من هذا أيضا أن بنسكر في هذه المرحلة كان أبعد ما يكون عن الفكر «القومي اليهودي» الذي لا يدين بالولاء للدولة التي يعيش اليهود بين ظهرانيها.

(18) ومن الملاحظ أيضا بالنسبة لهذه الدعوة، أن العداء تجاهها لم يكن مقتصرا على الفئات المتدينة فقط وإنما نجد الكتابات الصهيونية فيما بعد قد تناولتها بالتعريض والذم. المصدر السابق.

(19) مع بداية انهيار النظام الإقطاعي الذي كان سائدا في روسيا، أحس بنسكر أن المجال أصبح مهيأ لاتباع خطا الدول الأوروبية الغربية وتبنيها الخط الليبرالي، خامة وأن الطبقة الوسطى بدأت تظهر على أنقاض النظام القديم، وأخذت تسعى للحصول على مزيد من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي المكاسب السياسية.

(20) تعزو غالبية المصادر وقوع هذه الاضطهادات ضد اليهود الروس إلى وجود فتاة يهودية بين المجموعة التي تآمرت لاغتيال القيصر الروسي الاسكندر الثاني. وتشير هذه المصادر إلى أن الحكومة القيصرية الروسية اتخذت في أعقاب هذه المؤامرة عددا من القرارات المناهضة لليهود والمقيدة لحريتهم مما أدى بهم إلى البدء بالهجرة صوب أوروبا الغربية وأمريكا ولم يتجه إلى فلسطين خلال تلك الفترة سوى عدد قليل منهم.

(21) Hertzberg, P.194 ، الترجمة العربية ض، ص 92.

(22) نجده فتحي صفوت، هجرة اليهود من روسيا القيصرية، يهود العالم والصهيونية وإسرائيل (بيروت: 1974) ص 83.

(23) Hertzberg P. 187، وكان واضحا أن بنسكر استثنى حتى أثرياء اليهود الموجودين في روسيا من الهجرة خارجها. وهذا يعزز الفكرة القائلة بأن الهجرة كانت محصورة في نطاق الفقراء بهدف إتاحة الفرصة أمام الأثرياء كي يتخلصوا من عبء الفقراء ومشاكلهم.

(24) وهنالك مزيد من التحليلات حول هذا الموضوع في الدراسة القيمة التي كتبها إلياس سعد، ملاحظات أولية حول الأيديولوجية الصهيونية من حيث نشأتها وأصولها المجتمعية، شؤون فلسطينية (بيروت: أغسطس 1972) ع 12، ص 21-22.

(25) Hertzberg, Pp.189-190

(26) انظر: لطف الله حيدر، الجذور الطبقية للحركة الصهيونية، شؤون فلسطينية (بيروت: أغسطس 1974) ع 36، ص 102.

(27) ماهر الشريف، أسس الأيديولوجية الصهيونية،شؤون فلسطينية (بيروت: يوليو 1975)، ع 47، ص 116.

(28) ومما قاله بنسكر أيضا في هذا الخصوص: «... تخلى اليهود متعمدين عن قوميتهم إلى حد ما وذلك كي يختلطوا مع الغير. ولكنهم لم ينجحوا في تحقيق اعتراف جيرانهم في أنهم مواطنون ذوو حقوق متساوية... لكن أقوى دافع يعمل على منع اليهود من الكفاح لتحقيق وجودهم القومي هو عدم شعورهم بالحاجة إلى مثل هذا الوجود. ليس أنهم لا يشعرون بمثل هذه الحاجة فقط، إنما يذهبون إلى درجة إنكارها... إن فقدان الشهية للأكل والشرب عند الرجل المريض هو من عوارض الخطر. لكن ليس من السهل شفاؤه من هذا العارض كليا، ذلك أنه لو انفتحت شهيته فهناك مسألة ما إذا كان باستطاعته هضم طعامه أم لا. إن حالة اليهود التعيسة هي كحالة هذا المريض. لذلك علينا أن نهتم بهذه القضية، علينا أن نبرهن بأن مصائب اليهود ناجمة عن فقدانهم الرغبة في الاستقلال، لذا كان من الواجب إيقاظ هذه الرغبة فيهم والمحافظة عليها إذا أرادوا أن يتخلصوا من حالتهم المخزية هذه-أي من الضروري أن نبرهن لهم بأنه يجب عليهم أن يصبحوا أمة». انظر184-183 . Hertzberg, Pp، الترجمة العربية ص 82-83.

(29) وقد أضاف بنسكر إلى ذلك قوله: « ... أصبح الخوف من اليهودية إلى جانب عدد من الأفكار والغرائز والتصورات الخيالية المدفونة في اللاشعور، أصبح متعمقا في طبيعة شعوب الأرض كلها التي يتعامل معها اليهود..» ويستمر بنسكر في تحليله المنطلق من موقف عنصري واضح: « ... أصبح الخوف من الشبح اليهودي مرضا معروفا بكل أجناس البشرية وغير مقتصر على بعض منها. هذا ولم يكن اليهود روحا كسائر الأشباح إنما كان جسما من دم ولحم يقاسي من جروح بليغة انظر Hertzberg, P .185، الترجمة العربية ص 83.

(30) الديمونوباثيا مرض عقلي أو جنون يسببه الخوف من الشياطين والأرواح الشريرة انظر العظم ص 127.

(31) وقد انطلق هرتزل أيضا في تفكيره السياسي من المنطلق العنصري المتضمن أن الحركة المعادية للسامية موجودة مع الإنسان باستمرار وعلى الدوام. ويرتب على ذلك نتيجتان أشار إليهما هرتزل وبعض المفكرين الصهاينة وهما:

أ- طالما أن العداء للسامية موجود وجودا أزليا «فالأمة اليهودية» موجودة وجودا أزليا أيضا.

ب- وطالما أن العداء للسامية من الطبيعة البشرية فالحل الوحيد هو إنشاء «وطن يهودي» في فلسطين أو غيرها. وقد علق هرتزل على حركة العداء للسامية بقوله: « ... أعتقد بأنني أفهم أبعاد اللاسامية التي تمثل إلى حد كبير حركة متشابكة التعقيد. أنا انظر إليها من زاوية يهودية لكن دون أي خوف أو وجل.» وهكذا يتضح أن هرتزل سار على نفس المنوال الذي سار عليه بنسكر في استغلال حركة العداء للسامية لخدمة أهدافه الخاصة دون العمل على استئصالها بالتعاون مع الفئات المستنيرة من الشعوب التي كان هو وبنسكر يعيشان بين ظهرانيها. انظر Hertzberg 209, الترجمة العربية ص 105.

(32) Hertzberg, P.196، الترجمة العربية ص 94.

(33) المصدر السابق. وقد كان هرتزل أكثر وضوحا في تحديده مصادر الربح التي كانت البرجوازية اليهودية تسعى إلى تحقيقها من وراء هذه الشركة:

أ- إنشاء مشاريع تجارية في المستعمرة.

ب- المضاربة ببيع الأراضي وشرائها بين أوروبا وفلسطين.

جـ- توفر الاحتياطي الكبير من اليد العاملة الرخيصة.

ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر Theodor Herzl, The Jewish State (London: 1934), P.37

(34) انظر Herzl, Ibid وانظر أيضا يوري ايفانوف، احذروا الصهيونية (موسكو: 1969)، ص 69.

(35) Herzl,Ibid

(36) ولد سمولينسكين عام 1842 قرب مدينة موجيليف Mogilev حيث كان يقيم قسم كبير من السكان اليهود آنذاك. فقد والده وهو في الحادية عشرة من عمره وجند أخوه الأكبر في الجيش القيصري لأداء الخدمة العسكرية، وعاش بالتالي حياة فقر مدقع. لمزيد من التفاصيل انظر:
Robert Seltzer, Jewish People, Jewish Thought (N. Y. : 1980) Pp.639-690.

(37) جريس ص 85.

(38) المصدر نفسه.

(39) Seltzer, P.689

(40) عبد الوهاب المسيري، في نهاية التاريخ: دراسة في بنية الفكر الصهيوني (بيروت: 1979) ص 21.

(41) المصدر نفسه.
(42) جريس ص 86.
(43) المصدر نفسه.
(44) Hertzberg, P.145
(45) جريس ص 86.
(46) هرتزبرغ (الترجمة العربية)، ص 46-47، وفي رواية سمولينسكين Gemul Yesharim ورد على لسان غابرييل ما يلي: تعتبر التوراة التي ورثناها عن أجدادنا بمثابة إكسير الحياة التي تحيى أرواحنا «... إننا لا زلنا أحياء بفضل التوراة، وإذا ما سمحنا لأنفسنا بالتخلي عنها فالأجدر بنا الموت، لأن حياتنا آنذاك تندثر وذكرانا تخبو جذوتها، ولن نكون مسؤولين فقط عن ضياع أنفسنا بل وسنكون أيضا مسؤولين عن ضياع تراث مئات الأجيال عبر آلاف السنين الماضية. وسنمحو بالتالي كل أثر لوجودنا بجرة قلم» وللمزيد انظر46-47. Vital, Pp
(47) جريس ص 87.
(48) المصدر نفسه.
(49) Vital, P.47 وقد ذهب إلى أبعد من ذلك حين اتهم المندمجين بالخيانة، وقد دعا اليهود إلى التمسك بماضيهم والاهتمام بحاضرهم ومستقبلهم وخاصة بالنسبة ليهود أوروبا الشرقية.
(50) Seltzer, P.689
(51) كما أشار سمولينسكين إلى أن اليهود لم يتوقفوا عبر آلاف السنين عن تكوين شخصية يهودية متجانسة انظر: المصدر السابق.
(52) المصدر السابق ص 691 .
(53) انظر المصدر السابق.
(54) جريس ص 87.
(55) المصدر نفسه.
(56) Hertzberg, P.150
(57) ولد ليلينبلوم في كيدان Kaidan قرب كوفنو Kovno في ليتوانيا، وكان والده فقير الحال يعمل في صنع البراميل. لمزيد من التفاصيل. انظر: Vital, pp 111-122.
(58) وصف ليلينبلوم حياته في تلك الفترة بقوله: «... كان عمري أربع سنوات وثلاثة أشهر وقبل أن تكتمل قواي العقلية والبدنية تحملت عبء دراسة التوراة وقسوة المدرسين، ومنذ تلك الفترة تعودت على أن أقضي اليوم حبيس غرفة الدراسة. لم يكن يسمح لي بمتعة انطلاق الطفولة ولم يكن يسمح لي أن أنمو بحرية واستمتع باستقلالية غير مقيدة... كنت محروما من كافة الأمور خارج نطاق التلمود». انظر المصدر نفسه ص 111.
(59) ما لبث أن هجر زوجته في أعقاب نشوء علاقة رومانسية بينه وبين إحدى نساء فلكومير، المصدر نفسه ص 112.
(60) المصدر نفسه.
(61) المصدر نفسه ص 113.
(62) Laqueur, p. 68
(63) Hertzberg, p. 167
(64) المسيري، المصدر السابق ص 234.

(65) لمزيد من التفاصيل انظر ليون، ص 26 وانظر أيضا : Baren, pp. 84-6

(66) جريس ص 89.

(67) المصدر نفسه، ص 90.

(68) ومما قاله في هذا الصدد : « ... وسوف لا نجد صعوبة في جمع التبرعات. ولقد قلت إن أمة عدد أفرادها ثمانية ملايين نسمة باستطاعتها أن تجمع عشرة ملايين روبل لتبدأ العمل. وقد تبدأ تبرعاتنا بحملة جمع كوبك (بنس روسي). فمن أراد أن يساعد الفكرة القومية عليه أن يدفع كوبكا واحدا في الأسبوع، يوضع في صندوق مخصص في كل بيت، وذلك من أجل الاستيطان في الأرض (الفلسطينية). وفي خلال عام واحد سيصل هذا المبلغ إلى آلاف الروبلات، كما أنه بالإمكان أخذ نسبة مئوية من الأموال التي توهب للمجامع الدينية، وربما كان بالإمكان إقامة سحب يانصيب يهودي، للاستغناء عن فكرة بيع أسهم في الشركات وما شابهها. وباختصار. إنه من الممكن بطريقة أو بأخرى أن تجمع بإذن من الحكومة مبالغ ضخمة من الأموال وذلك من أجل شراء أرض للاستيطان من الحكومة التركية. ويمكن استعادة المبالغ هذه من الأموال التي يدفعها الأفراد في شراء قطع أرض صغيرة ومن الإيجار الذي يدفعه المستعمرون. وبهذا سنجمع ثانية لشراء أراض كبيرة جديدة ولشق الطرق ولتحسين الري وزرع الغابات.. الخ» Hertzberg pp . 175 -6 وانظر أيضا الترجمة العربية ص 76-77.

(69) وهي فئات من اليهود كانت تتمتع بمركز اجتماعي واقتصادي متميز وهي قلة (بالنسبة للجماهير اليهودية. وللمزيد حول هذا الموضوع انظر: . Sachar, pp. 40-41

(70) انضم إلى قراء مجلة الفجرHashahar التي كان يصدرها سمولينسكين، معتنقا نظرية القومية الثقافية التي عبرت عنها مقالات المجلة.

(71) هاجر إلى باريس عام 1878 لدراسة الطب لكن مرضه بالسل حال دون اتخاذه الطب مهنة.

(72) لم يترك القدس باستثناء أربع سنوات قضاها في أمريكا خلال الحرب العالمية الأولى.

(73) لمزيد من التفاصيل حول موضوع اللغة العبرية انظر:

Jay Y. Gonen, A Psyche-History of Zionism (New York: 1975) pp.101- 6

(74) المصدر نفسه.

(75) جريس ص 96.

4

هرتزل والصهيونية السياسية بين النظرية والتطبيق

يعتبر تيودور هرتزل المؤسس الحقيقي للصهيونية السياسية الحديثة وإليه يعود الفضل في إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية. لقد كرس هرتزل العقد الأخير من عمره داعيا إلى تنظيم المجتمعات اليهودية والتنسيق فيما بينها تحت راية هذه المنظمة، كما قام بدور رئيسي في إبراز الصهيونية على مسرح السياسة العالمية حيث أخذت الدول الكبرى تبحث في إمكانية التعامل معها كحليف يمكنها استخدامه في دعم مصالحها الاستعمارية.

ولد هرتزل في مدينة بودابست بالمجر عام 1865، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي فيها. وفي عام 1878 قررت أسرة هرتزل الانتقال إلى فينا في أعقاب وفاة أخته الوحيدة بالتيفوئيد، وتعرض والده لخسارة مالية أفقدته مركزه الاقتصادي المتميز بين يهود بودابست. التحق هرتزل بجامعة فينا (1878-1884) وتخرج منها بدرجة دكتوراه في الحقوق. ثم

عمل هرتزل في أعقاب ذلك في سلك المحاماة بفيينا،إلا أنه سرعان ما ترك عمله هذا وتوجه إلى عالم الأدب والكتابة الصحفية بحثا وراء المجد والشهرة. انضم في عام 1891 إلى جهاز صحيفة (نيوفراي بريس) Neue Freie Presse، أوسع صحف النمسا انتشارا، وعين مراسلا لها في باريس حيث بقي هناك حتى عام 1895، حين عاد إلى فينا لتسلم رئاسة تحرير القسم الأدبي في الصحيفة. (1)

ومن الملاحظ في سيرة هرتزل، أن ثقافته العبرية كانت ضعيفة لدرجة أنه حينما أراد تأدية الصلاة في كنيس مدينة بازل قبيل افتتاح المؤتمر الصهيوني الأول، اضطر لتعلم الكلمات العبرية الخاصة بالصلاة وعلق على ذلك في يومياته بقوله: « .... إن تلك الكلمات العبرية ضغطت علي أكثر من خطابي الافتتاح والاختتام (في المؤتمر)... وأكثر من إدارة الجلسات بأسرها.»(2) ويتضح عدم اكتراثه بالتقاليد اليهودية أيضا حين نجده يعلن على لسان بطل رواية «الجيتو الجديدThe New Ghetto> رغبته في التحرر من قيود «الجيتو (اليهودي) غير المنظور» والخروج «إلى العالم الواسع». كما أنه في عدة مناسبات أظهر ميلا للتنصر والاندماج في المجتمعات الأوروبية، ولم يمنعه من ذلك سوى خوفه من ردود فعل أفراد أسرته وخاصة والده. وأظهر هرتزل اهتماما واسعا بالثقافة الألمانية التي كانت سائدة آنذاك، في غالبية أجزاء الإمبراطورية النمساوية-المجرية، بالإضافة إلى باقي أنحاء أوروبا الوسطى.

كانت إقامة هرتزل في باريس فرصة مناسبة له للتعرف على شتى جوانب «المسألة اليهودية» لا سيما وأن فرنسا كانت آنذاك مسرحا لفضيحة قناة بنما (3) وقضية دريفوس (4) حيث بلغت موجة العداء للسامية ذروتها، مما دفع هرتزل-كما ورد في كتاباته-إلى الدخول في ساحة العمل الصهيوني بادئا بذلك مرحلة جديدة في حياته. ففي منتصف عام 1895 شهدت حياته تحولا جذريا-كما أشار في يومياته-وأدى به هذا التحول إلى تأسيس المسألة اليهودية وتزعم الدعوة الصهيونية السياسية الحديثة. ومما قاله في هذه الفترة حول المسألة اليهودية: « ... إن النزعة اللاسامية تتزايد وتتزايد، والسر في ذلك يعود إلى إجراءات تحرير اليهود. إن جميع الشعوب لا يتوفر لديها الإدراك التاريخي الوافي، وبالتالي لا تستطيع أن تستوعب التجربة

القاسية التي عاشها شعبنا عبر العصور الماضية التي اتسمت بالشدة وضيق الأفق. إن لجوءنا للمال واكتنازه من صنع هذه الشعوب التي دفعتنا إليه بالقسوة والإرهاب. الكنيسة نفسها لم تشجع أبناءها على التعامل بالمال والصيرفة، واستعانت بالحكام لإجبارنا على التعامل في هذه المهنة. هم الذين جعلونا نتمسك بالمال ونصبح دائمي القلق عليه، خوفا من السلب أو النهب. لقد أصبح اليهود هم عبيد الحكام يجمعون الضرائب ويكنزون المال، ثم يأتي دور هؤلاء الحكام ليسلبوهم هذا المال ويصادرونه. وحينما تشتد الضائقة ويترك اليهود جمع المال جانبا يتجهون بحثا عن مهن أخرى ولكنهم سرعان ما يقعون في ضائقة جديدة حينما يبدأ التنافس بينهم وبين أفراد الطبقة الوسطى.»[5]

ولم تلبث هذه القناعات التي توصل إليها أن دفعته لإجراء اتصالات مع كبار أقطاب المال لحثهم على ضرورة التوصل إلى خطط عملية لحل المسألة اليهودية. ففي مايو عام 1895 قابل هرتزل البارون موريس دى هيرش وقام بشرح وجهة نظره لحل المسالة اليهودية، وذلك عن طريق شراء أرض واسعة في أي بقعة في العالم سواء أكانت فلسطين أم غيرها، وطلب منه العون لإنشاء دولة يهودية فيها. ولكن البارون-على ما يبدو-لم يكن مستعدا للدخول في مغامرات غير مأمونة العواقب، واعتبر مشروع هرتزل مجرد وهم كبير وبقي متمسكا بمشروعه الرامي إلى توطين اليهود في الأرجنتين وتحويلهم إلى «شعب زراعي».[6]

غير أن فشله في محاولته هذه، لم يجعله ييئس ويتخلى عن مشروعه، وإنما بدأ هرتزل يعمل على بلورة آرائه ومفاهيمه ويدونها بشكل منطقي ومنظم، استعدادا لبدء محاولة اتصال جديدة مع متمولين يهود آخرين وخاصة مع آل روتشيلد، العائلة اليهودية الثرية المعروفة. وقد نجح في تدوين آرائه وأفكاره ضمن كراس صدر بالألمانية في فبراير عام 1896 بعنوان «الدولة اليهودية» The Jewish State وألحق به عنوانا فرعيا واصفا الكراس بأنه «محاولة لإيجاد حل عصري للمسألة اليهودية.» ووجه هرتزل أول نسخة من كراسه إلى آل روتشيلد في محاولة منه لكسب هذه العائلة إلى جانبه منذ البداية. غي أن حظه من النجاح مع هذه العائلة لم يكن بأفضل من حظه مع البارون هيرش ولعل السبب الذي جعل أقطاب المال

اليهود مترددين في تأييد مشروع هرتزل الرامي إلى إنشاء دولة يهودية خوفهم من أن يؤدي قيام مثل هذه الدولة إلى التأثير على أوضاعهم وامتيازاتهم في البلاد التي يعيشون فيها. إلا أننا سنرى بعد قليل زوال هذا التردد بعد أن تبين لهذه الفئة أن قيام مثل هذه الدولة سيحمل في طياته فوائد جمة ليس فقط لأثرياء اليهود وإنما أيضا للرأسمالية الأوروبية بشكل عام. إن العثور على بقعة خارج القارة الأوروبية لتوطين اليهود الروس فيها، من شأنه-كما بين هرتزل-أن يخفف حدة الشعور باللاسامية بين الفئات التي كان ينافسها هؤلاء المهاجرون في المجالات الاقتصادية، وخاصة أفراد الطبقة الوسطى، وقد عبر هرتزل عن ذلك بقوله: «.... باستطاعة المواطنين المسيحيين الذين نسميهم لاساميين مقاومة هجرة اليهود الأجانب علنا مقاومة عنيدة. لكن ليس بإمكان المواطنين اليهود المندمجين أن يفعلوا شيئا علما بأنهم يتأثرون بمنافسة المهاجرين اليهود أكثر من غيرهم.... وتظهر عليهم قبل غيرهم آثار المنافسة الحادة التي يأتي بها أشخاص يقومون بمهن مشابهة.. وفوق هذا فإن المهاجرين اليهود يزيدون حدة اللاسامية إذا كانت موجودة ويخلقونها إذا لم تكن موجودة من قبل...»(7) كما أن توطين اليهود الروس خارج القارة الأوروبية، فيه خدمة للبرجوازية اليهودية بتخليصها من الأعباء الاقتصادية والاجتماعية للمهاجرين اليهود، وبالإضافة إلى ذلك فإن هرتزل رأى في خروج فقراء اليهود أيضا خدمة للرأسمالية الأوروبية لما يقدمه هذا من استقرار داخلي وهدوء اجتماعي. وقد عبر عن ذلك بقوله: «.... لن تؤثر هجرة اليهود على اقتصاد البلاد التي سيتركونها ولن تؤدي إلى حدوث أزمات أو اضطرابات بل ستنتعش هذه البلاد وتشهد مرحلة استقرار جديدة. سيكون هناك هجرات داخلية بين المسيحيين إلى المواقع التي رحل عنها اليهود. وسيتم خروج اليهود بصورة تدريجية وبدون أي اضطراب وسيؤدي ذلك إلى نهاية حركة العداء للسامية.». (8)

وإذا ما دققنا النظر فيما طرحه هرتزل، نجد أن الملامح الاستعمارية التي تميزت بها الحركة الصهيونية، تبرز بشكل واضح في هذه الاطروحات. ومثال ذلك مهاجمته للطريقة التي كان يتم بها الاستيطان اليهودي في فلسطين والأرجنتين وغيرهما ،حيث كان ذلك يتم على نطاق ضيق وبشكل سري. وبين هرتزل أن التوفيق بين مصالح الفئات اليهودية المختلفة لا يتم

إلا إذا كان الاستطيان واسعا بما فيه الكفاية. ولذا فقد دعا إلى تنفيذ الهجرات اليهودية ضمن مخطط استيطاني واسع وعلني يتم بمساعدة إحدى الدول الأوروبية الكبرى. وقد وصف هرتزل ذلك بقوله: « ... كانت محاولات الاستعمار الفردية محاولات مثيرة للاهتمام-بالرغم من فشلها-لما مثلته على نطاق صغير من مؤشرات عملية لفكرة تأسيس دولة يهودية. وكانت مفيدة من حيث إنها جعلتنا نستفيد من أخطائهم في تنفيذ المشاريع الضخمة.. إن الشيء الذي لم يبدو غير عملي أو مستحيلا على نطاق ضيق ليس بالضرورة أن يكون كذلك على نطاق واسع. فقد يخسر مصنع صغير في ظل الشروط نفسها التي تجعل المصنع الكبير يربح...»[9]

وحين انتقل هرتزل إلى عرض خطته التي اقترحها لحل المسالة اليهودية، وجدناه يقدم مشروعا استيطانيا معتمدا في تنفيذه على إنشاء شركة يهودية على غرار شركات استملاك الأراضي الكبرى، أي شركة يهودية ذات امتياز A.Jewish Chartered Company وقد أورد هرتزل وصفا موجزا لطبيعة هذه الشركة على النحو التالي: «ستكون هذه الشركة على نمط الشركات العقارية الكبرى، وبالإمكان تسميتها أيضا الشركة اليهودية ذات الامتياز. وستؤسس هذه الشركة كشركة مساهمة، تسجل في إنجلترا بموجب القانون الإنجليزي وتحت حمايته وتكون خاضعة للتشريع الإنجليزي.... .»[10] ويقوم بتمويل هذه الشركة والإشراف عليها مجموعة من رجال المال والمصرفيين اليهود ممن يكون هدفهم تحقيق الربح الملموس: «إن أسهل الأساليب وأسرعها وأوثقها، هو أن تقوم البنوك الكبرى بتأسيس الشركة. ففي إمكان المجموعات المالية الكبرى الحالية أن توفر الأموال اللازمة في وقت قصير بمجرد التشاور فيما بينها... إذ لا بد من وضع سمعة رجال المال البارزين منا في خدمة الفكرة القومية... ومن المؤكد أيضا أنه سوف لا يطلب من هؤلاء الرجال أن يجمعوا هذا المبلغ الطائل من باب مناصرة الخير والإحسان-فذلك مبالغة-وإنما بدافع تطلع مؤسسي هذه الشركة اليهودية والمساهمين فيها لجني الأرباح الضخمة، وفي إمكانهم القيام مقدما بتقدير مجالات الربح والنجاح التي ستتاح لهم.» [11]

ومن الواضح أن هرتزل كان معجبا بشركة الهند الشرقية الإنجليزية ودليل ذلك اختياره اسم «الشركة اليهودية الشرقية المحدودة» ليطلقه على

شركته المقترحة. وقد دعا هرتزل إلى الاقتداء بتجربة هذه الشركة الإنجليزية الاستيطانية في الهند للإفادة منها في تحقيق هدفه بإنشاء الدولة اليهودية. وفي محاولة منه لإغراء أقطاب المال اليهود بالمساهمة في هذه الشركة فإن التصورات الهرتزلية للأرباح بلغت حدا لا يصدق: «فالمليون سيجلب خمسة عشر مليونا والبليون خمسة عشر بليونا» [12] و «ستعود هذه الأرباح الضخمة من الاتجار بالأرض إلى الشركة، فمن حقها كأي رائد اقتصادي أن تجني هذه المكافأة غير المحدودة مقابل تحملها المخاطرة ل». [13] أما بالنسبة للمصادر التي كان هرتزل يتطلع إلى جني أرباح الشركة من ورائها فكانت تتضمن إنشاء المشاريع التجارية في الأرض التي يتفق على استيطانها، وفي الاشتغال بالمضاربات العقارية، بالإضافة إلى وضع الشركة يدها على أملاك اليهود المهاجرين وحقوقهم المالية في الدول التي كانوا يعيشون فيها، وتعويضهم عنها بممتلكات في مستوطناتهم الجديدة والتي يكونون قد حصلوا عليها بأسعار زهيدة جدا ... « .... وسيحقق هذا مصدرا ضخما وشرعيا للربح بالنسبة للشركة، لا سيما وأنها كانت قد اشترت الأرض (في المستعمرة) بسعر زهيد جدا. [14]

ودعا هرتزل في بداية العملية الاستطيانية إلى الاعتماد على فقراء اليهود الذين يشكلون يدا عاملة رخيصة. ومما قاله في هذا الصدد: «إن الأفقر سيذهبون أولا ويحرثون الأرض. سيشقون الطرق ويشيدون الجسور والسكك الحديدية والمنشآت البرقية وبالإضافة إلى تنظيم مصادر المياه ووسائلها. إن نجاح هذه الأعمال سوف يولد حركة تجارية نشطة ينتج عنها أسواق واسعة تستقطب المزيد من المهاجرين والمستوطنين الذين تولد لديهم الحافز للسفر طواعية وعلى نفقتهم ومسؤولياتهم الخاصة. وبالإضافة إلى ذلك فإن العمل المستمر في الأرض واستصلاحها يرفع من قيمتها ويزيد ثمنها ...» [15] ويلاحظ أن بعض هؤلاء الفقراء تولدت لديهم الرغبة للهجرة إلى أرض الاستيطان المختارة، بعد أن قدم لهم هرتزل الإغراءات بسهولة شق طريقهم «صعودا نحو الملكية الخاصة» وتحقيق مستوى معيشي على النمط الغربي الذي لا يمت بصلة إلى أنماط المعيشة التي كانت تحياها شعوب المناطق المجاورة لأرض الاستيطان. وبتعبير آخر العمل على زرع مستوطنين غرباء في منطقة لا تنتمي لعالمهم أو حضارتهم تماما كما حدث

في روديسيا وجنوب أفريقيا والجزائر وغيرها. ولعل من المناسب هنا الإشارة إلى محاولة هرتزل الالتقاء بالاستعماري البريطاني المشهور، السير سيسيل رودس، مؤسس النظام العنصري في روديسيا، طالبا منه في رسالة وجهها إليه عام 1902 أن يلقي بثقله ويدعم مشروعه الاستيطاني مبديا رغبته في التعاون معه إلى أقصى الحدود، وكان مما قاله له في هذا المجال: «إن التاريخ يدعوك للمساهمة في أمر لا يبعث على الخوف ولا يثير السخرية. إنه لا يدخل ضمن النطاق الذي تعودت عليه فهو لا يتعلق بأفريقيا وإنما بجزء من آسيا الصغرى، كما أنه لا يتعلق بالإنجليز وإنما باليهود. ومع ذلك، فان بإمكانك مواجهة الموضوع والقيام بتنفيذه. إنني ألجأ إليك بالرغم من بعدك عن الموضوع، لأنه موضوع استعماري أنت أدرى بمواجهته وتنفيذه.»[16] وبدلا من تلقي هرتزل ردا على رسالته فإنه تلقى نبأ وفاة رودس نفسه في مارس 1902 فكانت صدمة قاسية له هزته من الأعماق.

أما بالنسبة للبرجوازية اليهودية الصغيرة فإن هرتزل دعا إلى تشجيعها على الهجرة من أماكن سكناها، لاسيما وأن أفراد هذه الطبقة تعزز غالبية الكوادر الفنية اللازمة للعملية الاستيطانية وبناء الدولة المنشودة. وأضاف هرتزل موضحا أن «الوطن الجديد» يهيئ مجالا حيويا لهؤلاء «الأساتذة والمحامين والأطباء والضباط والتقنيين والتجار» كي يمارسوا حريتهم، بعيدا عن مزاحمة أفراد الطبقة الوسطى في أوروبا، وبطريقة أفضل مما كان يتوفر لهم في الدول الأوروبية، ناهيك وجود فرص مهيأة لهم كي يحققوا مراكز أعلى في «السلم الطبقي».

وبالإضافة إلى الشركة اليهودية دعا هرتزل إلى إنشاء «جمعية اليهود» Society of Jews لتكون بمثابة «موسى اليهود الجديد» أو نواة سلطة تلتف حولها الفئات اليهودية المؤيدة لمشروع هرتزل الاستيطاني. «إن أولئك اليهود الذين يؤيدون فكرة تأسيس دولتنا» قال هرتزل عنهم: « .سيدعمون جمعيتنا ويمنحونها السلطة اللازمة لها كي تعترف بها الحكومات وتقبل التباحث والتعامل معها نيابة عن شعبنا.»[17] ومضى هرتزل موضحا مهمة هذه الجمعية بقوله: «إن السلطة التي تتمتع بها الجمعية - في نظر القانون الدولي - تؤهلها للقيام بالخطوات التمهيدية اللازمة لإعلان الدولة.»[18] وقد قارنت بديعة أمين، في كتابها المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية،

بين دور هذه الجمعية ودور لجنة الأربع والعشرين التي كانت تدير شركة الهند الشرقية وذلك «في مجال عقد المفاوضات والاستيلاء على الأراضي وشراء وإنشاء المعامل، وإلى آخر ما كانت تقوم به الشركة من نشاطات حيث أدت في نهاية المطاف، إلى وضع الهند تحت السيطرة البريطانية»[19] وهذا ما كان يهدف إليه هرتزل من وراء قيام جمعية اليهود بتحويل أرض الاستيطان إلى دولة يهودية.

وكان مما ورد في كراس هرتزل أيضا، دعوته إلى وضع دستور للدولة المقترحة ينص على أن يكون نظامها جمهوريا أرستقراطيا، فالديمقراطية في رأيه تؤدي إلى «الفوضى والطغيان». ولذلك فالسياسة يجب أن تأخذ مجراها من القمة إلى القاعدة لضمان سيطرة جمعية اليهود على رأس المال من خلال الرقابة السياسية. ولم يكن هرتزل-كما بينا سابقا-مهتما بالثقافة العبرية، فقد أشار إلى أنه بإمكان كل شخص التحدث بأية لغة يتقنها، «إذ لن يستطيع أحدنا التحدث مع الآخر باللغة العبرية». [20]

أما بالنسبة للمسألة اليهودية، فإن الطرح الهرتزلي لها جاء على أساس أنها مسألة قومية في المقام الأول. ولذلك كان هم هرتزل الأساسي العثور على الوسيلة المناسبة التي يتم بواسطتها إثارة الرغبة «لدى الجماهير اليهودية في الوجود القومي المستقل والسعي من أجل تحصيله». ولم يلبث هرتزل أن تناول ظاهرة العداء للسامية واعتبرها تربة خصبة ووسيلة مناسبة لتحريك الجماهير اليهودية ودفعها نحو إقامة «وطن قومي» لها. وركز على أن هذه الظاهرة ليست ظاهرة طارئة عرضية وإنما ظاهرة مستمدة من خصائص الإنسان الثابتة. ولذا فكراهية اليهود موجودة بين الناس منذ أقدم العصور وفي مختلف الأماكن. وتوصل هرتزل إلى القول بأن الحركة الصهيونية «ليست بحاجة إلى بذل الكثير من الجهد من أجل دفع الجماهير اليهودية صوب الوطن المنشود-فالمعادون للسامية سيتولون مهمة تقديم الجهد اللازم لذلك. وما عليهم سوى القيام بما تعودوا القيام به في السابق كي يولدوا الرغبة في الهجرة حيث لم تكن موجودة في الماضي ويزيدوا من حدتها حيث كانت موجودة في الأصل»[21] ومضى هرتزل في استنتاجاته إلى القول باستحالة القضاء على ظاهرة العداء للسامية «واستئصالها من الطبيعة البشرية» ولذا فالحل الوحيد أمام اليهود هو تجميعهم في بقعة

يتخذونها «وطنا قويا» لهم، وكانت فلسطين اختياره المفضل في تلك المرحلة.

وبالإضافة إلى ذلك دعا هرتزل إلى تشجيع النزعة المعادية للسامية بين القوى الأوروبية اليمينية، بهدف وضع فقراء اليهود أمام خيار واحد وهو الهجرة صوب بقعة الاستيطان اليهودي المختارة. وستبين الأحداث اللاحقة دخول هرتزل وزعماء صهاينة آخرين في مباحثات ومفاوضات مع أعرق القوى الرجعية وأشدها اضطهادا لليهود، وذلك من أجل استغلال الظرف لكسب أكبر عدد من المهاجرين اليهود للاتجاه صوب تلك البقعة المختارة.

برنامج بازل الصهيوني وقيام المنظمة الصهيونية العالمية:

تم عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل بسويسرا بين 29-31 أغسطس عام 1897 وقد حضره 204 مندوبين من مختلف الهيئات والمنظمات والجمعيات الصهيونية في العالم، وكان هنالك سبعون مندوبا من روسيا وحدها. وتم انتخاب هرتزل رئيسا للمؤتمر، بالإضافة إلى انتخاب المجلس الرئاسي للمؤتمر، وأمناء السر، وأعضاء لجنة العمل التي اتخذت مدينة فينا مقرا لها. وكان أهم إنجازين للمؤتمر الصهيوني الأول:

أ- إقرار برنامج الحركة الصهيونية الذي أصبح يعرف فيما بعد ببرنامج بازل الصهيوني،

ب -تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية لتنفيذ هذا البرنامج.

وجاء تحديد المؤتمر لهدف الصهيونية الذي كانت تسعى لتحقيقه على النحو التالي: «إن غاية الصهيونية هي إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين يحظى باعتراف دول العالم ويضمنه القانون الدولي».

ويلاحظ في هذا المجال أن المؤتمرين آثروا استعمال تعبير «وطن» بدلا من «دولة» كي لا يتسبب ذلك في إثارة ردود فعل معادية لليهود من جانب العثمانيين. وقد تم ذلك بناء على نصيحة هرتزل الذي دعا المؤتمرين إلى المواربة والدوران في استعمال الألفاظ كي يوفر لاتصالاته المستقبلية مع العثمانيين جميع الأجواء المناسبة. وقد علق هرتزل نفسه على ذلك بقوله: «لا داعي للقلق (على اللفظ) فسوف يقرؤها الناس دولة يهودية على أي حال». (22)

ولإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين أقر المؤتمر الصهيوني بنود

برنامج بازل على النحو التالي:

1- تطوير أرض فلسطين وتشجيع استيطان العمال الزراعيين والصناعيين والحرفيين والمهنيين اليهود وفق أسس وظروف ملائمة.

2- تنظيم اليهودية العالمية وتجميعها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد.

3- تقوية الشعور القومي اليهودي والهوية القومية اليهودية.

4- اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة الحكومات، حيث يكون ذلك ضروريا، لتحقيق هدف الصهيونية.[23]

كان المؤتمر الصهيوني الأول نقطة تحول رئيسية في تاريخ الحركة الصهيونية فإن جمع ذلك العدد الكبير من صهيونيي العالم في مكان واحد لتحقيق هدف محدد، فتح أمام الحركة الصهيونية آفاقا جديدة للعمل على تنفيذ مخططاتها. وقد علق هرتزل في أعقاب عودته إلى فينا على ذلك التجمع الصهيوني الكبير بقوله: «في بازل أقمت الدولة اليهودية، وإذا ما قلت اليوم هذا القول علنا فسأواجه بسخرية من العالم، ولكن ربما بعد خمس سنوات وبالتأكيد بعد خمسين سنة سيرى الدولة كل إنسان وسيعترف بها الجميع»[24] وفي الخامس عشر من مايو عام 1948، أي بعد حوالي خمسين عاما، قامت «دولة إسرائيل».

كان ظهور المنظمة الصهيونية العالمية بداية مرحلة تنظيمية جديدة في العمل الصهيوني. فالمنظمة أصبحت تلعب دور القيادة العليا لليهودية العالمية. وكانت المنظمة تتكون من الأجهزة التالية:

أ- المؤتمر الصهيوني: وهو السلطة العليا في المنظمة وكان يجتمع سنويا (وأصبح يجتمع كل سنتين فيما بعد) في أية مدينة أوروبية، ويرسل دافعو الشيكل (عملة يهودية قديمة تعادل 1/2 دولار آنذاك، وهي قيمة مساهمة العضو المالية للمنظمة، وقد اتخذتها «إسرائيل» مؤخرا وحدة أساسية لعملتها بدل الليرة) مندوبيهم إلى المؤتمر. وكل مجموعة من 100 عضو كان لها الحق في إرسال مندوب واحد. وكانت مهام المؤتمر إقرار السياسة العامة للمنظمة، والموافقة على الميزانية العامة، بالإضافة إلى انتخاب رئيس المنظمة وأعضاء اللجنة التنفيذية والمجلس العام. وقد شبه هرتزل المؤتمر الصهيوني «بجمعية اليهود» التي مر ذكرها سابقا.

ب- لجنة العمل الكبرى (المجلس العام) وتتألف من 15 عضوا، خمسة منهم كان يجب أن يكونوا مقرهم الدائم في فينا، والعشرة الباقون كانوا ينتخبون عن التجمعات الصهيونية المختلفة. وفي واقع الأمر فإن الخمسة المستقرين في فينا كانوا هم عمليا اللجنة التنفيذية الحقيقية.

ج- اللجنة التنفيذية (لجنة العمل الصغرى) وكانت مهمتها متابعة تنفيذ القرارات وتقديم تقرير عن أعمالها للمؤتمر الصهيوني في موعد انعقاده.

وبالإضافة إلى هذه الأجهزة فقد كان هناك بطبيعة الحال رئيس المنظمة الصهيونية ونائبه ومكتب التوجيه المركزي. [25]

أما بالنسبة لبناء الجهاز المالي للمنظمة الصهيونية فإن هرتزل كان منذ البداية مهتما بإنشاء بنك استيطان يهودي يكون بمثابة«الشركة اليهودية» التي دعا إلى تأسيسها في كراسه «الدولة اليهودية». وقد أعلن هرتزل في المؤتمر الصهيوني الثاني عام 1898 غن قيام اللجنة التنفيذية الصهيونية بعقد مؤتمر خاص لتأسيس صندوق الائتمان اليهودي للاستعمارJewish Colonial Trust وتوقع أن يباشر الصندوق أعماله خلال عام واحد. [26]

وبالفعل تم خلال انعقاد المؤتمر الصهيوني الثالث عام 1899، تبني القرار المتضمن إنشاء الصندوق. وقد تم تسجيله في لندن على شاكلة شركة مساهمة محدودة، وخصص مائة سهم من الأسهم التأسيسية البالغ عددها مائتين للجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية العالمية، وذلك لضمان سيطرة هرتزل ومؤيديه على الصندوق ونشاطاته. وقد تم تحديد نشاطات على النحو التالي:

1- إنشاء حركة تصنيع وإقامة شركات نقل وملاحة وتأمين، والاعتماد في هذا كله على اليد العاملة اليهودية.

2- ضمان الدعم المالي للمستوطنات اليهودية عن طريق القروض والكفالات والرهونات.

3- دعم شتى الأنشطة التجارية في فلسطين وسوريا.

4- شق الطرق وإنشاء سكك الحديد.

5- إقامة بنوك ومصارف مالية في شتى أنحاء فلسطين وسوريا. [27]

غير أن المصرف لم يباشر أعماله جديا حتى انعقاد المؤتمر الصهيوني الخامس في ديسمبر عام 1901. وكان من أهم المشاكل التي واجهت إنشاء

هذا المصرف الخلافات التي نشبت بين هرتزل ومؤيديه من جانب وبين معارضيهم من الصهيونيين الروس خاصة من جانب آخر، وذلك حول كيفية استثمار الأموال المودعة فيه. فبالنسبة لهرتزل لم يشأ البدء بالإنفاق على النشاط الاستعماري قبل الحصول على ضمانات كافية من الدولة العثمانية ومن الدول الكبرى بالسماح لليهود بالاستيطان في فلسطين أو غيرها. غير أن المعارضين ممن أطلق عليهم لقب «الصهيونيين العمليين»، كانوا يطالبون بتشجيع الاستيطان العملي في فلسطين مهما كانت الظروف. وبالإضافة إلى ذلك فقد اتخذ الصهيونيون العمليون موقفا متشككا من هرتزل حول مدى حرصه على التمسك بفلسطين ومدى استعداده للتنازل عنها فيما إذا قدمت له «منطقة مناسبة» لإقامة دولة يهودية عليها. ومما زاد من شكوك العمليين تقديم هرتزل عقد تأسيس المصرف المقترح محددا فيه «الشرق» مجالا لعمله، فأصر أولئك على استبدال كلمتي سوريا وفلسطين بهذه الكلمة ونجحوا في انتزاع موافقته على ذلك. ومن المصاعب الأخرى التي عاقت مباشرة أعمال هذا المصرف الموقف السلبي الذي اتخذه كبار الأثرياء اليهود بادئ الأمر بعدم المساهمة فيه.

وفي عام 1903 أنشئت شركة مصرفية تابعة للصندوق في يافا برأسمال قدره أربعون ألف جنيه، وعرفت فيما بعد باسم البنك البريطاني الفلسطيني (بنك انجلو فلسطين ليمتد) Anglo-Palestine Bank Ltd

أما المؤسسة المالية الأخرى التي أقيمت في عهد هرتزل فكانت الصندوق القومي اليهودي Jewish National Fund (Keren Kayemet Le Yisrael

وتعرف أيضا بالكيرن كايمت. أما المهام التي أنيطت مسؤوليتها بهذه المؤسسة،فكانت تهدف إلى تعميق جذور الاستيطان اليهودي في فلسطين وتقوية دعائمه وذلك عن طريق:

1- الأراضي وقف أبدى على «الشعب اليهودي» لا يجوز بيعها أو التصرف بها، وتنتقل بين المزارعين اليهود مقابل دفع أجرتها ويجوز أن يكون الانتقال وراثيا.

2- إتاحة الفرصة أمام اليهود الذين لا يملكون شيئا في استئجار الأرض التي تعينهم وتشجعهم على الاستيطان.

3- العمل اليهودي مضمون ويقتصر على تشغيل اليد العاملة اليهودية.

4- مراقبة الأراضي وكيفية استغلالها واستثمارها.
5- منع المضاربة في بيع الأراضي كي لا يؤدى ذلك إلى خلخلة في أسعار الأراضي وازدياد أسعارها. [28]

هرتزل وألمانيا:

كانت ألمانيا أول دولة يتجه إليها هرتزل طالبا مساعدتها في إقامة كيان يهودي سياسي. ففي عام 1896 حاول هرتزل التقرب والتودد من المستشار الألماني، بسمارك، فأرسل إليه نسخة من كراسه «الدولة اليهودية» مرفقا به رسالة يلتمس فيها مشورته ومعونته وكان مما ورد فيها: «أضع بين أيديكم مشروعي حول تأسيس دولة يهودية في فلسطين للتصرف والبت فيه، إذ إنكم بقبضتكم الفولاذية وإرادتكم الحديدية تمكنتم من توحيد ألمانيا المجزأة، وإذا ارتأيتم واقعية مشروعي فستكون هذه الدولة من أخلص حماة مصالحكم في المنطقة». [29] غير أن بسمارك لم يحرك ساكنا إزاء هذا الطلب، لاسيما وأنه في تلك الفترة كان قد أصبح خارج نطاق الحكم.

وكان اندفاع ألمانيا الاستعماري عام 1898 صوب الشرق فرصة مناسبة لهرتزل كي يقوم باتصالات ومفاوضات مع المسؤولين الألمان عله ينجح عن طريقهم في تحقيق مشروعه الاستيطاني وإنشاء الدولة اليهودية. وقد لقيت محاولات هرتزل الاتصال بالألمان ترحيبا حارا من جانب الزعماء الصهاينة لاسيما وأن الكثيرين منهم كانوا من اليهود الألمان، بالإضافة إلى أن الثقافة الأصلية لهرتزل نفسه كانت ثقافة ألمانية. ولاشك أن العلاقة الوطيدة التي كانت تربط ألمانيا بالدولة العثمانية لها أكبر الأثر في تركيز أنظار هرتزل ومؤيديه على برلين.

بدأ هرتزل حملة مكثفة من الاتصالات بهدف التوصل لمقابلة القيصر الألماني قبل قيامه بزيارته الرسمية إلى الآستانة. فاتصل بصديقه القديم فريدريك الأول، دوق بادن، وقريب القيصر، حيث هيأ له مقابلة مع الأمير فيليب اويلنبورغ، السفير الألماني في فينا، الذي كان مكلفا بتقديم تقرير عن الحركة الصهيونية للقيصر. وقد حاول هرتزل إقناع اويلنبورغ بترتيب مقابلة له مع القيصر كي يطلب منه التوسط لدى الباب العالي لمنح اليهود استقلالا ذاتيا في فلسطين يضمن لهم إقامة المستوطنات وجلب المهاجرين

اليهود من كل مكان وخاصة من أوروبا الشرقية، ولكن اويلنبورغ اكتفى بتأمين مقابلة لهرتزل مع فون بيلوف وزير خارجية ألمانيا في مقر السفارة الألمانية بالنمسا .[30]

وكان محور حديث هرتزل مع كل من فون بيلوف وايلنبورغ يدور حول الطابع المعادى للاشتراكية في الحركة الصهيونية وادعى هرتزل أن بإمكان حركته التقليل من «خطر الاشتراكية» نظرا لأن غالبية زعمائها كانوا من اليهود .وقد أكد هرتزل لوزير الخارجية الألماني أن اليهودي بطبيعته التقليدية لا ينسجم إلا مع «المجتمع القائم على الفردية فقط». وكان مما سجله هرتزل في مذكراته حول هذا اللقاء: « ... اتفقت وجهات نظرنا في كل الأمور المتعلقة بالاشتراكية وأخطارها ... ولم يستطع الوزير أن يخفى تقديره وإعجابه للدور الذي قامت به حركتنا في حماية الكثير من طلبتنا في جامعة فينا من خطر الاشتراكية». [31] وفي نهاية الاجتماع استطاع هرتزل أن يحصل من بيلوف على وعد بمقابلة القيصر الألماني. وأثار هذا الوعد وما سبقه من محادثات الكثير من التفاؤل لدى هرتزل، فبعث برسالة إلى صديقه دوق بادن يقول فيها: « ... قبل عامين قابلتكم وقدمت إليكم الحركة الصهيونية ... ومنذ ذلك التاريخ شهد العالم الكثير من الوقائع والأحداث ... فالسياسة الألمانية بدأت الآن تتجه بخطوات سريعة صوب الشرق، وها هو القيصر على أهبة القيام بزيارة للقدس سيكون لها صدى واسع في نفوسنا ... والآن أعود إليكم من جديد واضعا الحركة الصهيونية في خدمتكم، وكلي ثقة بأنها ستحظى بمساعدتكم ودعمكم ... وهذا ما كنت أتمناه خلال هذين العامين. إن اليهود يشكلون عنصرا قوميا محايدا وباستطاعته تقديم الكثير من الخدمات لسياسة ألمانيا في الشرق مقابل مساعدته على الاستقرار في وطنه وحماية أبنائه من الانضمام للأحزاب الثورية». [32] وهذا يعني أن ألمانيا تكسب أعوانا مخلصين وتقلل من خطر الأحزاب الثورية.

وفي أكتوبر 1898 تلقى هرتزل أنباء من اويلنبورغ مفادها أن القيصر متحمس للمشروع الصهيوني وأنه على استعداد لمقابلته ضمن وفد صهيوني. عندها راح هرتزل يستعد للمقابلة وفي ذهنه اقتراح يتضمن إنشاء محمية ألمانية يهودية في فلسطين. وقد دون في يومياته حول هذا الموضوع ما

يلي:-

«.... علينا قبول الحماية الألمانية إذا ما قدمت إلينا، فحماية ألمانيا، الدولة القوية، العظيمة، الأخلاقية، ذات الحكم المنظم، ستؤثر التأثير الأفضل على الشعب اليهودي وخلقه القوي... إذا ما تحقق لنا الحصول على وطن تحت سيطرة الباب العالي وحماية ألمانيا، فإن في ذلك ضمانا قانونيا كافيا، وسيكون فيه أكبر فائدة تعيننا في سعينا لأنه كياننا الخاص». [33]

وأخيرا تمكن هرتزل من مقابلة القيصر في الآستانة في 18 أكتوبر عام 1898. فقام بعرض مشروعه الاستيطاني في فلسطين تحت الحماية الألمانية أو كما عبر عنه هرتزل نفسه: «شركة قانونية تحت الحماية الألمانية». وقد بين هرتزل للقيصر أن الحركة الصهيونية مستعدة للقيام بإخراج «عناصر الشغب» من فقراء يهود أوروبا وتوطينهم في المحمية الفلسطينية كي يتم إبعادهم «عن الأحزاب الاشتراكية والنشاط الثوري بشكل عام». وحذر في معرض حديثه من مغبة فشل المشروع حيث إن «مئات الألوف من اليهود (إثر الفشل) سينضمون مرة واحدة وبشكل مفاجئ إلى الأحزاب الثورية المنتشرة في أوروبا». [34]

ومن الجدير بالذكر أن الوزير المفوض الأمريكي في الآستانة، شتراوس قام بدور كبير في تيسير نجاح لقاء هرتزل بالقيصر، وحاول إقناع الأخير بجدوى المشروع الصهيوني وأهميته للعالم الغربي. وقد مارس هذا الدبلوماسي الأمريكي اليهودي ضغوطا شديدة على الدولة العثمانية لانتزاع بعض الامتيازات الخاصة باليهود وأهمها: السماح لليهود الأمريكيين بحرية السفر إلى سوريا وفلسطين وعدم التمييز بينهم وبين الأمريكيين المسيحيين في هذا المضمار. والحجة التي استند إليها شتراوس أن هؤلاء اليهود يجب أن يعاملوا كالمسيحيين بصفتهم مبشرين. ولكن الحكومة العثمانية بالرغم من موافقتها الشكلية على منح هذه الامتيازات، إلا أنها أوعزت لموظفيها بعدم وضعها موضع التنفيذ. [35]

ولدى اجتماع القيصر بالسلطان عبد الحميد الثاني تطرق القيصر إلى «معاناة اليهود» وضرورة السماح لهم بالاستيطان في فلسطين. ولكنه وجد استحالة في متابعة الموضوع بعد أن لمس فتورا ومعارضة من السلطان نتيجة تخوفه وتزايد شكوكه من الحركة الصهيونية. [36] ولربما خشي

السلطان أن تصبح فلسطين «لبنان آخر» وأن تقوم ألمانيا بنفس الدور الذي قامت به فرنسا في جبل لبنان. [37] وقد أبلغ اويلنبورغ هرتزل فيما بعد أن السلطان «رفض اقتراح القيصر بالنسبة لتوطين اليهود في فلسطين رفضا قاطعا إلى حد أنه بات من المستحيل المضي في مناقشة الموضوع أكثر. ونظرا لأننا كنا حريصين على أن نظل على علاقات طيبة مع السلطان.. فإن الإمبراطور بالطبع لم يلح على متابعة الموضوع». ومما ساعد السلطان العثماني على تشدده في معارضة الاستيطان اليهودي رغم تدخلات ألمانيا وأمريكا وقوف بعض الدول الأوروبية الأخرى إلى جانبه. ففرنسا وإنجلترا كانتا ترقبان الأوضاع بحذر، فكلتاهما كانتا تعارضان امتداد النفوذ الألماني إلى مواقع قريبة من لبنان وسوريا (بالنسبة لفرنسا) أو من قناة السويس (بالنسبة لإنجلترا). [38]

ولدى وصول القيصر مدينة القدس في الثاني من نوفمبر عام 1898، استقبل هرتزل وباقي أعضاء الوفد الصهيوني، وأخبرهم بأنه لا يستطيع تأييد إقامة كيان يهودي سياسي في فلسطين، واكتفى بإعلان تأييده لأية جهود يقوم بها اليهود من أجل النهوض بالزراعة في فلسطين ليتسنى إنعاش الدولة العثمانية وتقدمها شريطة احترام السيادة العثمانية وقوانينها .وهكذا لم يلتزم القيصر بأية وعود تجاه الحركة الصهيونية ولم يتطرق إلى استعداده لتأييد أي امتيازات يحصل عليها اليهود في فلسطين، كاستقلال ذاتي ضمن الإدارة العثمانية. وقد علق هرتزل على موقف القيصر بقوله: «لم يقل نعم ولا قال لا، يبدو أن هناك كثيرا من الأمور تحدث في الخفاء ووراء الكواليس». [39] ومن الجدير بالذكر أن وزير الخارجية العثماني فوجئ بوجود هرتزل وأبدى امتعاضه قائلا: «لا علاقة للسلطان بالصهيونية وليس لنا أي اهتمام بإنشاء دولة يهودية في فلسطين». وقد كان هذا القول فيه ما يكفي-على حد تعبير فون بيلوف-«لأن يفقد القيصر ما تبقى لديه من آمال لمساعدة اليهود». [40]

بالرغم من فتور حماس القيصر تجاه المشروعات الصهيونية، فإن هرتزل لم ينتبه اليأس، وبقي مصمما على متابعة الاتصال بالمسؤولين الألمان. ففي ديسمبر عام 1898 عرض هرتزل على دوق بادن اقتراحا يدعو إلى إنشاء «الشركة اليهودية للأراضي في سوريا وفلسطين» على أن تكون مدينة

برلين مركزها الرئيسي، ودعا في اقتراحه أيضا إلى وضع الشركة تحت حماية الدوق نفسه مبينا أن «حمايته للشركة لا تعني حماية الحكومة الألمانية نفسها ... فكما تخلت الحكومة الإنجليزية عن شركة سيسيل رودس فإنه بالإمكان التخلي عن الشركة المقترحة أيضا عند الحاجة..»[41] غير أن محاولة هرتزل هذه لم تكن أفضل حظا من المحاولات السابقة، فلم يتمكن الدوق من تقديم أي شئ له.

يتضح مما سبق أن القيصر الألماني ظل طيلة الفترة التي سبقت زيارته للآستانة واقعا تحت تأثير مجموعة من أقربائه وأصدقائه المتحمسين للصهيونية مثل دوق بادن والأمير اويلنبورغ. ونظرا لحرصه عل تحسين الأوضاع الاقتصادية في الدولة العثمانية فإن القيصر اقتنع بجدوى اقتراح هرتزل الرامي إلى توحيد الديون العثمانية وتقديم القروض اللازمة لتسديد هذه الديون التي تم اقتراضها من المؤسسات المالية الغربية. كما رأى القيصر أن في تجميع العنصر اليهودي في فلسطين فرصة لتحسين الأوضاع الاقتصادية والمالية في الدولة العثمانية لما لهذا العنصر من نشاط وحيوية في جسم الدولة. واقتنع القيصر أيضا بادعاءات هرتزل حول هجرة اليهود إلى فلسطين وما يمكن أن تسببه من إضعاف لنشاط الأحزاب الثورية في أوروبا بالإضافة،إلى تخليص أفراد الطبقة الوسطى الألمانية من المزاحمة التجارية والمهنية للبرجوازية اليهودية الصغيرة. ويشير الدكتور على محافظة في كتابه العلاقات الألمانية الفلسطينية 1841- 1945 إلى أن «الحكومة الألمانية كانت ترى منذ البداية رأيا مخالفا لآراء القيصر. إن لم تأخذ مزاعم هرتزل بولاء اليهود لألمانيا مأخذ الجد. وكذلك زعمه بولائهم للسلطان العثماني. كما أنها لم تر في الحركة الصهيونية القدرة على تحقيق المشروع الصهيوني. ولم ترغب في إثارة حساسية الدولة العثمانية في موضوع خطير قد يفضي إلى اقتطاع جزء من أراضيها وكانت. تعتقد أن حماية المشروع الصهيوني أو مساندته قد تسيء إلى علاقاتها الوطيدة بالدولة العثمانية.»[42] ويمكن إجمال الأسباب التي دعت القيصر إلى تغيير موقفه فيما يلي:

1- الموقف العثماني المعارض للمشروع الصهيوني الاستيطاني في فلسطين.

2- تحفظات وزير الخارجية الألماني على الحركة الصهيونية.

3- معارضة بريطانيا وفرنسا لأي تدخل ألماني في فلسطين أو سوريا.

4- الروح العدائية إلى واجهت بها روسيا التقارب الألماني العثماني وتصاعد خشيتها من وجود مخطط سري لألمانيا يهدف إلى مد نفوذها عل فلسطين.

وفي أعقاب فشل هرتزل في محاولاته مع الدوائر الرسمية الألمانية توجه صوب الدولة العثمانية ليبدأ اتصالات مكثفة مع المسؤولين فيها لكسب موافقتهم على استيطان اليهود في فلسطين.

هرتزل والدولة العثمانية:

أعلن ع هرتزل في خطابه الافتتاحي أمام المؤتمر الصهيوني الثالث عام 1899 أن اتصالاته التي بدأها مع العثمانيين عام 1896, [43] لابد لها أن تستمر وتتصاعد حتى تتمكن الحركة الصهيونية من الحصول عل موافقة الباب العالي لتنفيذ خطتها الاستيطانية في فلسطين بحماية ورعاية السلطان العثماني نفسه. وقد تمسك هرتزل برأيه الداعي إلى ضرورة الحصول على تأييد إحدى الدول الكبرى، بالإضافة إلى الدولة العثمانية قبل البدء بإرسال مهاجرين يهود إلى فلسطين. وبمجرد أن أيقن من فشله في الوصول إلى مبتغاه عن طريق ألمانيا، قرر هرتزل الاتصال مباشرة بالعثمانيين والعمل على الوصول إلى السلطان العثماني نفسه. ولذلك بدأ هرتزل يبحث عمن يستطيع تقديمه للسلطان سواء أكان مسؤولا عثمانيا أم شخصية يهودية لها صلاتها مع الباب العالي. وكان هرتزل قد أرسل رسالة إلى السلطان عبد الحميد قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الثالث بيومين، جاءت حافلة بعبارات التزلف والتبجيل، ومما جاء فيها قوله: «إن الصهيونيين المجتمعين في مؤتمر بازل يعتبرون أن واجبهم الأول هو أن يرفعوا تعهدهم بإخلاصهم وتقديرهم للطف جلالته نحو رعاياه اليهود إلى أعتاب عرش جلالة السلطان. إن الصهيونيين يرغبون في إغاثة إخوانهم التعساء في دول أوروبا المختلفة، وفي الإسهام في عظمة الإمبراطورية العثمانية وازدهارها. وإنهم ليأملون بإخلاص أن تحظى هذه الرغبات بتقدير وتشجيع حكمة الخليفة العظيمة.»[44] وكان هرتزل يدرك أن التدهور المالي قد بلغ حدا خطيرا في

الدولة العثمانية إذ بلغت ديون الدولة حين اعتلاء عبد الحميد السلطنة حوالي 190 مليون ليرة تركية، وقد تضاعف هذا الرقم أكثر وأكثر في أواخر عهد عبد الحميد. ولذا فما كان من هرتزل إلا أن عرض على السلطان خدمات المولين اليهود قائلا (ما كرره فيما بعد في المؤتمر الصهيوني الخامس): « ... سيكون للمساعدة المالية التي سيقدمها اليهود إلى تركيا أكبر الأثر في مساعدتها على حل كثير من المشاكل والأزمات الداخلية التي تبدو الآن وكأنها مستعصية الحل...»[45] ولكن السلطان-على ما يبدو-تجاهل رسالة هرتزل إذ إنه لم يرد عليها.

ظل هرتزل مصرا على رغبته في الوصول إلى السلطان، فاجتمع في أكتوبر عام 1900 مرتين مع رئيس الحكومة النمساوية ليقنعه بالقيام بدور وسيط ولكن محاولته باءت بالفشل. ثم اتصل بنوري باشا، المدير العام لوزارة الخارجية التركية، وعرض عليه مبلغا كبيرا من المال مقابل تأمين مقابلة له مع السلطان، (عشرة آلاف فرنك مقدما وثلاثون ألفا بعد المقابلة).[46] وبدأت مراسلات بينهما استمرت ما يقارب العام عرض خلالها هرتزل استعداد الصهاينة للمساهمة في بناء خط سكة حديد الحجاز، واستعدادهم لتقديم قرض فوري بقيمة ثمانية ملايين ليرة بالإضافة إلى عروض خدمات أخرى. ولكن هذه العروض بمجملها لم تحقق لهرتزل الهدف الذي كان يسعى إليه وهو الوصول إلى السلطان.

اتجه هرتزل بعد ذلك إلى مستشرق مجرى يهودي يدعى أرمينيوس فامبيري A. Vambery كان يعمل أستاذا في جامعة بودابست تربطه صلة وثيقة بالباب العالي. وقد وصفه هرتزل بقوله: ... «لا يعرف (هو نفسه)، إذا كان تركيا بالدرجة الأولى أو إنجليزيا. يؤلف كتبا بالألمانية ويتعلم اثنتي عشرة لغة بإتقان. اعتنق خمسة أديان خدم في ديانتين منها كرجل دين....»[47] غير أن الدلائل كانت تشير إلى أنه كان يعمل لصالح الاستخبارات البريطانية. وقد نجح هرتزل في إقناع فامبيري بالتوسط له لدى الباب العالي، كي يؤمن له مقابلة السلطان، وأبدى له استعداد الحركة الصهيونية لتدعيم أوضاع الدولة العثمانية المتداعية كي تتمكن من مواجهة الأخطار والتحديات التي تعترضها سواء ما كان منها على الصعيد المالي أو الصعيد السياسي. ونظرا لأن هرتزل كان مدركا-على ما يبدو-لصلات فامبيري مع

بريطانيا، أفاض في الحديث معه حول أهمية الدور الذي كان بإمكان المستوطنين الصهاينة القيام به في معاونة بريطانيا على تثبيت دعائم توسعها الاستعماري في الشرق العربي، بالإضافة إلى حماية مصالحها من أي خطر يتهددها في ذلك الجزء من العالم .

وأخيرا نجحت مساعي فامبيرى فتمت دعوة هرتزل إلى الآستانة في مايو عام 1901 لمقابلة السلطان بصفته زعيما يهوديا وصحفيا بارزا . وقد حذره فامبيرى من عدم التطرق لموضوع الصهاينة قائلا له : «إياك أن تحدثه عن الصهيونية. إنها فانوس سحري. القدس مقدسة لهؤلاء الناس مثل مكة...»[48] وبعد وصوله الآستانة بخمسة أيام، وفي السابع عشر من مايو عام 1901 على وجه التحديد، تمت المقابلة بين هرتزل والسلطان عبد الحميد الثاني.

كان هرتزل حريصا طيلة المقابلة التي دامت حوالي الساعتين على عدم التطرق إلى الحركة الصهيونية أو المسألة اليهودية إلا بشكل عرضي وغير مباشر . كما أنه كان حريصا أيضا على عدم التعرض لموضوع الهجرة اليهودية أو اقتراحه المعلق بإنشاء شركة استيطان يهودية بضمانات دولية . لقد ركز هرتزل في حديثه مع السلطان على موضوع الخدمات المالية التي كان بإمكان اليهود القيام بها لإنقاذ الاقتصاد العثماني من خطر الإفلاس. واقترح أن يتم توحيد الديون الملقاة على كاهل الدولة للممولين الأجانب الذين كانوا يمارسون ضغوطا شديدة على الدولة، وتسديدها بواسطة قرض طويل الأمد يقدمه بعض الممولين اليهود . وكل ما طلبه هرتزل خلال المقابلة هو صدور بيان ودي من السلطان يعد بتقديم الدعم لهرتزل وأصدقائه حينما تدعو الحاجة لذلك في المستقبل. [49] كان نجاح هرتزل في مقابلة السلطان وإقامة علاقة مباشرة معه أمراً في غاية الأهمية بالنسبة لاستمرار ثقة أكبر عدد ممكن من الصهاينة في نهجه السياسي، لا سيما وأن تيارات صهيونية معارضة لسياسته بدأت تنمو وتتزايد .

وفي أعقاب انتهاء مقابلته مع السلطان، أجرى هرتزل مباحثات مع عزت باشا العابد، مستشار السلطان، ودار الحديث حول قضية توحيد الديون وقيام اليهود بتسديدها . وقد أبدى العابد استعداد الدولة العثمانية في المقابل للسماح لمهاجرين يهود بالاستقرار في أراضي الدولة العثمانية

شريطة موافقتهم ا على قبول الجنسية العثمانية، وألا يقوموا باستيطان جماعي في أي مكان، وإنما يكتفون فقط بإنشاء مستوطنات صغيرة متفرقة في شتى أرجاء الدولة. غير أن هرتزل رد عك ذلك باقتراح إنشاء شركة يهودية عقارية خاضعة للنفوذ العثماني، تكون مهمتها استصلاح أراضي فلسطين غير المأهولة بالسكان، بحيث تتمكن الشركة من توطين أعداد من المهاجرين اليهود فيها، وتوفر مبالغ كافية من المال لإقراضها للباب العالي. وكان مما قاله في هذا الصدد: «افتحوا لنا أبواب فلسطين، ودعونا نتخلص هناك من الإحساس بالغربة... وفي المقابل لن نزودكم بالمبالغ النقدية فحسب، وإنما سنزودكم أيضا بأسباب المعرفة في شتى الميادين... وسنبني في قلب هذا العالم كياناً حديثاً متقدماً يربط الشرق بالغرب، ويؤمن لكم الاتصال السريع والسهل ببغداد والهند... وسنكون حريصين على بعث تركيا حرصنا على بعث إسرائيل...»[50] ولكن هذا الاقتراح لم يلق أي رد من جانب عزت باشا أو أي مسؤول عثماني آخر.

واستمرت اتصالات هرتزل بالمسؤولين العثمانيين بعد مغادرته للآستانة، غير أنه ما لبث أن عاد إليها ثانية في فبراير عام 1902 لإجراء مزيد من المباحثات. ولكنه لم يتمكن هذه المرة من مقابلة السلطان طيلة فترة وجوده في الآستانة، واقتصرت مباحثاته على مستشاري السلطان، حيث كرروا على مسامعه من جديد أن السلطان مستعد لفتح أبواب الدولة للمهاجرين اليهود على أن يتخلوا عن جنسياتهم ا السابقة ويكتسبوا الجنسية العثمانية. وبالإضافة إلى ذلك فقد نقل المستشارون إلى هرتزل تحديد السلطات العثمانية للأماكن التي يسمح فيها للمهاجرين اليهود بالاستقرار كالعراق وآسيا الصغرى باستثناء فلسطين. ولكن هرتزل اعتذر عن عدم قبول هذا العرض بحجة أن اللجنة التنفيذية العليا للمنظمة الصهيونية لم تمنحه صلاحية الموافقة على مثل هذا النوع من العروض. ورغم ذلك فإن هرتزل لم يتوقف عن مساعيه من أجل الإبقاء على اتصالاته مع المسؤولين العثمانيين وخاصة السلطان. فقد أثار أهمية الدور الذي ادعى أن بإمكان المستوطنين اليهود في فلسطين القيام به، لحماية الدولة العثمانية من خطر الحركة الوطنية العربية التي كانت تهدد بإعلان الثورة والانفصال عن جسم هذه الدولة. ولعل من المناسب في هذا الصدد الاستشهاد بما قاله ماكس نورداو

في خطابه في المؤتمر الصهيوني السابع عام 1905، حين أشار إلى طبيعة الدور الذي كان الصهاينة مستعدين للقيام به من أجل الدولة العثمانية إزاء الحركة الوطنية العربية: ... إن تجاهل ما تقوم به الحركة الوطنية العربية من تحرك ونشاط في معظم أرجاء العالم العربي، قد يسبب أضرارا للحكومة التركية فتضطر للقيام بأعمال مسلحة ضد شعوبها في سوريا وفلسطين للدفاع عن حكمها... وإذا ما قام مثل هذا الوضع فإن الحكومة التركية لا يسعها إلا أن تقتنع بجدوى وجود شعب قوى وحسن التنظيم (يعنى به اليهود) يحمي السلطان من أي هجوم ويدافع عن حكمه بكل ما لديه من قوة». [51] وهذا يوضح طبيعة الدور «البوليسي القمعي» الذي أبدى الزعماء الصهاينة استعدادهم للقيام به في وجه الحركات التحررية بما فيها الحركة التحررية العربية. كما أن موقفهم من القضية الأرمنية يلقي مزيدا من الأضواء على سلوكه الانتهازي، فقد تعهد هرتزل ببذل كل الجهود الممكنة لإجهاض الحركة الوطنية الأرمنية وإجبار زعمائها على الدخول من جديد في طاعة السلطان ومن الأمور اللافتة للنظر الاقتراح الذي تقدم به هرتزل في مايو عام 1902 بإنشاء جامعة في القدس يقوم بالتدريس فيها أساتذة يهود يتجه إليها الطلبة الأتراك عوضا عن المعاهد الغربية التي كانت-على حد تعبيره-تغذى فيهم الأفكار الرئيسية ومبادئ الحرية والديمقراطية، وتدفعهم للاشتراك في الأحزاب الثورية المناهضة لحكم السلطان. [53].

وفي يوليه عام 1902 ذهب هرتزل لزيارة الآستانة للمرة الأخيرة بهدف التوصل إلى أية نتيجة إيجابية محسوسة. وكالعادة لم يتوصل باجتماعاته مع المسؤولين العثمانيين إلى نتيجة تذكر، فاضطر عند هذا الحد إلى وقف اتصالاته بالعثمانيين والبحث عن حليف جديد بعد أن أضحى مقتنعا بأن حصول اليهود على فلسطين لن يتيم إلا بعد القضاء على السلطان عبد الحميد وتقسيم الدولة العثمانية. [54]

ومما يسترعي الانتباه في هذا الصدد، أنه بالرغم من أن السلطان عبد الحميد كان يتخذ موقفا معارضا للحركة الصهيونية وتطلعاتها، إلا أنه أبقى الباب مفتوحا أمام هرتزل للتفاوض وإجراء الاتصالات طيلة الفترة الممتدة من عام 1896 حتى عام 1902. لقد أبلغ السلطان هرتزل أكثر من مرة: «... إني لا أستطيع التخلي عن شبر واحد من فلسطين حتى مقابل

الملايين». [55] ففلسطين، وبيت المقدس بالذات، لها مكانتها الخاصة في العالم الإسلامي، والسلطان كان متمسكا بوحدة دولته ولم يكن مستعدا لإضافة «أقلية أو عرق» جديد لباقي الأعراق والأجناس المتنافسة في دولته كي لا يعطي مبررا جديدا تستغله الدول الكبرى في زيادة تدخلها في شؤون الدولة العثمانية الداخلية. إذن لماذا لم يوضع حد لهذه الاتصالات منذ بدايتها ؟

إن المسؤولية في إطالة المفاوضات يتحمل تبعتها أساسا مستشارو السلطان وأفراد بطانته ممن كانوا يبحثون عن الرشوة في أية جهة ومن أي مصدر. فقد سجل هرتزل في مذكراته أنه حينما قابل السلطان عام 1901 وزع حوالي 40 ألف فرنك على أفراد حاشية السلطان الذين أفهموه بأنهم هم الذين هيئوا لهذه المقابلة. ويبدو أن هؤلاء المستشارين هم الذين أقنعوا السلطان عبد الحميد باستقبال هرتزل لاستخدامه أداة في الحصول على قرض مالي من الممولين اليهود لتسديد ديون الدولة التي بلغت أوضاعها المالية حدا بالغ الخطورة من التردي والانهيار. كما بينوا للسلطان أن بالإمكان تحقيق ذلك دون اللجوء إلى التخلي عن فلسطين. لليهود وبالإضافة إلى ذلك فإن المسؤولين العثمانيين وجدوها فرصة سانحة لإطالة المفاوضات، كي يستغلوا النفوذ اليهودي في الصحافة الأوروبية لتقديم صورة إيجابية عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الدولة العثمانية. [56] وهناك من يفسر هذا الموقف بأن العثمانيين كانوا غير جادين في مفاوضاتهم مع هرتزل. إذ إنهم كانوا يماطلونه في استخدام عروضه المالية كورقة رابحة في أيديهم للضغط بها على المولين الأوروبيين-وخاصة الفرنسيين منهم-من أجل حملهم على تقديم شروط وتسهيلات أفضل. وقد كانت الحكومة العثمانية متورطة منذ مدة طويلة في مفاوضات مضنية مع هؤلاء المولين من أجل توحيد ديونها وسدادها. [57]

هرتزل وبريطانيا:

في أعقاب الفشل الذي مني به هرتزل لدى كل من القيصر الألماني والسلطان العثماني، لجأ بعد ذلك إلى التركيز على بريطانيا. وقد بدأ يتضح له أكثر فأكثر أنها هي الدولة الوحيدة التي كانت تمتلك الإرادة

والقدرة على تنفيذ مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين. أما الدول الأوروبية الأخرى فقد ثبت أنها كانت تفتقد القدرة على تنفيذ أي مشروع استيطاني في فلسطين، وأن أقصى ما كان بإمكانها أن تقدمه هو الدعم المعنوي للمطامع الصهيونية.

بدأت اتصالات هرتزل ببريطانيا خلال انعقاد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن عام 1900، وقد أعلن في إحدى جلسات المؤتمر أن «بريطانيا العظيمة المتحررة سوف تستوعب عمق أهدافنا وتدرك بعد مطامحنا من خلال نظرتها الشمولية للعالم (وقوتها العسكرية المسيطرة في شتى أرجاء العالم ومصالحها الاقتصادية المنتشرة في كل مكان) وإذا ما تسنى لنا الانطلاق من إنجلترا فلا شك أن مسيرة الفكرة الصهيونية ستتزايد وتتصاعد أكثر من أي وقت مضى». [58] كان هرتزل يدرك طبيعة المركز القيادي المتميز الذي كانت تحتله بريطانيا بالنسبة للحركة الإمبريالية العالمية بالإضافة إلى وجود مصالح حيوية لها في منطقة الشرق العربي خاصة بعد احتلالها مصر وقبرص ورغبتها في زرع المنطقة بأعداد كافية من «المستعمرين البيض» كما حدث في القارة الأفريقية. ولذلك كان من الطبيعي أن يحدث التقاء بين الحركة الصهيونية والإمبريالية البريطانية. «إن الإنجليز» كما قال هرتزل: «نجحوا في السيطرة على أجزاء كثيرة من العالم لأنهم كانوا أول من أدرك أهمية التوسع الاستعماري عبر البحار. ولذا فإن إنجلترا ستتفهم حقيقة الفكرة الصهيونية-باعتبارها فكرة استعمارية-بمنتهى السهولة واليسر». [59] كذلك كانت بريطانيا آنذاك مهتمة بشكل واضح بإيجاد حل لذلك السيل من المهاجرين اليهود الروس المتجه إليها لما تمخض عنه من ردود فعل معارضة لدى الرأي العام البريطاني. وقد عمدت الحكومة البريطانية برئاسة جيمس بلفور إلى تشكيل لجنة ملكية عام 1902 لدراسة هذه القضية، وكان هرتزل نفسه من بين أولئك الأشخاص الذين تم استدعاؤهم للإدلاء بشهاداتهم أمام هذه اللجنة. وكان وجود هرتزل في لندن فرصة سانحة لإجراء اتصالات مباشرة مع عدد من المسؤولين البريطانيين وخاصة جوزيف تشمبرلن، وزير المستعمرات، واللورد لانسداون، وزير الشؤون الخارجية، بالإضافة إلى بلفور نفسه ولويد جورج. ففي الفترة الواقعة بين عامي 1902-1905 تبنى تشمبرلن عددا من المشاريع التي كانت

تهدف إلى تجميع أكبر عدد ممكن من اليهود والتهيئة لإقامة كيان سياسي لهم. ويعزو جوليان امرى في كتابه The Life of Joseph Chamberlain اهتمام تشمبرلن بإنشاء الكيان السياسي اليهودي إلى رغبته في «خدمة مصالح الإمبراطورية البريطانية»[60] ولم تكن سياسته تجاه اليهود نابعة من حماس ديني أو مشاعر إنسانية تجاههم. وإنما كان يرى فيهم خامة بشرية تتمتع «بمزايا حضارية غربية تصلح لاستيطان وتنمية أي أرض خالية تحت نفوذ ووصاية بريطانيا». [61] وكان تشمبرلن يعتقد بأن إنشاء كيان سياسي يهودي في منطقة خاضعة للنفوذ البريطاني يضمن لبلاده وجود قوة موالية لها تعمل على تثبيت نفوذها ودعمه. وبالإضافة إلى ذلك كان يهم تشمبرلن الحصول على الدعم المالي اليهودي لمشاريع بريطانيا التوسعية لا سيما وأن معظم المؤسسات المالية اليهودية كانت تتخذ من العاصمة البريطانية مقرا لها. [62]

واتضح من هذه الاتصالات أن هرتزل كان مستعدا لقبول أي منطقة من المناطق التي تستعمرها بريطانيا لتوطين اليهود فيها بعد فشله في الحصول على فلسطين من العثمانيين، وستتعرض الدراسة في الفصل التالي لشتى مشاريع الاستيطان اليهودي خارج فلسطين والدور الذي قامت به بريطانيا في بلورة العديد من هذه المشاريع.

هرتزل وروسيا القيصرية:

يعتبر تعامل هرتزل مع الدوائر الحاكمة في روسيا القيصرية مظهرا من مظاهر توجه العمل الصهيوني للتحالف مع القوى الرجعية العنصرية بعد نجاحه في تعميق تحالفه مع القوى الاستعمارية. بدأ هرتزل اتصالاته مع المسؤولين الروس في عام 1903. ففي ذلك العام أجرى محادثات طويلة مع فون بليهفيه Von Plehve وزير الداخلية الروسي المسؤول عن تنفيذ «مذابح كيشينيف» ضد اليهود عام 1902. ولم يجد هرتزل ما يبرر به محادثاته هذه سوى أنه كان حريصا على وقف الاضطهاد الروسي يهود وتحسين أوضاعهم السيئة. وفي هذه المحادثات أوضح هرتزل لبليهفيه أن المنظمة الصهيونية قادرة على إبعاد العناصر اليهودية المستغلة عن الحركات الثورية الروسية، وذلك بالعمل على ضم هذه العناصر إلى الحركة الصهيونية

ودفعهم فيما بعد للهجرة إلى فلسطين. واشترط هرتزل على بليهفيه مقابل ذلك أن تقوم الحكومة الروسية بالضغط على السلطان العثماني لإصدار ميثاق يسمح بمقتضاه لليهود بالاستيطان في فلسطين. وكان مما قاله هرتزل لبليهفيه حول هذا الموضوع: «إذا تم لكم النجاح في مسعاكم مع السلطان العثماني ووافق على توطين اليهود في فلسطين فإن الحركة ستستقطب جميع اليهود بمن فيهم من المتطرفين... أما إذا انهارت آمالنا فإن الوضع سينقلب رأسا على عقب... وستكسب الأحزاب الثورية إلى صفوفها أولئك الذين سينسحبون من الصهيونية التي أمثلها أنا وزملائي.»[63]

وكان بليهفيه-على ما يبدو-حريصا على التخلص من «عامة اليهود» باستثناء الأثرياء منهم، وجاء هذا واضحا في قوله: « ... إن نجاح اليهود في إقامة دولة مستقلة لهم تستوعب عدة ملايين منهم لهو أمر نقبل به وندعمه... إننا لا نريد التخلص من جميع اليهود الروس... إننا نريد فقط التخلص من المعدمين والمضطربين»[64] وهكذا يتضح أن العقيدة الصهيونية تبنت من الأساس مسارا مضادا لحركة التحرر الثوري بدليل أنها دأبت على التآمر ضدها وضد مصالح الفئات البسيطة المعدمة في حين أنها كانت حريصة على مصالح الفئات الثرية والمتمولة سواء أكانت تلك الفئات يهودية أم غير ذلك.

وفي نهاية المحادثات وافقت الحكومة الروسية على بذل كل ما في وسعها للضغط على الباب العالي، لتسهيل عملية الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن روسيا تعهدت بتقديم مساعدات مالية للمهاجرين اليهود تجمع عن طريق ضرائب تفرض على اليهود الأغنياء، وتعهدت أيضا بالسماح بقيام «المنظمات المخلصة من المجتمعات الصهيونية الروسية» أو بتعبير آخر الجمعيات الصهيونية الملتزمة ببرنامج بازل.[65]

ومن المؤسسات الصهيونية التي سمحت روسيا لها بمزاولة نشاطاتها صندوق الائتمان اليهودي، فقد بدأ ببيع أسهمه بين اليهود الروس وقام بفتح فرع له في روسيا. ومن ضمن الأمور التي تعهد هرتزل بتنفيذها-في المقابل-عدم التعرض لموضوع مذابح كيشينيف في المؤتمر الصهيوني السادس الذي كان مقررا عقده في بازل فور انتهاء هرتزل من زيارته لروسيا.

ورغبة منه في تسهيل مهمة هرتزل، قام بليهفيه بإقناع القيصر تزويد

هرتزل برسالة مصدقة منه يعلن فيها تعاطفه مع الصهيونية طالما أن هدفها ظل منحصرا في إقامة دولة يهودية في فلسطين. وكان مما ورد في هذه الرسالة: «... (إن روسيا مستعدة لمساعدة الصهيونية) وهذه المساعدة قد تتخذ شكل حماية للممثلين الصهيونيين أمام الحكومة العثمانية وتسهيل نشاط جمعيات الهجرة... ومساعدتها ماليا... من الضرائب التي تجبى من اليهود.»[66] ولم ينكث هرتزل عهده فقد أكد أمام المجتمعين في مؤتمرهم الصهيوني السادس أن الحكومة الروسية «لن تسبب أية مشاكل للحركة الصهيونية، طالما أن نشاطها ظل منحصر ضمن النظام والقانون». [67] واستطاع هرتزل بجهد وتصميم أن يحول بين المؤتمرين وبين مناقشة مذابح كيشينيف، وقد علق على الموضوع في رسالة بعث بها إلى بليهفيه قال فيها: «... بالرغم من المصاعب التي واجهتني في إدارة جلسات المؤتمر ذات الجو المشحون نتيجة الأحداث المؤلمة (مذابح كيشينيف)، إلا أنني نجحت في المحافظة على النظام وإعادة الهدوء إلى الجلسات... ولا شك أن الفضل يعود في ذلك إلى رسالتكم التي تكرمتم بإرسالها في 12 أغسطس والتي كشفت محتوياتها لأخمد بذلك كل جدال ثار حول تلك الأحداث». [68]

إن الطريقة التي تعامل بها هرتزل مع بليهفيه وغيره من المسؤولين الروس، ليست مجرد تكتيك ارتآه هرتزل مناسبا لكسب رضا أولئك المسؤولين الروس، إنها في الواقع تعكس موقفا استراتيجيا ثابتا للحركة الصهيونية يعكس في مضمونه مصالح الإمبريالية الأوروبية والبرجوازية اليهودية، وتبين أنها على استعداد للتحالف مع القوى الرجعية العنصرية طالما أن في هذا إضعافا للقوى الثورية المضادة التي تهدد المصالح التي تمثلها الحركة الصهيونية.

حاول هرتزل في الشهور القليلة التي سبقت وفاته في يوليه عام 1904 الحصول على تأييد المزيد من الزعماء الأوروبيين لتنفيذ خططه من خلال العمل الدبلوماسي السياسي. ففي يناير من نفس العام قابل ملك إيطاليا وبحث معه إمكانية توطين اليهود في ليبيا التي كانت إيطاليا تعد العدة لاحتلالها. وبالرغم من رفض الملك الإيطالي لهذا المشروع فقد حصل هرتزل منه على وعد بأن يبذل السفير الإيطالي لدى الدولة العثمانية مساعيه للسماح لليهود بالدخول إلى فلسطين والاستيطان فيها. [69] وبعد

يومين من مقابلته ملك إيطاليا، نجح هرتزل في مقابلة البابا بيوس العاشر الذي رفض تأييد الخطط الصهيونية في استيطان فلسطين، وأكد له استحالة الاعتراف باليهود كشعب أو تأييدهم للاستيطان في الأماكن المقدسة. وقد أورد هرتزل في يومياته قول البابا له: «لا نستطيع أن نقبل بهذه الحركة.

لا نقدر أن نمنع اليهود من الذهاب إلى القدس، ولكن لن نرضى به رسميا أبدا. إن تراب القدس قد قدسته حياة المسيح الذي عاش عليه. وكرئيس للكنيسة لا أستطيع أن أقول غير هذا.

لم يعترف اليهود بسيدنا ولذلك لا نستطيع أن نعترف بالشعب اليهودي. وليس هناك غير إمكانيتين: إما أن يظل اليهود متمسكين بإيمانهم ويظلوا ينتظرون المسيح الذي بالنسبة لنا قد جاء، وبهذا يكونون منكرين ألوهية المسيح ولا نستطيع أن نساعدهم أو يذهبوا إلى فلسطين بدون إيمان، وهذا بالطبع يجعلنا أقل عطفا عليهم ونصرة لهم». [70]

يلاحظ مما تقدم أنه بالرغم من أن المساعي الرامية لتحقيق استيطان يهودي في فلسطين في عهد هرتزل لم تكلل بالنجاح، إلا أن نشاطه المتواصل في المجال الدبلوماسي انتزع للمنظمة الصهيونية «اعترافا ضمنيا» من كثير من حكومات العالم بالإضافة إلى أنه خلق من «المسالة اليهودية» قضية عالمية أصبحت مثار اهتمام كثير من الحكومات والدول. [71]

كانت قناعات هرتزل الواضحة منذ البداية تكمن في الحصول على حماية دولة من الدول الكبرى (وخاصة بريطانيا) و «إقامة الشركة اليهودية» قبل البدء بأي نشاط استيطاني منظم في فلسطين، وقد أطلق على أسلوب العمل هذا اسم «الصهيونية السياسية». من ناحية أخرى برز تيار صهيوني معارض للتيار الهرتزلي دعا بإصرار وجدية إلى التركيز على الاستيطان سواء حصل الصهاينة على ضمانات دولية أم لم يحصلوا، وكانت غالبية المنتسبين لهذا التيار من اليهود الروس الذين أطلق عليهم اسم «الصهيونيين العمليين».

وقد شكلت مجموعة الصهيونيين العمليين معارضة حقيقية لهرتزل خلال المؤتمرين الصهيونيين الخامس والسادس، وأخذوا يطالبون بتخلي هرتزل عن مشاريعه الاستيطانية في أوغندا وغيرها والالتزام ببرنامج

بازل الداعي إلى الاستيطان في فلسطين. وقد وجهوا إليه في النهاية إنذارا بالكف عن محاولاته كي لا تنقسم الحركة الصهيونية على نفسها ولم يتمكن هرتزل من تجاوز هذه الخلافات إلا في أبريل 1904 أثناء انعقاد المجلس الصهيوني العام في فينا، وذلك قبل وفاته بفترة وجيزة.

الهوامش

(1) لمزيد من التفاصيل انظر: Hertzel,Diaries,Vol I .

(2) المصدر السابق، ج 2، ص 589: وانظر أيضا جريس ص 144.

(3) فضيحة مالية تورط فيها عدد كبير من الرأسماليين الفرنسيين وكان بينهم مجموعة من اليهود. وقد كشفت هذه الفضيحة الكثير من أعمال الخداع والرشوة التي أحاطت بمشروع القناة الذي كانت تشرف عليه الحكومة الفرنسية. وأدى تسرب أنباء الفضيحة إلى إثارة حفيظة الشعب الفرنسي الذي أخذ يوجه أصابع الاتهام صوب المتورطين بشكل عام واليهود منهم بشكل خاص. انظرSachar, p.229.

(4) نسبة إلى ألفرد دريفوس Alfred Dreyfus وهو يهودي الأصل كان يعمل ضابطا في سلاح المدفعية الفرنسية. وقد اتهم عام 1894 بأنه سلم معلومات هامة إلى الملحق العسكري الألماني في باريس. فاتهم بالخيانة العظمى وأدين بعد محكمة استمرت مدة ليست بالقصيرة، وحكم بطرده من الجيش ونفيه إلى جزيرة الشيطان. ولكن قضية دريفوس لم تتوقف عند هذا الحد، ففي عام 1896 تم اكتشاف الجاني الحقيقي واسمه استرهازي Esterhazy. وقد تسربت الأنباء إلى الصحافة الليبرالية في فرنسا والتي كانت تتحرق شوقا لتوجيه ضربة قاضية إلى نفوذ القوى الفرنسية المحافظة التي كانت تهيمن عل الكنيسة والجيش. وقد نجحت الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى في تضخيم القضية حتى أصبحت عام 1898 فضيحة كبرى تشغل الرأي العام الفرنسي والأوروبي معا. وقد أعيدت محاكمة دريفوس ثانية عام 1899 وبرئ من جزء من التهم التي أدين بها، ولكن الضجة لم تخمد واستمرت حتى تمت تبرئته نهائيا عام 1907. انظرSachar, pp. 230-233

(5) Herzl, Diaries, Vol I, pp. 9- 10 وانظر أيضا هرزبرغ (الترجمة العربية) ص 113.

(6) أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي: البدائل الأخرى، مجلة كلية الآداب والتربية (جامعة الكويت: ديسمبر 1978)، العدد 14، ص 10.

(7) Herzl, The Jewish State,p. 18 وانظر أيضا هرزبرغ (الترجمة العربية) ص 109، العظم ص 110.

(8) Herzl, The Jewish State وهرزبرغ، الترجمة العربية ص 111-110، والعظم ص 111.

(9) Herzl, Ibid, p.19 ، والعظم ص 109، وهرزبرغ ص 112.

(10) Herzl, Ibid, p. 23 ، و العظم ص 113.

(11) Herzl, Ibid, p.50

(12) هلبروك، ص 25.

(13) المصدر نفسه.

(14) Herzl, Ibid, p.34

(15) Herzl, Ibid, p.28 ، هرزبرغ، (الترجمة العربية)، ص 118.

(16) Herzl, Diaries, Vol III p.1194

(17) هرزبرغ (الترجمة العربية)، ص 119.

(18) المصدر نفسه.

(19) أمـين ص 171.

(20) Herzl, Diaries, Vol I, p.191

(21) Herzl, The Jewish State, P. 75

(22) Jacob de Hass, Theodor Herzl: A Biographical Study (Chicago: 1927), Vol I, pp.194 ff

(23) Sokolow, Vol I, P. 269، وانظر أيضا: أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية (بيروت: 1967)، ص 27.

(24) Herzl, Diaries, Vol II, P. 581

(25) لمزيد من التفاصيل انظر: عبد الرحمن، المصدر السابق، ص 29-36.

(26) جريس ص 159.

(27) لمزيد من التفاصيل انظر: The Standard Jewish Encyclopedia 1959

(28) المصدر نفسه.

(29) T. Wahlinowski, Die Deutsche Bundes Pepublik Israel and Poland, p. 5، نقلا عن محافظة ص 141.

(30) M. Lowenthal, The Diaries of Theodor, Herzl (London: 1958), pp. 235-237

(31) Herzl, Diaries, Vol II, P. 668

(32) Ibid,P.639

(33) Ibid,P.693

(33) Ibid,P.799

(35) فرانك مانويل، بين امريكا وفلسطين (تعريب يوسف حنا) (عمان: 1967)، ص 36.

(36) I. Friedman, Germany, Turkey and Zionism 1897- 1918 (Oxford: 1977), P. 77

(37) حـلاق، ص 155.

(38) Herzl, Diaries, Vol III,P.928

(39) Ibid, Vol II,. P757

(40) Ven Buelow, Memoirs (London: 1931), Vol II, P. 250

(41) Herzl. Diaries, Vol II, P.292

(42) محافظة ص 154.

(43) قام هرتزل بأول زيارة له للآستانة في 18 يونيه عام 1896 واجتمع مع عدد من كبار المسؤولين العثمانيين وحاول إقناعهما بجدوى المشروع الصهيوني في فلسطين مقابل تقديم معونات مالية للدولة. ولكنه فشل في مقابلة السلطان ولم يحقق أي نجاح يذكر في محاولاته فاضطر لمغادرة الآستانة والعودة إلى فينا.

(44) أنيس صايغ، يوميات هرتزل (ترجمة هلدا شعبان صايغ) (بيروت: 1973) ص 149.

(45) Herzl, Diaries, Vol III, P. 1118

(46) Laqueur, P.116، وانظر أيضا: احمد عبد الرحيم مصطفى، موقف الدولة العثمانية من الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (عمان: ابريل 1980) ص 19.

(47) Herzl, Diaries, Vol III, P . 961

(48) صايغ، يوميات هرتزل، ص 172.

(49) David Vital, Zionism: The Formative Years(Oxford:1982) pp. 116-117

(50) M. Simon (ed), Speeches, Articles and Letters of I. Zangwill (London:1937), pp.158- 159

(51) Uri Avnery, Israel Without Zionists (London:1970), pp.51-50

(52) Herzl, Diaries, Vol III, P.1192

(53) Laqueur, P.118

(54) اجتمع هرتزل هذه المرة مع سعيد باشا، الصدر الأعظم، وناقش الموضوع المالي كالعادة، ثم أبدى هرتزل قبول فكرة الاستيطان في العراق بالإضافة إلى منطقة حيفا. ولكن اجتماعه لم يتمخض عنه شيء ذو فائدة. انظر: Herzl, Diaries, Vol III, P. 1130

(55) Simon,P.80

(56) Vital, Ibid. PP. 121-122

(57) جريس ص 166،

(58) هلبروك، ص 39.

(59) Raphael Patai (ed.) Herzl Year Book (N.Y.: 1960), Vol III, Pp. 42-43

(60) لمزيد-من التفاصيل انظر الجزء الرابع من:

Julian Amery, The Life of Joseph Chamberlain (London: 1951)

(61) أمين محمود، التوسع الامبريالي الغربي وفكرة الدولة اليهودية، دراسات (عمان: الجامعة الأردنية، مايو 1978)، ص 19-45.

(62) Christopher Sykes,Two Studies in Virtue (London: 1953) P. 162

(63) هلبروك، ص 44.

(64) Herzl, Diaries, Vol IV, P. 1935

(65) صايغ، يوميات هرتز ل. ص 367.

(66) جريس، ص 170.

(67) Laqueur, p. 136

(68) Herzl, Diaries, Vol IV, PP. 1550-1551

(69) محمود، التوسع الامبريالي الغربي وفكرة الدولة اليهودية، ص 19-45.

(70) صايغ، يوميات هرتزل، ص 323-324.

(71) لمزيد من التفاصيل انظر: عبدالرحمن، ص 52-59.

5

مشاريع الاستيطان اليهودي بدائل فلسطين (١٨٩١- ١٩١٧)

تعرض العالم العربي وبعض المناطق المجاورة له لمحاولات استيطان يهودية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وكان الهدف الذي تسعى إليه هذه المحاولات الصهيونية في معظمها هو إنشاء دولة يهودية. ومن الملاحظ أن غالبية الكتابات المعاصرة حول هذا الموضوع تقرن الاستيطان اليهودي بأرض فلسطين فقط، علما بأن هنالك بقاعا أخرى كثيرة تعرضت لخطر الغزو الصهيوني بطريقة أو بأخرى، فقد قامت محاولات صهيونية جادة لاستعمار أرض مدين في شمال الحجاز، ومنطقة العريش وسيناء، والجبل الأخضر في ليبيا، والبحرين والإحساء في منطقة الخليج العربي، بالإضافة إلى قبرص ويوغندا.

وإن اتخذ هذا الفصل من هذه المحاولات محورا رئيسيا للدراسة إلا أنه لن يغفل محاولات الاستيطان الأخرى التي تعرضت لها مناطق أخرى كالأرجنتين وإقليم اضنة التركي بالإضافة إلى رودس وانجولا

وموزمبيق والكونغو.

مشروع الدولة اليهودية في مدين عام 1891:

في أعقاب احتلالها لقبرص عام 1878 ومصر عام 1881، أخذت بريطانيا تسعى جاهدة لإقامة أنظمة حكم موالية لها في منطقة شرق البحر المتوسط تقوم بدور الحارس الأمين لمصالحها الاستعمارية.[1] وتأمين شريانها الحيوي الموصل لمستعمراتها في شبه القارة الهندية. ولعل هذا الاتجاه الاستعماري كان بمثابة عامل مشجع للقيام بمحاولة إنشاء دولة يهودية في أرض مدين.

والمقصود بأرض مدين المنطقة الساحلية الواقعة شمال غرب الجزيرة العربية حيث تتاخم حدودها الشمالية مدينة العقبة الأردنية، وتمتد جنوبا مسافة 400 كيلو متر حتى تصل مرفأ «الوجه». ولم يكن عدد سكانها في نهاية القرن التاسع عشر يتجاوز العشرين ألف نسمة وكانوا ينتمون في غالبيتهم إلى قبائل بدوية تعتمد في حياتها على الرعي وتربية الماشية. وخضعت هذه المنطقة عام 1891 للإشراف البريطاني حيث كانت تتبع في إدارتها مركز السويس. وقد ارتبطت مدين في التاريخ الحديث بالمشروع الذي قام به بول فريدمان Paul Friedman عام 1891 بهدف إقامة مستوطنات يهودية فيها تشكل نواة دولة يهودية.[2]

ينحدر فريدمان من أسرة يهودية ألمانية[3] ورث عنها ثروة كبيرة سهلت له عملية الانصراف إلى القيام برحلات ومغامرات كثيرة في أوروبا وخارجها. وقد كان لمشروع لورنس اوليفانت تأثير كبير على تفكير فريدمان بإقامة دولة يهودية في أرض مدين. ففي عام 1880 قدم اوليفانت مشروعا تضمنه كتابه «أرض جلعاد» دعا فيه إلى احتلال البريطانيين «سوريا الجنوبية» وتسهيل مهمة اليهود في استعمارها واستصلاح أراضيها وتمكينهم من إقامة دولة لهم تكون خير سند وعون للمصالح البريطانية في منطقة شرق السويس.[4] وقد تأثر فريدمان أيضا بمؤلفات ريتشارد بورتون Richard Burton، الذي عمل قنصلا لبريطانيا في دمشق في الفترة الواقعة بين عامي 1869-1871. وخاصة كتابه أرض مدين The Land of Midian الذي وضعه عام 1879. ويبدو أن إسهاب بورتون في الحديث عن الثروات الكامنة في هذه الأرض من مناجم ذهب ومعادن ثمينة شجع فريدمان على أن يقوم في

نهاية عام 1890 بزيارة خاطفة إلى منطقة مدين حيث عاد محملا بعدد كبير من الصناديق المليئة بعينات من المعادن والصخور ليقوم بتحليلها في مختبرات أوروبا. وقد نشر في برلين عام 1891 كتيبا بعنوان أرض مدين Das Land Madian تحدث فيه عن خصوبة أرضها وثرواتها المعدنية الهائلة بالإضافة إلى طبيعة سكانها المسالمة ومناخها الملائم مؤكدا أن قيام دولة يهودية في هذه المنطقة سيوفر لليهود إمكانيات اقتصادية واسعة تعينهم فيما بعد على مد نفوذهم إلى فلسطين والبلاد المجاورة بسهولة فائقة. [5]

وقد أرسل فريدمان هذا الكراس إلى عدد كبير من الزعماء في دول أوروبا الغربية يحثهم فيه على ممارسة نفوذهم، لإقناع أكبر عدد من اليهود للهجرة إلى أرض مدين مؤكدا أن أهلها «مسالمون»، وسيرحبون بتقدم هؤلاء المهاجرين اليهود. وأشار في كراسه أيضا إلى أن الكثير من سكان تلك المنطقة يتصفون بالكثير من «العادات اليهودية»، منتهيا إلى القول بأن مدين كانت تشكل في الماضي جزءا من المملكة اليهودية القديمة. [6]

قام فريدمان باتصالات مكثفة مع المسؤولين البريطانيين. وقد بدأ اتصالاته باللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر حيث قابله للمرة الأولى أثناء مروره بالقاهرة في طريقه لزيارته الخاطفة لمدين عام 1890 ونجح في تأمين موافقته على إنشاء مستوطنات يهودية في تلك المنطقة. وقد تلقى وعدا من كرومر بتسهيل مهمته لدى الحكومتين المصرية والبريطانية لتأمين تأييدهما لمشروعه. وفي طريق عودته من مدين أوعز كرومر إلى فريدمان بالتوجه فورا إلى لندن، لتقديم مذكرة بتفاصيل مشروعه إلى رئيس وزراء بريطانيا الذي سبق لكرومر أن أطلعه على خطوط المشروع العريضة، وقد تضمنت بنود هذا المشروع ما يلي:

- ١- التمهيد لحل مشكلة يهود أوروبا الشرقية عن طريق البدء بتهجيرهم[7] إلى مدين «لإنقاذهم من المعاناة» التي كانوا يتعرضون لها في أماكن سكناهم، وحمايتهم من الانخراط في سلك «الأحزاب الثورية»، ووضع حد لهجراتهم إلى أوروبا الغربية والعالم الجديد.

2- تشكيل قوة مسلحة تتلقى تدريبات عسكرية على أيدي ضباط محترفين سواء أكانوا من بريطانيا أم من غيرها من الدول الأوروبية، لتتمكن هذه القوة من فرض هيبتها على «البدو» والمحافظة بالتالي على أمن واستقرار

المنطقة.

3- إقامة مستعمرة يهودية تتمتع بالاستقلال الذاتي تحت إشراف بريطانيا.

4- إنشاء خط حديدي يربط مصر بالهند ويختصر الرحلة بينهما بأربعة أو خمسة أيام على الأقل، ويقوم المستوطنون اليهود بتوفير الحماية اللازمة له عبر الصحراء العربية. وهذا البند يحمل في طياته ولا شك، نية مبيتة لدى فريدمان ومؤيديه بتوسيع حدود النفوذ اليهودي لتضم مزيدا من الأراضي العربية الممتدة إلى الشرق من مدين.[8]

ولا تشير المصادر المتوفرة حاليا إلى رد الفعل الرسمي للحكومة البريطانية لدى تلقيها هذا المشروع، ولكن سماحها لفريدمان وأتباعه بالتوجه-كما سنرى بعد قليل-إلى مدين وعدم معارضتها لحملته يدل دلالة واضحة على أن بريطانيا قامت بتأييد هذا المشروع، غير أن هذا التأييد اتخذ أسلوبا ضمنيا خوفا من أن تتأزم علاقتها مع الدولة العثمانية، وذلك لأن هذه المنطقة لا زالت تعتبر من الناحية الاسمية على الأقل جزءا من ممتلكات هذه الدولة، بالإضافة إلى وقوعها على الطريق المتجه إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز، مما جعلها قضية غاية في الخطورة والحساسية. ويبدو أن فريد مان اكتفى بهذه الموافقة الضمنية من جانب بريطانيا خاصة وأنه تلقى من كرومر وعدا بالاعتراف الرسمي حالما تتحقق الفرصة لنجاح المشروع.[9] ولعل بريطانيا استساغت في دبلوماسيتها عدم اللجوء إلى الالتزامات الرسمية الصريحة كي لا تتورط في قضايا غير مأمونة الجوانب.

وعلى أية حال فان فريدمان قام بجمع المجندين والمتطوعين من علماء ومهندسين وكيماويين وجغرافيين بلغ عددهم خمسين شخصا بالإضافة إلى ثلاثين عائلة من اليهود المهاجرين،[10] وقد تلقى هؤلاء المتطوعون تدريبات عسكرية في معسكرات خاصة في هنغاريا والنمسا، وقام بالإشراف على تدريبهم ضابط ألماني يدعى لوثر فون سيباخ Luther Von Seebach وشخصان آخران من يهود النمسا برتبة ضابط صف. وقد قام فريدمان بشراء يخت تجاري أسماه «إسرائيل»[11] حمل عليه جماعته من المتطوعين «الرواد» بالإضافة إلى كميات كبيرة من الذخائر والمدافع كانت قد زودته

بها الحكومة النمساوية، وأبحر من مرفأ ساوث هامبتون Southhampton البريطاني تحت العلم النمساوي في نوفمبر عام 1891 ,[12] وقد انضم إلى الحملة أثناء توقفها في الإسكندرية عدد من اليهود المصريين ممن يتكلمون العربية. وقصدت الحملة بعد ذلك صوب «الطور» عند مكان يسمى «شرماء» حيث نصب فريدمان وجماعته الخيام في واد قرب مدين.[13]

بدأ رجال الحملة يتوجهون جنوبا بغية القيام باتصالات مع سكان المنطقة وإقناعهم بالتخلي عن أراضيهم مقابل حصولهم على كميات كبيرة من الأموال، واستخدامهم فيما بعد عيونا لهم في محاولاتهم التوسعية المقبلة بعد أن تكون الأمور قد هدأت واستقرت للمستوطنين اليهود في أرض مدين.

نجح فريدمان في شراء بعض الأراضي قرب قلعة «المويلح» وأخذ يقوم بمحاولات أخرى لشراء المزيد من الأراضي. غير أنه بدأ يواجه صعوبات جمة من السكان العرب الذين «لم يصدقوا ما كان يخدعهم به من أنه يريد الإقامة في جوارهم دون أن يحل بهم أدنى أذى أو يلحق بهم أقل ضرر، خصوصا عندما شاهدوا عنايته بتعليم من معه من المهاجرين الفنون الحربية بالبنادق والمدافع والأسلحة البيضاء».[14] وقد اتجه وفد من السكان العرب إلى الحكومة المصرية طالبا مساعدتها في القضاء عل هذه المحاولة الاستيطانية ولكن دون جدوى. فاضطر هؤلاء السكان إلى اللجوء للدولة العثمانية يطلبون منها التدخل لحمايتهم.

وفي الوقت نفسه بدأت الحملة تواجه معارضة شديدة من بعض كبار الرأسماليين اليهود، الذين بدءوا يشككون في جدوى هذه الحملة بعد أن تبين لهم معارضة الدولة العثمانية لها، لا سيما وأن قسما من هؤلاء الرأسماليين كالبارون دي هيرش كانت لهم مصالح اقتصادية حيوية في الدولة العثمانية، ولم يكن لديهم الاستعداد للمقامرة بهذه المصالح مقابل «مغامرة» غير مأمونة الجوانب. وقام بعض أفراد الحملة بالتمرد على النظام العسكري البروسي الصارم الذي فرضه عليهم القائد العسكري فون سيباخ ورفضوا احتمال قسوة الحياة في الصحراء وعدم توفر الطعام الجيد، حتى أدى الأمر بفريدمان إلى طرد أولئك المتمردين من المعسكر حيث تاهوا في الصحراء ولقي بعضهم حتفه.

خشيت الدولة العثمانية من نتائج هذه الحملة وما يمكن أن تجلبه من المزيد من التدخل الأجنبي خاصة وأنه بدأ يتضح وقوف بريطانيا المستتر وراءها. ومما زاد من خشية الدولة العثمانية إمكانية عرقلة المستوطنين اليهود لطريق الحج. وهكذا وجدت الدولة العثمانية أن لا بد لها من التدخل للقضاء على هذه المحاولة الاستيطانية بحجة أن أرض مدين لا زالت تابعة لها (ولو من الناحية الاسمية فقط)، وأن القوانين العثمانية لا تبيح تملك الأجانب أراضي في شبه الجزيرة العربية. [15] فأوعزت إلى واليها على الحجاز بإرسال جنده لاحتلال قلعة المويلح وما جاورها وتطهير شبه الجزيرة العربية من المستوطنين اليهود. ولكن فريدمان رفض الاستجابة لطلب الجند العثمانيين بالانسحاب من مواقعه والتخلي عن أطماعه التوسعية، وأبلغ قائد الحملة العثمانية الذي تقابل معه في «ضبه» بأن أرض مدين خاضعة للإدارة المصرية وأنه قد حصل على موافقة الحكومة المصرية للاستيطان فيها. [16] ويبدو أن فريدمان قد حصل فعلا على هذه الموافقة نتيجة مساعي كرومر بدليل وصول عدد من الجنود المصريين إلى ضبه، وقيام كرومر وعدد من موظفي وزارة الخارجية البريطانية بمساع كبيرة لإقناع العثمانيين بسحب قواتهم. غير أنهم إزاء إصرار الدولة العثمانية على موقفها، واحتمال تفجر خلاف في منطقة الحدود الفاصلة بين مصر والممتلكات العثمانية، ونتيجة لازدياد معارضة السكان الوطنيين وتفسخ قوة المشاركين في حملة الاستيطان بالإضافة إلى تخلي ذوي النفوذ من الرأسماليين اليهود عن تأييدهم للحملة، إزاء هذا كله تخلت الحكومة البريطانية عن تأييدها لفريدمان وطلبت منه إنهاء مغامراته والانسحاب من مدين. [17]

وفي أعقاب فشل فريدمان في حملته ارتفعت أصوات يهودية كثيرة تدين مثل هذه المحاولات، وتطالب الدول الكبرى بتقديم التزامات واضحة ومحددة وعلنية في المستقبل، وعدم الاكتفاء بوعود ضمنية كتلك التي حصل عليها فريدمان من كرومر. وأخذ بعض زعماء اليهود يتنصل علنا من هذه المغامرة والمسؤولين عن قيامها. فقد ذكرت جريدة الحقيقة (الناطقة بلسان يهود الإسكندرية) في عددها الصادر في 5/ 2/ 1892 بأن فريدمان لم يكن سوى عميل ألماني «يحاول إيجاد مستعمرة على سواحل البحر الأحمر ليسهل لها طريق الفتوحات اقتداء بالرحالة الذين مهدوا الطريق في أفريقيا».

ولكن جريدة المؤيد رفضت هذا التبرير وكشفت النقاب عن أن فريدمان كان يرمي إلى تأسيس مملكة يهودية وأنه جلب معه «ثياب الملك ورسوم وألقاب الدولة»[18] وأنه كان يحظى بتأييد واسع لدى الأوساط اليهودية.

وقد أشار هرتزل أثناء عقد المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897 إلى اعتقاده بأن حملة فريدمان كان من الممكن نجاحها لو أن الحكومة الألمانية تدخلت لصالحها عام 1891 لدى الدولة العثمانية حيث كانت ألمانيا في ذلك الوقت تتمتع بنفوذ يفوق النفوذ البريطاني لدى الباب العالي. ولعل المؤيدين لهذه الحملة من اليهود كانوا مطلعين على الأهمية الاقتصادية لتلك المنطقة.[19] مما حدا بهم إلى الحديث عن فريدمان إبان حملته بإسهاب في الصحافة العالمية وامتداح «نوايا فريدمان الطيبة ومثاليته المخلصة وشجاعته النادرة»، بغية جذب أنظار العالم لعبارة «الدولة اليهودية» على حد تعبير الكاتب الصهيوني جوزيف فرانكل.[20]

بقيت منطقة مدين مثار خلاف بين العثمانيين والإنجليز حتى عام 1906 حينما تم فصلها عن الإدارة المصرية نهائيا و ضمت إلى الولاية العثمانية في الحجاز.

وفي نفس الفترة التي قامت فيها محاولة تأسيس دولة يهودية في مدين، كان البارون دي هيرش يقوم بمحاولة لتوطين يهود أوروبا الشرقية في الأرجنتين. وقد برر هيرش اختياره للأرجنتين لكون أراضيها من أكثر أراضي العالم خصوبة، بالإضافة إلى اتساع مساحتها وقلة عدد سكانها وتمتعها بمناخ معتدل.[21] فقام بشراء 750 ألف هكتار من الأراضي الأرجنتينية ; أسس عليها عشرين مستوطنة، وأخذ يشجع يهود أوروبا الشرقية على الهجرة إليها. وقد نجح بالفعل في جلب حوالي 3500 أسرة يهودية للاستيطان فيها. وفي تحديده لهدف هذه المحاولة أشار هيرش إلى أنه كان يرمي إلى تقليل عدد المهاجرين اليهود إلى أوروبا الغربية وبالتالي التخفيف من حدة (اللاسامية) و (المعاناة) اليهودية، وخلق جيل يهودي جديد «يقدس» العمل في الأرض، ويرضى باحتراف مهنة الزراعة.[32]

كانت خطة هيرش تقضي بتهجير حوالي 1/2 3 مليون يهودي من أوروبا الشرقية إلى الأرجنتين على مدى ربع قرن وبالتدريج، بحيث يكتمل عدد المهاجرين دون أن تحدث ردود فعل معادية لدى الشعب الأرجنتيني إزاء

هؤلاء المهاجرين فيما لو تسربوا للبلاد دفعة واحدة. وقد تولى الكولونيل غولد سميد Goldsmith[23] مهمة الإشراف على إدارة هذه المستوطنات اليهودية التي كلفت هيرش الملايين من الجنيهات.

وهنا يتبادر إلى ذهن القارئ تساؤل حول حقيقة الحافز الذي جعل هيرش يستغل هذه الثروة الطائلة في مثل هذا المشروع ؟ هل هو بالفعل عطفه على أوضاع اليهود السيئة في أوروبا الشرقية ؟ للإجابة على هذا التساؤل لا بد من الإشارة أولا إلى أن معظم الثروة التي كونها هيرش كانت من جراء الصفقة التي عقدها عام 1869 مع الدولة العثمانية، بحصوله على امتياز إنشاء وتشغيل شبكة من الخطوط الحديدية في البلقان خلال مدة تبلغ 25 عاما. وقد أحاطت بهذه الصفقة فضيحة مالية كبرى نظرا للمبالغ التي حصل عليها هيرش نتيجة اتباعه أساليب ملتوية، [24] مما جعل الكثير من الرأسماليين اليهود ممن كانوا ينافسونه على هذه الصفقة، يعملون على تشويه سمعته والحيلولة بينه وبين الحصول على مزيد من الصفقات، وكان في مقدمة هؤلاء الرأسماليين آل روتشيلد. ولذلك فقد كان لا بد لهيرش من العمل على محورين: الأول المحافظة على مصالحه الحيوية في الدولة العثمانية، والثاني القضاء على حملة التشهير التي كان الرأسماليون اليهود يقومون بها ضده. ولكي يحقق هذين الهدفين فقد لجأ إلى إغداق جزء كبير من ثروته على توطين يهود أوروبا الشرقية في الأرجنتين ليضمن بذلك إبعاد الهجرات اليهودية عن الأراضي العثمانية، كي لا تقوم في هذه الدولة حركة مناوئة لليهود، من الممكن جدا أن تؤثر تأثيرا سيئا على مصالحه. وفي نفس الوقت يكون قد ظهر أمام غالبية اليهود بمظهر المحسن الرؤوف، وتصبح له شعبية كبيرة بينهم بحيث يتسنى له خطف الأضواء بعيدا عن الفضيحة المالية التي كان يتخذها الرأسماليون اليهود سلاحا للتشهير به.

ولكن خطط هيرش لم تلبث أن تعرضت للانهيار حيث أن الموت لم يمهل البارون فتوفي في مزرعته بالمجر عام 1896 عن خمسة وستين عاما، وفشلت تجربته الزراعية في الأرجنتين، وهجر غالبية المستوطنين اليهود أماكن سكناهم وانتقلوا للإقامة والعمل في المدن الأرجنتينية الكبيرة. وهكذا لم يتهيأ له المجال لتحقيق حلمه الكبير الذي أخذ يراوده في سني حياته الأخيرة بإنشاء دولة يهودية على جزء من أرض الأرجنتين. [25]

وقد شهد المشرق العربي قبل المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897 بعض المحاولات اليهودية لاقتطاع أجزاء منه بهدف الاستيطان فيها. ففي عام 1891 وجه ماكس بودنهايمر Max Bodenheimer[26] نداء إلى الرأسماليين اليهود لإنشاء شركة استيطانية تعمل على توطين يهود أوروبا الشرقية في منطقة سهل البقاع، التي تتصف بخصوبة أرضها وقلة سكانها ويخترقها نهر الليطاني موفرا لها المياه الكافية. وقد اقترح استقرار اليهود على جانبي الخط الحديدي بين بيروت ودمشق. ويبدو أن بودنهايمر أدرك مدى اهتمام بريطانيا باختصار المسافة بين البحر المتوسط ومستعمراتها في الهند، فتوجه إليها طالبا منها توفير المساعدة والدعم لهذا المشروع مقابل حماية المستوطنين اليهود لمصالح بريطانيا الحيوية وتأمين مواصلاتها لمستعمراتها في الهند. [27]

وقد تلا هذه المحاولة بعامين أي عام 1893 محاولة أخرى قام بها هنري دي أفيجدور Henry d' A vigdor بغية شراء مساحات من الأرض في منطقة حوران لاتخاذها قاعدة للاستيطان اليهودي. ولكن هذه المحاولة كسابقتها فشلت نتيجة معارضة الدولة العثمانية وعدم الحصول عل تأييد ودعم كافيين من الزعماء اليهود. [28]

وفي نفس العام قام افيجدور بالتعاون مع صموئيل مونتاجو [29] Samuel Montague ونيابة عن جمعية أحباء صهيون بتقديم التماس إلى السلطان عبد الحميد بالسماح لليهود باستعمار منطقة شرق الأردن بعد أن قامت السلطات العثمانية بمنع أحباء صهيون من شراء الأراضي في فلسطين أو الاستقرار فيها بشكل دائم. وفي نفس العام أيضا قام الدكتور بوهلندورف Bohlendorf بوضع خطة لتجميع أعداد كافية من اليهود في شرق الأردن للاستقرار فيها والقيام بشن حرب عصابات ضد البدو لطردهم من المنطقة ووضع «أساس دولة يهودية في تلك المنطقة.»[30]

ولكن هاتين المحاولتين كان نصيبهما الفشل كنصيب المحاولات السابقة ولنفس الأسباب التي سبق ذكرها قبل قليل.

مشروع الاستيطان اليهودي في قبرص:

يعود اهتمام اليهود باستيطان جزيرة قبرص إلى عام 1878 حينما قامت

بريطانيا باحتلال الجزيرة وإخضاعها لإدارتها بالرغم من إبقائها تابعة اسميا للسلطنة العثمانية. ففي ذلك العام كتبت صحيفة الجويش كرونيكل The Jewish Chronicle مقالا أشارت فيه إلى أن: «قبرص كانت فيما مضى مقرا لجالية يهودية مزدهرة. فما الذي يمنع من تكرار ذلك ؟ وها هي تجتذب الآن يهود سوريا (بما فيها فلسطين) بتلك المغريات التي قدمتها لليهود القدامى، لا بل بأعظم منها، وهي تبعد مسافة يوم في البحر عن اليابسة. لذلك قد تتاح الفرصة من جديد أمام يهود سوريا كي يعيشوا في ظل تلك المؤسسات النافعة والصادرة عن أكثر المبادئ تنورا وليبرالية، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الهجرة إلى مناخات نائية ويضطروا إلى التخلي عن أسلوب حياتهم الشرقي». [31]

كان الهدف من وراء هذا المقال على ما يبدو، إبراز العلاقة التاريخية بين قبرص واليهود وإقناعهم بضرورة «العودة» لاستعمار قبرص كي تصبح بمثابة قاعدة تحت الحماية البريطانية، ينطلق منها اليهود بعد تجميع قواهم خاصة من أوروبا الشرقية، لاحتلال فلسطين.

وقد تجددت النداءات اليهودية ثانية للاستيطان في قبرص عام 1895 حينما تأزمت العلاقات بين بريطانيا والعثمانيين حول الجزيرة إلى حد جعل الحكومة البريطانية تفكر في إخلاء هذه الجزيرة. ففي خلال هذه الفترة الصعبة ارتفعت أصوات في بريطانيا تدعو إلى إنشاء كيان يهودي سياسي في قبرص، يكون خاضعا للحماية البريطانية ويعمل في خدمة مصالح الإمبراطورية في شرقي المتوسط. وقد تزعم هذه الدعوة أحد الصهيونيين المتحمسين ويدعى ديفيز تريتش [32] Davis Treitsch الذي أصبح فيما بعد من كبار أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية ومن أوائل من فكروا في مشروع فلسطين الكبرى، التي كانت في نظره تضم بالإضافة إلى فلسطين كلا من جزيرة قبرص وشبه جزيرة سيناء. [33]

ولقد لقيت فكرة الاستيطان اليهودي في قبرص في هذه الفترة صدى إيجابيا لدى الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل. «فبينما كانت جزيرة قبرص موضع اهتمام تريتش» كما يقول رابينوفيتش: «كانت الفكرة نفسها تراود هرتزل على الرغم من آلاف الأميال التي كانت تفصل بينهما». [34] ففي أثناء زيارة هرتزل للآستانة عام 1896 أشار عليه عزت باشا العابد أحد

مستشاري السلطان بأن يحصل على قطعة من الأرض بأي شكل، يقيم فيها عددا من المستعمرات اليهودية ويقدمها مع مبلغ من المال فيما بعد للسلطان عبد الحميد لقاء حصوله على فلسطين. وقد دون هرتزل في مذكراته أن «قبرص كانت أول ما فكرت به». (35)

وقبيل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897 أرسل تريتش يطلب من هرتزل بإلحاح إثارة مسالة قبرص أمام المؤتمرين. غير أن الأخير طلب منه التريث لأن «الوقت الحاضر غير مناسب للبحث في ذلك». ولم يمض عام على الطلب الذي تقدم به تريتش حتى وجدنا هرتزل يعلن في تموز عام 1898 بأنه بات من الضروري «إعطاء الحركة (الصهيونية) أهدافا إقليمية قريبة المنال مع الاحتفاظ بصهيون (فلسطين) كهدف نهائي... إن الجماهير (اليهودية) البائسة بأمس الحاجة إلى مساعدات عاجلة وتنشد أهدافا يسهل تحقيقها بسرعة... ولذا فلربما تمكنا من مطالبة إنجلترا بمنحنا قبرص». (36)

وفي أعقاب المؤتمر الصهيوني الثاني عام 1898، اقترح هرتزل على تريتش أن يناقش أفكاره حول الاستيطان اليهودي في قبرص مع المسؤولين في «جمعية الاستعمار اليهودي» التي كان قد أسسها البارون هيرش في باريس قبيل وفاته. ولما لم تجد آراؤه آذانا صاغية لدى أولئك المسؤولين، قام ترتيتش عشية انعقاد المؤتمر الصهيوني الثالث بعرض أفكاره على صفحات جريدة «دي فيلت» الناطقة باسم الحركة الصهيونية مشيرا فيها إلى «أن أبواب فلسطين مغلقة ولكن أبواب قبرص مفتوحة وأن على الحركة الصهيونية أن تنتهز هذه الفرصة لا سيما أن ظروف بعض العمال اليهود المطرودين من أعمالهم في روسيا تدعو إلى حل سريع». (37)

ويبدو أن دعوة تريتش قد وجدت عددا من المؤيدين لها في أوساط الحركة الصهيونية. وارتفعت أصوات تشير إلى أن الحصول على قبرص يضمن للمهاجرين اليهود الحصول على الجنسية البريطانية، وبالتالي يسهل عليهم الانتقال إلى فلسطين متى أرادوا ذلك، ولم تتورع هذه الأصوات عن الاستناد إلى التلمود مشيرة إلى أن قبرص جزء لا يتجزأ من فلسطين. (38) وقد استغل تريتش فرصة انعقاد المؤتمر الصهيوني الثالث عام 1899 ليطرح مسالة قبرص من جديد. وقد تهيأت له الفرصة لذلك لدى مناقشة نشاطات

المصرف اليهودي في فلسطين وسوريا، فأشار إلى أن إدخال سوريا ضمن نشاطات المصرف يشكل تعديلات لما سبق أن أقره المؤتمر الصهيوني الأول في هذا الصدد، وقال: «إن عبارة سوريا وفلسطين تدل على إدراكنا الفطري لحاجتنا إلى فلسطين كبرى... ولكننا مضينا في التوسع صوب الاتجاه الخاطئ... اليابسة تفرق أما البحار فتوحد، أنتم تعرفون الآن أنني أفكر في قبرص». [39]

غير أن غالبية أعضاء المؤتمر عارضت مشروع تريتش بحجة أن البدء في استيطان قبرص قد يضع العراقيل أمام عملية الاستيطان في فلسطين. ولكن تريتش استمر في مشروعه معتمدا على اتصالاته الشخصية، ونجح في تأليف لجنة في برلين ضمت عددا من كبار الصهاينة من بينهم دافيد فولفزون [40] David Wolffsohn والبرفسور اوتو فاربورغ [41] Otto Warburg، وتم الاتفاق في أكتوبر عام 1899 على أن يقوم تريتش بجولة في أوروبا الشرقية بينما يتجه فاربورغ إلى قبرص على أن يلحق به تريتش بعد أن يكون قد جمع عددا كافيا من المتطوعين اليهود للهجرة إلى الجزيرة. وقد وجه تريتش نداء إلى هرتزل يدعوه فيه إلى تعديل هدف الحركة الصهيونية بحيث يشمل فلسطين الكبرى (أو فلسطين والبلاد المجاورة) حتى يمكن إيجاد «وطن» كاف لمجموع الشعب اليهودي. [42] ولكن هرتزل كان يدرك أن إعلان تعاطفه مع مشروع تريتش لا بد أن يثير عليه نقمة أولئك الصهيونيين المعارضين للمشروع. ولذا فإنه آثر اتباع أسلوب التأييد الضمني في هذه المرحلة حتى يتسنى له إقناع المعارضين من جماعة أحباء صهيون بتغيير موقفهم. وقد دون هرتزل في مذكراته ما يلي: «إنني أعتبر مشروع قبرص مشروعا معقولا ولكني لا أستطيع الإعلان عن ذلك خوفا من إغضاب جماعة أحباء صهيون»[43] التي لا ترضى بديلا عن فلسطين. غير أن هرتزل قام في أكتوبر عام 1899 باتصالات شخصية مع بعض المسؤولين العثمانيين يطلعهم فيها على اتجاه بعض الزعماء الصهاينة لعقد اتفاق مع بريطانيا بغية السماح لهم بالاستيطان في قبرص على إثر رفض الدولة العثمانية لمطالب حركتهم الاستيطانية في فلسطين. [44]

ويبدو أن هرتزل كان يحاول من وراء هذه الاتصالات جس نبض العثمانيين لمعرفة رد فعلهم لموضوع الاستيطان اليهودي في قبرص وخاصة أن الجزيرة

كانت لا تزال تابعة لهم اسميا.

وفي نهاية عام 1899 لحق تريتش ب فاربورغ في قبرص للقيام بدراسة أوضاع الجزيرة ومعرفة قدرتها على استيعاب المهاجرين اليهود. ولدى انتهائه من هذه الدراسة رفع مذكرة إلى المندوب السامي البريطاني هناك عرض فيها ملخصا لأفكاره ومشاريعه حول أهمية مستقبل الجزيرة ومدى الفائدة التي تعود على بريطانيا من جراء السماح لليهود بالاستيطان فيها، وطالب الحكومة البريطانية بتقديم جميع التسهيلات الممكنة لتحقيق هذا الغرض. وقد حوت المذكرة مجموعة من الاقتراحات دارت حول حصول اليهود على امتيازات إنشاء وتشغيل الخطوط الحديدية وامتياز استخراج الملح عن طريق استئجار البحيرات المالحة لقاء رسم رمزي، كما أشارت المذكرة إلى مزايا زراعة التبغ، وجدوى إنشاء مصحة تجلب الأجانب إلى الجزيرة مما يعمل على تدفق الأموال عليها. [45] وتحدثت المذكرة أيضا عن إمكانية تحقيق هذه المشاريع إذا وافقت الحكومة البريطانية على مشروع الاستيطان اليهودي حيث يمكن اجتذاب رؤوس الأموال اليهودية إلى الجزيرة. وقد ركزت المذكرة على أهمية الدور الذي سيقوم به المستوطنون اليهود لخدمة مصالح الإمبراطورية البريطانية في منطقة شرق البحر المتوسط.

وقد أشار تريتش في مذكرة أخرى كان قد قدمها إلى جمعية الاستعمار اليهودي، بأنه من الأفضل عدم استيطان الجزيرة بكاملها خلال الفترة الأولى. واقترح أن يتم التركيز بادئ الأمر على النصف الشرقي من الجزيرة «متخذين خليج فماغوستا نقطة انطلاق لنشاطنا» وذلك لأن هذه المنطقة تعتبر من أخصب أجزاء الجزيرة وأقلها استصلاحا في تلك الفترة. وقد طلب تريتش في مذكرته أن تقوم الجمعية بالإنفاق على خمسين متطوعا يهوديا رومانيا مع أسرهم يفدون للجزيرة للبدء بتجارب استيطانية فورية. ولكن فاربورغ اقترح على الجمعية الاكتفاء بإرسال 15 متطوعا فقط في هذه المرحلة لمعرفة ما ستكون عليه ردود فعل السكان الأصليين في الجزيرة. [46]

غادر ترتيتش قبرص في منتصف ديسمبر عام 1899 للقيام باتصالات واسعة مع كبار الرأسماليين اليهود في محاولة منه لإقناعهم بالتخلي عن سياسة الحذر والترقب التي اتخذوها إزاء مشروع قبرص. وقد نجح تريتش

في إقناع 250 يهوديا من رومانيا وروسيا بالتطوع والهجرة إلى قبرص.

ولكن محاولاته سرعان ما بدأت تتبدد شيئا فشيئا، وذلك نتيجة لعدم استجابة الرأسماليين اليهود لنداءاته المتكررة بتقديم المساعدة المادية للمشروع وممارسة الضغط على الحكومة البريطانية لتمنح المشروع موافقتها. وقد تعرض تريتش لهجوم شديد من جماعته أحباء صهيون متهمين إياه بالتغرير بالمهاجرين اليهود وخاصة أن هؤلاء أخذوا يتذمرون من المناخ والطعام والأجور ورفضوا العمل ابتداء من ظهر يوم الجمعة حتى صباح الأحد. وبالإضافة إلى ذلك فقد طالب القادمون من بعض مناطق رومانيا أن يعملوا سويا على أن يميزوا في المعاملة نظرا لتفوقهم على الباقين.

وقد اضطر تريتش إلى طرد هؤلاء المتذمرين، تماما كما فعل فريدمان قبل ذلك بعشرة أعوام وكان هذا إيذانا بفشل المحاولة الأولى للاستيطان اليهودي في قبرص وعاد المتطوعون اليهود من حيث جاءوا. [47]

وبالرغم من فشل محاولة تريتش الأولى، فإن هرتزل لم يتخل نهائيا عن فكرة استعمار قبرص. ففي عام 1901 أخذ يقوم باتصالات مع الحكومة الألمانية بعد أن سرت إشاعات بأن بريطانيا تنوي التخلي لألمانيا عن قبرص مقابل حصولها على بعض المستعمرات الألمانية في شرق أفريقيا. وقد حاول هرتزل إقناع الحكومة الألمانية بالسماح لليهود بالاستيطان في قبرص تحت حمايتها إذا ما تم لها الحصول على قبرص. وقد أشار هرتزل إلى ذلك في مذكراته بقوله:

«سوف نتجمع في قبرص وفي يوم من الأيام سنذهب إلى أرض إسرائيل ونأخذها بالقوة... وفيما لو انتقلت قبرص للنفوذ الألماني فسوف أعمل على تسوية المسألة عن طريق اويلينبوغ... وسوف أعلن للمؤتمر القادم عن مشروع قبرصي جديد ربما استطعت الحصول على دعم له من الرأسماليين الكبار.... فقبرص ليست سوى مسافة خطوة من فلسطين وأن حصولنا عليها سيقنع تركيا بجدية موقفنا»[48] وقد بين هرتزل المزايا التي يمكن لألمانيا الحصول عليها من جراء استيطان يهودي في قبرص، حيث سيوفر المستوطنون لألمانيا قاعدة للتوسع الألماني في منطقة الشرق العربي وسيهيئون لها طريقا مأمونا لممتلكاتها في الشرق الأقصى، بالإضافة إلى استعدادهم

للقيام بعمليات عسكرية وقت الضرورة للدفاع عن المصالح الألمانية في المنطقة.[49]

على أن حماس هرتزل لهذه الفكرة سرعان ما تلاشى بعد أن تبين له أن بريطانيا لن تتخلى عن الجزيرة، ولذا فقد اتجه ثانية صوب لندن. ومما شجع هرتزل على القيام باتصالات جديدة مع الحكومة البريطانية إعلان ستين مرشحا في الانتخابات لمجلس العموم عن تأييدهم للصهيونية، وقد اعتبر هرتزل هذا مؤشرا لتعاطف الرأي العام البريطاني مع المسألة اليهودية. ولعل رغبة الإنجليز في وقف هجرات يهود أوروبا الشرقية إلى بلادهم هو الذي دفع غالبيتهم إلى التعاطف مع الحركة الصهيونية أملا في أن تتمكن هذه الحركة من إيجاد بقعة مناسبة تستقطب الهجرات اليهودية إليها.[50] وقد بدأ هرتزل خلال عامي 1902-1903 القيام باتصالات دبلوماسية وسياسية للحصول من بريطانيا على «براءة الاستيطان» على قبرص. وقد تمكن ليوبولد غرينبرغ[51] Leopold Greenberg في 22 أكتوبر عام 1902 من ترتيب مقابلة بين هرتزل وجوزيف تشمبرلن، وزير المستعمرات البريطاني، «الرجل الوحيد الذي كان باستطاعته مساعدته في توطين اليهود في إحدى الممتلكات البريطانية»[52] وقد دار البحث في الاجتماع حول المخططات الصهيونية فيما يتعلق بقبرص والعريش وشبه جزيرة سيناء، وقد أبدى تشمبرلن موافقته المبدئية على فكرة إنشاء «مستعمرة يهودية» تتمتع بحكم ذاتي إما في قبرص وإما في سيناء. وبالنسبة لقبرص بالذات أبدى تشمبرلن تخوفه من نتائج معارضة السكان القبارصة للمشروع الصهيوني، لا سيما أن غالبية السكان من اليونان المسيحيين الذين ستتبنى قضيتهم لا محالة كل من اليونان وروسيا وستثيران مشاكل كبيرة لبريطانيا يصعب عليها مواجهتها بسهولة. وقد ألمح تشمبرلن أيضا إلى أن حكومته المحافظة لا تستطيع إحلال اليهود محل سكان مسيحيين لهم ارتباطات وثيقة بالعالم الأوروبي. ولذا فقد اقترح عليه تحديد «بقعة أخرى من الممتلكات البريطانية لا يوجد بها سكان مسيحيون بيض، فعندئذ يمكن التحدث بشأنها».[53] غير أن هرتزل استعمل خطة أخرى لإقناع تشمبرلن بالتخلي عن مخاوفه تجاه الوجود اليهودي في قبرص. وقد وصف هرتزل هذه الخطة في مذكراته بقوله: «.... نعمل على تكوين شركة يهودية برأسمال قدره خمسة ملايين جنيه لبناء مستوطنات

في منطقة سيناء والعريش... وعند ذلك سيرغب القبارصة في هطول المطر الذهبي على جزيرتهم أيضا. المسلمون نضطرهم للرحيل، أما اليونان فسيبيعون أراضيهم بسعر مناسب ويهاجرون إلى أثينا أو كريت». [54] ويقول هرتزل إنه اقترح على تشمبرلن إخفاء أي اتفاق يتم بينهما حول قبرص خوفا من أية ردود فعل سلبية قد تنشأ، «فليس كل شيء في السياسة يذاع حقا على الملأ... النتائج فقط... أو أي شيء يحدث وتكون ثمة فائدة في إذاعته» وأضاف هرتزل قائلا: «أكثر فصول المسرحية إثارة تلك التي تدور وراء الكواليس». [55] ويبدو أن تشمبرلن وافق على خطة هرتزل بالنسبة لقبرص ولكنه اشترط التركيز على بناء المستوطنات اليهودية في العريش وسيناء أولا حتى إذا ما نجحت هذه التجربة وأبدى السكان القبارصة اليونان استعدادا لبيع أراضيهم فإن الحكومة البريطانية لن تمانع في انتقال المستوطنين اليهود من العريش وسيناء إلى قبرص.

ولدى تسرب أنباء المقابلة بين تشمبرلن وهرتزل تحمس تريتش من جديد وأخذ في مطلع عام 1903 يقوم باتصالات مع المندوب البريطاني السامي في قبرص في محاولة منه لإقناعه بالسماح الفوري للمستوطنين اليهود بالتوجه إلى قبرص، ولكن المسؤولين البريطانيين آثروا على ما يبدو أن يكون اتصالهم مع تيودور هرتزل دون غيره. والرد الوحيد الذي حصل عليه تريتش هو موافقة المندوب السامي البريطاني على السماح لليهود بشراء عدد محدود من الدونمات على أن يتم ذلك بشكل فردي لا جماعي. [56] وهكذا أيقن تريتش أن لا جدوى من متابعة مشروع قبرص فأخذ يوجه مساعيه لدعم هرتزل في العمل من أجل إنشاء مستوطنات يهودية في منطقة العريش وسيناء.

مشروع الاستيطان اليهودي في العريش وسيناء:

أثير موضوع الاستيطان اليهودي في منطقة العريش وسيناء أثناء المقابلة التي تقدم ذكرها بين تشمبرلن وهرتزل. وقد اتفق على اختيار منطقة العريش الساحلية في المرحلة الأولى ليقيم اليهود فيها نواة لدولة تتمتع بالحكم الذاتي تحت الإشراف البريطاني. وكان للحجج التي أبداها هرتزل أكبر الأثر في إقناع تشمبرلن بفائدة هذا المشروع الذي رأى فيه «..... . أداة

نافعة لمد النفوذ البريطاني إلى فلسطين عندما يحين الوقت الملائم لتجزئة الإمبراطورية العثمانية». [57] كما أن زرع كيان عميل لبريطانيا في قلب الوطن العربي يضمن عزل مصر عن المشرق العربي ويحول دون قيام محاولات وحدوية كتلك التي قام بها محمد علي في القرن الماضي. وبالإضافة إلى ذلك فإن مثل هذا الكيان يضمن حماية الجانب الشرقي لقناة السويس من أي خطر يتهدده لا سيما أن النفوذ الألماني المناوئ لبريطانيا بدأ يتزايد ويتغلغل في الدولة العثمانية.

وفي أعقاب مقابلته مع تشمبرلن، قام هرتزل بتقديم مذكرة إلى وزير الخارجية البريطاني اللورد لانسداون Lord Lansdowne شارحا فيها خطته ومبديا مدى الفائدة التي تعود على المصالح البريطانية من وراء «.... كسب ولاء عشرة ملايين يهودي ليعملوا في سبيل عظمة ونفوذ بريطانيا... فاليهود منتشرون في شتى الدول فمنهم من يعمل في بيع الإبر والخيطان في قرى الشرق الصغيرة، ومنهم تجار كبار وصناعيون وسماسرة بورصات وعلماء وأدباء وصحفيون وفنانون في بلاد الغرب... هؤلاء جميعا سيكونون رهن إشارة بريطانيا يضحون من أجلها لكي تظل دولة عظمى على الصعيدين السياسي والاقتصادي...» [58] وقد أبدى اللورد لانسداون تأييده لمشروع الاستيطان اليهودي في العريش وسيناء ووعد بالاتصال باللورد كرومر في القاهرة بخصوص تسهيل مهمة أي مبعوث ترسله «المنظمة الصهيونية للقيام بدراسات استطلاعية حول هذا الموضوع». [59]

وفي مطلع نوفمبر عام 1902 قررت المنظمة الصهيونية إرسال ليوبولد غرينبرغ إلى القاهرة بعد أن أوصاه هرتزل بالبقاء فيها حتى يتسنى له الحصول على براءة استيطان واستعمار موقعة من الحكومة المصرية. ولدى وصوله إلى القاهرة قابل هذا المبعوث الصهيوني اللورد كرومر وعددا من المسؤولين المصريين، وأرسل في أعقاب ذلك تقريرا أوليا إلى هرتزل كان في مجمله تقريرا مشجعا بالرغم من أنه أشار إلى معارضة ممثل السلطان العثماني في مصر لأية محاولة استيطانية على غرار تلك التي حدثت سابقا في مدين. [60] وقد كشف التقرير النقاب عن رأي كرومر بإمكانية تنفيذ المشروع شريطة قيام عدد من الخبراء المختصين بدراسة طبيعة المنطقة المقترحة لتوطين اليهود، قبل البت بالأمر نهائيا. وفي منتصف

يناير عام 1903 سارع هرتزل إلى تأليف لجنة من الخبراء برئاسة المهندس ليوبولد كسلر[61] Leopold Kessler وضمت في عضويتها[62] الكولونيل غولد سميد الذي نيطت به مهمة الاتصال باليهود المصريين والعمل على كسب دعمهم وتأييدهم للمشروع. وقد حدد هرتزل مهمة اللجنة بدراسة إمكانية الاستيطان في «القسم الشمالي من شبه جزيرة سيناء والبحث في الوسائل والإمكانات التي تسمح باستعمار الأرياف والمدن في المنطقة الواقعة على البحر المتوسط بين قناة السويس والحدود التركية على الساحل» بالإضافة إلى البحث في أفضل السبل لري الصحراء ودراسة إمكانية ضخ مياه النيل إليها عبر قناة السويس أو تحتها وتقدير مدى تكلفة هذا المشروع. وقد أوصاهم هرتزل باللجوء إلى الكتمان في عملهم عدم نشر أي خبر يتعلق بالمهام المنوطة بهم خوفا من أية ردود فعل مصرية أو عثمانية من الممكن أن تعوق سير العملية. [63] ومما يسترعي الانتباه في هذا الصدد أن هرتزل أصدر تعليماته لرئيس اللجنة بمحاولة تضليل المسؤولين البريطانيين بخصوص المساحة التي يريدون الاستيطان فيها، والتوجه جنوب العقبة للقيام بمزيد من الدراسات لاكتشاف طبيعة الأرض هناك. [64] وهذه الأرض هي أرض مدين نفسها التي تقدم ذكرها سابقا. وقد أثار اهتمام هرتزل بمسح هذه المنطقة ثانية، بالرغم مما يحيط بهذه العملية من صعاب جمة، تكهنات كثيرة أهمها أن هرتزل كان يريد التأكد من صحة ما توصل إليه فريدمان في كراسه بأن هذه المنطقة غنية جدا بثرواتها المعدنية.

وعلى أية حال فقد غادرت اللجنة مدينة «تريستا» متوجهة إلى العريش في مطلع فبراير عام 1903، وبقيت هناك حتى منتصف أبريل من نفس العام. وقد قدم كرومر كل التسهيلات الممكنة لأعضاء اللجنة لدراسة مدى إمكانية نجاح المشروع من الوجهة الفنية. غير أن المشروع بدأت تعترضه مصاعب رئيسية نتيجة لاستمرار معارضة الدولة العثمانية له، حيث اعتبرته تهديدا مباشرا لممتلكاتها في فلسطين والحجاز. كما أن الحركة الوطنية المصرية التي كانت تعارض الوجود البريطاني في مصر لم تكن لترضى بأي حال من الأحوال عن وجود استعمار ثان يتخذ من العريش وسيناء منطلقا له. وبالإضافة إلى ذلك فإن كرومر نفسه فقد حماسه للمشروع وأخذ يبدي تحفظات حول فكرة ري صحراء سيناء بمياه النيل واعتبر هذه الفكرة

مستحيلة التنفيذ. وقد أصدر بطرس غالي وزير خارجية مصر آنذاك بيانا أعلن فيه رفض حكومته الصريح للمشروع قائلا: «إن الخديوي لا يمكنه تحت أي مبررات وضغوط التخلي كليا أو جزئيا عن أي من الحقوق الخاصة بالسيادة المصرية. ولهذا فإن فكرة الاتفاق يجب أن تستبعد رسميا»[65] وقد أبدت الحكومة المصرية على لسان وزير خارجيتها عدم معارضتها لقدوم عدد من المهاجرين اليهود إلى مصر واستعدادها لمنحهم امتيازات خاصة بالضرائب والأراضي شريطة أن يصبحوا من رعايا الدولة المحليين.

إزاء هذه الأنباء غير المشجعة بادر هرتزل فورا بالسفر إلى مصر في أواخر مارس عام 1903 واجتمع بكرومر مرتين لاستطلاع حقيقة موقفه وموقف الحكومة المصرية من المشروع، وكان واضحا أن ردود فعل كرومر كانت «فاترة» وغير مشجعة. وبالرغم من أن كرومر عرض على هرتزل إعطاء اليهود قطعا من الأراضي هنا وهناك إلا أنه أبدى استحالة إعطائهم أرضا متصلة بالشكل الذي توقعه الصهيونيون بادئ الأمر.[66] وقد أوضح كرومر بأن هذا هو أقصى ما يمكن لليهود الحصول عليه في «الوقت الحاضر».

وفي أثناء وجوده في مصر اطلع هرتزل على مسودة النتائج التي توصلت إليها اللجنة وكان مما ورد فيها «... إن المنطقة بوضعها الحالي غير ملائمة إطلاقا لسكنى مستوطنين من الدول الأوروبية» وبضغط من الأعضاء الصهاينة على ما يبدو، وافقت اللجنة على إضافة التكملة التالية: «... غير أن هذه المنطقة الصحراوية لو توفرت فيها المياه الكافية، فشروط التربة والمناخ فيها يمكنها من استيعاب عدد لا بأس به من السكان...»[67] وقد استغل هرتزل هذه الإضافة لإقناع المسؤولين البريطانيين، بإمكانية جر جزء من مياه النيل لري المنطقة ولكن التقديرات المذهلة لكمية المياه التي تحتاجها سيناء والبالغة خمسة أضعاف التقديرات الأولية، بالإضافة إلى عدم استعداد البريطانيين لإغلاق قناة السويس فترة طويلة ليتسنى جر الجزء المطلوب من مياه النيل تحتها، كل هذا أدى إلى مزيد من التردد والفتور لدى الجانب البريطاني حول إمكانية تنفيذ هذا المشروع.

قام هرتزل أثناء وجوده في مصر بالاتصال ببعض زعماء الحركة الوطنية فيها،[68] بغية كسب ودعم وتأييدهم عن طريق كيل الوعود لهم بالمساعدات

المالية في أعقاب تأسيس دولة يهودية في المنطقة. ولكن هرتزل فشل في مسعاه الذي جلب عليه بالإضافة إلى ذلك استياء كل من كرومر وأعضاء الحكومة المصرية، فلم يجد مفرا من مغادرة مصر قبل أن يعد الخبراء تقريرهم النهائي. ولم يكن هرتزل راضيا عن حصيلة زيارته لمصر ودون في مذكراته انطباعات غير إيجابية عن كرومر. (69)

وفي السادس من مايو عام 1903 تلقى هرتزل برقية من غولد سميد، يخبره فيها رفض كرومر والحكومة المصرية للمشروع، بحجة تعذر تأمين كمية المياه اللازمة للمشروع التي قدرها غاستون خبير الري في مصر«بخمسة أضعاف كمية المياه التي ذكرها ستيفنس أضف إلى ذلك أن نصب المضخات على القناة يقتضي إيقاف سير السفن فيها عدة أسابيع». (70) وفي الحادي عشر من مايو من نفس العام دون هرتزل في مذكراته ما يلي: «نقل اللورد كرومر إلى غولد سميد معارضة الحكومة المصرية النهائية لمشروع سيناء. ويبدو أنه ليس بمقدور إنسان ولا حتى تشمبرلن أن يفعل شيئا الآن... لقد انتهى كل شيء..» (71) وفي نفس الفترة كتب كرومر إلى كل من لانسداون وتشمبرلن يقول: «توصلت الآن إلى قناعة بأنه يتحتم علينا التخلي عن المشروع نهائيا. لقد توصل عدد من الباحثين الإنجليز والمصريين إلى نتيجة مفادها أن المشروع غير عملي ولذا فليس هناك أي مبرر لتنفيذ مشروع فاشل من جهة وعالي النفقات من جهة أخرى. وقد أوضح عدد من الساسة المصريين بأن إنشاء مراكز تجمع يهودية ذات مطامح سياسية يتعارض مع المصالح العليا للباب العالي الذي كان لا يزال يتمتع بحق السيادة على مصر. وبالإضافة إلى ذلك فإن تنفيذ هذا المشروع يضاعف المصاعب المادية التي تواجهها مصر ولا يمكن التكهن بما سيتمخض عن ذلك من نتائج.» (72)

وقد أشار حاييم وايزمن الزعيم الصهيوني المعروف إلى أن مسؤولية فشل المشروع، تقع على كاهل هرتزل وأعضاء البعثة الصهيونية الذين كانوا يرفضون كل مشروع لا يضمن القيام باستيطان على نطاق واسع. «لم توافق البعثة على اختيار المنطقة الساحلية الضيقة المجاورة للعريش، بالرغم من قناعتها بتوفر مياه جوفية فيها.. لقد تهاوى المشروع بأكمله دون دراسة أوضاع المنطقة المحدودة الملائمة للاستيطان... إن المنطق كان يقضي بتبني

المشروع لتثبت أقدام الصهيونية في هذه المنطقة الهامة المتصلة بفلسطين جغرافيا، والتي كان بإمكانها توفير المجال للصهاينة من مد نشاطهم الاستيطاني مع الزمن..»[73]

لعل التفسير الحقيقي للتحول المفاجئ في موقف البريطانيين تجاه هذا المشروع كان يكمن في تخوفهم من قيام ثورة عارمة ضدهم في مصر. فقد ثبت أن المشروع بحاجة إلى مقادير هائلة من مياه النيل التي هي للفلاح المصري بمثابة شريان الحياة الرئيسي لا يقبل بأي حال من الأحوال التخلي عن قطرة منها. لقد حاول فرديناند دلسبس قبل حوالي نصف قرن الحصول على امتياز لتنمية واستصلاح المناطق المحيطة بالقناة عن طريق استغلال مياه نهر النيل لتحقيق هذا الغرض، ولكن الخديوي إسماعيل أحس بخطورة الموقف على الصعيد الداخلي فلم يستطع إجابة دلسبس إلى طلبه. وقد وعى البريطانيون هذه السابقة وآثروا التخلي عن المشروع قبل فوات الأوان.

وبالرغم من فشل هذا المشروع، [74] فإن الحكومة البريطانية لم تتخل عن الحركة الصهيونية وظلت تعتبرها أداة هامة لخدمة مصالحها في منطقة الشرق العربي وأفريقيا وسرعان ما قدمت لها خطة استيطان جديدة في شرق أفريقيا.

مشروع المستعمرة اليهودية في يوغنده:

لم يكن فشل مشروع العريش وسيناء نهاية المطاف بالنسبة لمشاريع الاستيطان اليهودي. فبمجرد ما اتضح عدم إمكانية تنفيذ هذا المشروع سارعت بريطانيا إلى تقديم مشروع آخر لتوطين اليهود في يوغنده. ففي الثالث والعشرين من أبريل عام 1903 حظي هرتزل بمقابلة تشمبرلن الذي كان عائدا لتوه من رحلة إلى جنوب أفريقيا مرورا بمصر وشرق أفريقيا، وحسب ما دونه هرتزل في مذكراته عقب المقابلة فإن تشمبرلن قال له: «لقد وجدت أثناء رحلاتي قطعة أرض مناسبة لك في يوغنده. إنها حارة عند الساحل ولكن المناخ يصبح ممتازا في الداخل حتى بالنسبة للأوروبيين. ويمكنكم أن تزرعوا فيها القطن والسكر. وقد قلت لنفسي بمجرد أن وقعت عيناي عليها: هذه أرض مناسبة للدكتور هرتزل». [75]

غير أن الأرض التي كان يفكر فيها تشمبرلن لم تكن في الواقع جزءا من

يوغنده، وإنما كانت هضبة غوس نغيشو Guus Ngishu، الواقعة ضمن المرتفعات الغربية (البيضاء) لكينيا، والممتدة من الساحل الجنوبي لبحيرة رودلف حتى حدود تنزانيا الحالية وتبلغ مساحتها حوالي 6,9 آلاف كيلو متر مربع. وقد ظل المشروع يعرف خطأً حق الآن بمشروع يوغنده.[76]

أما تفسير هذا الاهتمام البريطاني المتزايد بإيجاد رقعة أرض يستوطنها اليهود فمرده إلى التخوف من نتائج التدفق المستمر ليهود أوروبا الشرقية عبر القنال الإنجليزي. وقد اضطرت الحكومة البريطانية إلى إصدار تشريع «لائحة الأجانب»، التي استهدفت منع المهاجرين اليهود من دخول الجزر البريطانية. وفي المقابل فإنها وجدت في توجيه هذه الهجرات إلى مكان مناسب ضمن ممتلكاتها الإمبراطورية خدمة كبرى لمصالحها الاستعمارية. إن باستطاعة هؤلاء المستوطنين اليهود القيام بنفس الدور الذي قام به المستوطنون الأوروبيون في جنوب أفريقيا، بهدف تثبيت دعائم السيطرة البريطانية في منطقة شرق أفريقيا، وخاصة أن المنطقة كانت تعج بالثورات الداخلية في يوغندا وكينيا والسودان، بالإضافة إلى بروز المنافسة الألمانية والإيطالية في المنطقة. وقد تزايدت أهمية هذه المنطقة بالنسبة لبريطانيا في أعقاب بناء الخط الحديدي الذي أوشك على الاكتمال والذي يربط الساحل الأفريقي الشرقي ببحيرة فكتوريا في قلب أفريقيا، وقد بلغ طوله 584 ميلا وتكلف حوالي خمسة ملايين جنيه. وقد أدى بناء هذا الخط إلى زيادة حركة الشحن نحو الجنوب إلى أربعة أضعاف وبات من الضروري جلب المزيد من المستوطنين لتوفير الحماية اللازمة لهذا المرفق الحيوي.[77]

أما بالنسبة لهرتزل ومؤيديه فإنهم استخدموا مجموعة من الأسباب لتبرير موافقتهم على مشروع يوغنده. فيوغنده يمكن استخدامها كملجأ ليلي Nachtsyl يتجمع فيه ما لا يقل عن مليون يهودي من شتى أرجاء العالم، يتدربون على الأعمال السياسية والعسكرية ثم ينزحون ثانية إلى فلسطين حينما تتهيأ الفرصة لذلك. وأشار هرتزل إلى أن مشروع يوغنده لم يكن سوى مناورة سياسية ودبلوماسية للضغط على الدولة العثمانية، كي تفتح لليهود أبواب فلسطين قبل انصرافهم عنها نهائيا إلى يوغنده. وقد أرسل هرتزل بالفعل مجموعة من الرسائل إلى السلطان العثماني وعدد من مستشاريه بخصوص هذا الموضوع. ويعتقد البعض أن إرسال هذه الرسائل

بالرغم من إدراك هرتزل عدم جدواها لم يكن في حقيقته سوى محاولة تهدئة لجماعة أحباء صهيون، الذين كانوا يتشبثون بفلسطين وإقناعهم بأن الظروف لم تكن مواتية لاستيطان فلسطين، وبالتالي فلا بد لهم من قبول مشروع يوغنده كمحطة مؤقتة على الطريق إلى «صهيون»[78] وتشير بعض الآراء إلى أن الهدف من محاولة الاستيطان في هذه المنطقة هو العمل على التحكم في منابع نهر النيل واستغلالها كوسيلة ضغط على جميع الأطراف التي سبق أن عارضت محاولة الاستيطان اليهودي في منطقة العريش وسيناء وإرغامها على التخلي عن معارضتها.

وهناك دلائل كثيرة في كتابات هرتزل تشير إلى أنه أخذ يفكر في يوغنده كمنطقة استيطان دائم لليهود وليس كمجرد «ملجأ ليلي». لقد تصور هرتزل أن قلة السكان في شرق أفريقيا ستكون أقل تهديدا لعملية الاستيطان من منطقة كثيفة بالسكان يمكن أن تشكل تهديدا كبيرا لمستقبل الاستيطان فيها. واتخذ هرتزل من مشروع سيسيل رودس الاستعماري في منطقة جنوب أفريقيا، التي كانت تماثل في قلة كثافتها السكانية منطقة شرق أفريقيا، نموذجا سعى جاهدا للاقتداء به. ومما يسترعي الانتباه في هذه الفترة لجوء مؤيدي هرتزل إلى المناداة بالتخلي عن فكرة الاستيطان في فلسطين (دون التخلي عن حق اليهود في الأماكن المقدسة) خوفا من وقوع المستوطنين في منطقة منعزلة يحيط بها بحر من الأعداء.[79] وقد اتهم هرتزل نفسه أثناء المؤتمر الصهيوني السادس عام 1903 بتخليه عن فلسطين واتفاقه أثناء زيارته لروسيا مع وزير داخليتها فون بليهفيه على تهجير أعداد كبيرة من اليهود خارج روسيا توطئة لإرسالهم إلى «فلسطين الأفريقية» (يوغنده) وخاصة أن أبواب الدول الأخرى قد تم إيصادها في وجههم.[80]

ومن الملاحظ أن آراء هرتزل التي تضمنها كراسه «الدولة اليهودية» تدل على أنه لم يتقيد ببقعة معينة لإقامة دولته المقترحة عليها. وقد أبدى في أواخر أيامه حماسا فاترا لفكرة الدولة اليهودية في فلسطين لما يمكن أن تثيره هذه البقعة التاريخية من رغبة لدى المستوطنين اليهود في «إعادة» صورة الحياة اليهودية القديمة وعدم ممارسة الحياة العلمانية الحديثة، التي كان من الممكن أن يوفرها لهم الاستيطان في منطقة شرق أفريقيا.

ومما جعل هرتزل أكثر تشبثا بمشروع يوغنده أزمته الصحية التي بدأت تستفحل في هذه الفترة. فالرؤية التي ملكت عليه تفكيره طيلة حياته بكونه «الملك اليهودي الذي يسير على رأس قافلة اليهود في وطنهم القومي»[(81)]، باتت تترنح نتيجة اشتداد المرض عليه الذي أودى بحياته بعد ذلك بشهور قلائل. لقد أصبح هرتزل في نهاية حياته عصبي المزاج متوتر الأعصاب يريد تحقيق حلمه بأي شكل كان، وهذا ما يحدث لكثير من ساسة العالم حين يتصورون أن القدر قد اختار لهم مهمات عظيمة لتأديتها وسرعان ما يتحول هذا التصور إلى أزمات عنيفة في سلوك هؤلاء الساسة لدى إحساسهم بدنو أجلهم دون تحقيق تلك المهمات، فتتخذ قراراتهم صفة التهور والاندفاع وعدم الاتزان.

كان مشروع يوغنده في مقدمة جدول أعمال المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقد عام 1903 [(82)] وقد أعلن هرتزل أمام وفود المؤتمر أن الحكومة البريطانية قررت وضع جزء من «شرق أفريقيا البريطانية» تحت تصرف المنظمة الصهيونية بهدف تنفيذ مشروع استيطاني يهودي فيها. واقترح هرتزل إرسال لجنة صهيونية لدراسة إمكانيات الاستيطان في هذه المنطقة، وفي حالة توصل اللجنة إلى نتائج إيجابية تتفق ومخططات الحكومة البريطانية فإن المنظمة بوسعها إنشاء مستعمرة لها في شرق أفريقيا، تتمتع بحكم ذاتي مع إدارة يهودية وحكومة محلية يهودية ومندوب سام يهودي على أن تخضع للسيادة البريطانية العليا. [(83)] وقد أكد هرتزل لمستمعيه أن هذا المشروع «سيساهم بالتأكيد في حل الضائقة اليهودية دون أن تتنازل الحركة الصهيونية عن شيء من مبادئها الأساسية». [(84)]

ولدى طرح المشروع لأول وهلة، هلل غالبية المجتمعين «وصفقوا بحماس منقطع النظير» وبدا كأن الأمور تسير بشكل طبيعي دون حدوث ما يعكر صفوها. ولكن مناخ المؤتمر سرعان ما بدأ يتغير حين طرح موضوع إنشاء لجنة الدراسة، وتحديد مسؤولياتها، وبدأ النقاش يحتد وأخذت أصوات المعارضة ترتفع، وانقسم المؤتمرون فيما بينهم، بين مؤيد للفكرة ومعارض لها. فقد رأى المؤيدون أن هذا المشروع يحمل في طياته اعتراف الدولة العظمى في العالم «بالشعب اليهودي» وبالمنظمة الصهيونية ممثلا لهذا الشعب، بينما رأى المعارضون أن المشروع يعتبر خيانة كبرى لأماني وتطلعات

«الشعب اليهودي»، ورفضوا الموافقة على فكرة إرسال لجنة لدراسة المنطقة. ولدى التصويت في النهاية على مشروع إرسال اللجنة قرر المؤتمر قبوله بأكثرية 295 صوتا ضد 178 صوتا وامتناع 100 عضو عن التصويت.

وما إن أعلنت نتيجة التصويت حتى انسحب المعارضون من قاعة المؤتمر وهددوا بالانشقاق عن المنظمة الصهيونية. غير أن هرتزل حال دون الانقسام النهائي حينما علن أنه لن يوافق على الاستيطان في يوغنده قبل أن يحصل على موافقة مؤتمر صهيوني يعقد خصيصا لهذه الغاية، وأن كل ما قصده من اقتراحه هو مجرد إرسال لجنة استقصاء ودراسة فقط.

لقد جاءت المعارضة الحقيقية للمشروع من ممثلي يهود روسيا الذين اتهمتهم بعض الأوساط الصهيونية بعدم التعبير بصدق عن آراء ناخبيهم، «فالرأي في روسيا رأي مؤيد للمشروع». [85] وقد أشار هرتزل إلى هذا الموضوع بقوله: «لقد افترض زعماء يهود روسيا وأوروبا الشرقية خطأ أن ناخبيهم من الجماهير اليهودية متفانون في سبيل فلسطين وحدها.... وقد تصوروا أنهم بمعارضتهم هذا المشروع يرضون ناخبيهم». [86] ولعل السبب الحقيقي في معارضة اليهود الروس لهذا المشروع يعود إلى تخوفهم من التهديدات المتكررة العنيفة التي تلقوها من «جماعة أحباء صهيون» التي كانت لا تزال متشبثة بفلسطين دون غيرها. ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن غالبية اليهود القاطنين في فلسطين كانوا يحبذون مشروع يوغنده ويعارضون إنشاء دولة يهودية في فلسطين. [87]

لم يمض وقت طويل حتى تسربت أنباء مشروع يوغنده إلى المستعمرين الانجلو سكسون الذين كانوا قد استقروا في منطقة شرق أفريقيا منذ أواخر القرن الماضي، فأثاروا موجة ساخطة من الاحتجاج والاستنكار ضد حكومتهم لتبنيها مثل هذا المشروع. وقد نشرت صحيفة التايمز اللندنية في 28 آب عام 1903 نص برقية من اللورد ديلامير في يوغنده إلى وزارة الخارجية البريطانية تضمنت ما يلي: «التهبت المشاعر هنا ضد مشروع توطين اليهود الغرباء في المناطق المجاورة لخط سكة الحديد، والتي تعتبر منطقة مناسبة لاستيطان بريطاني على امتداد 260 ميلا. إن وزارة الخارجية تفاوض أجانب غرباء لمنحهم افضل 200 ميل. لهذا الهدف أنشئت السكة الباهظة الثمن وأنفقت المبالغ الجسيمة على البلد ؟ إن قدوم مثل هؤلاء

المستوطنين اليهود يؤدي حتما إلى مشاكل مع المواطنين نصف المتوحشين المتمسكين بحقوقهم، ويعني مزيدا من البريطانيين للسيطرة عليهم. هل يرضي دافع الضريبة البريطانية المالك لأفريقيا الشرقية أن يمنح بلدا جميلا وثريا إلى غرباء ؟ أما عندنا مستعمرون استيطانيون من جنسنا ؟ البلاد يجري استصلاحها واستيطانها بالتدريج بواسطة مستعمرين بريطانيين. المستوطنون الإنجليز هنا يهيبون بالرأي العام ولا سيما رأي من هو على علاقة بهذه البلاد أن يقف ضد هذا التصرف اللامسؤول الذي يهدد بإغراق البلاد في العديد من المشاكل ويهدد مستقبلها الزاهر». (88)

وقد أرسلت جميع اتحادات المستعمرين في شرق أفريقيا برقيات متتالية إلى الحكومة البريطانية تهدد فيها بمقاومة المشروع بشتى الأشكال، ووجه أسقف ممباسا رسالة إلى المندوب السامي البريطاني حذر فيها من «نقل ملكية هذه الأرض إلى الطبقة الدنيا من اليهود الذين يتسببون في إلحاق الجمود بعملية تطوير الحياة المسيحية الحقيقية بين القبائل الأفريقية الوثنية». (89)

وكان من أهم المعارضين لمشروع يوغندا الرحالة المشهور هاري جونستون Harry Johnston الذي شجع اليهود على الاتجاه نحو فلسطين، لخلوها من «الجنس الانجلو سكسوني المستعمر» وبين لهم صعوبة الاستيطان في يوغندا وخاصة أن المستعمرين هناك سيقاومونهم بشدة لأنهم بذلوا جهودا مضنية في استصلاح الأرض، ولن يقبلوا مهاجرين جددا يفدون لمزاحمتهم في «مصدر رزقهم».

وقد اضطرت الحكومة البريطانية نتيجة ضغوط أرباب المصالح المالية والاستعمارية في الإمبراطورية أن تتراجع عن عرضها لليهود، وأعلنت في نهاية عام 1903 أنها لم تلتزم إزاء اليهود بأكثر من وعد بدراسة إمكانية إنشاء مستعمرة يهودية وأنها ستحتفظ لنفسها دوما بحق العودة إلى «احتلال الأراضي إذا لم تنجح مسألة الاستيطان فيها».

أما الضربة النهائية للمشروع فقد جاءت على يد لجنة الدراسة والاستقصاء التي سبق أن أرسلت إلى منطقة شرق أفريقيا فقد جاء تقريرها سلبيا وغير مشجع نظرا للجو المعادي للمشروع بين المستعمرين الأنجلو سكسون، واستعدادهم لمقاومته بشتى السبل. (90) ولم تمض شهور قلائل

على فشل مشروع يوغنده حتى لفظ هرتزل أنفاسه الأخيرة في الثالث من يوليو عام 1904، وبعد وفاته بعام اجتمع المؤتمر السابع وقرر التخلي نهائيا عن هذا المشروع.

كان هرتزل في آخر سني حياته يسعى جاهدا للحصول على «أي مكان في العالم» بغية اتخاذه موطنا لليهود سواء أكان ذلك في فلسطين أم في العريش أم في يوغنده أم في غيرها.

ففي الوقت الذي كانت قضية العريش ويوغنده تشغل اهتمام الأوساط الصهيونية كان هرتزل يقوم بمحاولات جانبية بهدف التوصل إلى أماكن استيطان أخرى. ففي مايو عام 1903 قام باتصالات مع رئيس وزراء النمسا عن طريق صديقه القس وليام هشلر بغية التوسط لدى الحكومة البرتغالية للسماح لليهود بالاستيطان في موزمبيق. وقد عقد بالفعل اجتماعا مع السفير البرتغالي في فينا، قدم هرتزل خلاله اقتراحا بإنشاء شركة يهودية استثمارية تعمل على تغطية عجز البرتغال المالي، وتلتزم بمعونة سنوية لها لقاء حصول الشركة على حق استثمار أراضي موزمبيق وتوطين أعداد من يهود أوروبا الشرقية فيها. وقد أفصح هرتزل في مذكراته عن خططه تجاه موزمبيق بقوله: «سأعمل كل ما بوسعي للحصول على هذه الأرض الخاملة من الحكومة البرتغالية التي تعاني ضائقة مالية كبيرة... إنني أرى أن الحصول على موزمبيق يهيئ لنا المجال للحصول من الحكومة البريطانية لقاء تنازلنا لها فيما بعد عن موزمبيق، على شبه جزيرة سيناء بأكملها مع مياه النيل صيفا وشتاء وربما على قبرص معها-كل هذا مقابل لا شيء»[91] غير أن الحكومة البرتغالية خشيت من مغبة التورط مع المنظمة الصهيونية التي كان واضحا مدى قوة صلتها ببريطانيا المنافسة الكبرى للبرتغال في مجال الاستعمار. ولذلك فإنها آثرت تجاهل الاقتراح الذي تقدم به هرتزل، على الأقل لفترة من الزمن.

وفي الثالث عشر من يوليو عام 1903 قام هرتزل بإجراء اتصالات سرية مع فرانتز فيليبسون[92] Frantz Philippson بهدف مساعدته لدى ملك بلجيكا من أجل إقامة دولة يهودية في الكونغو. وقد أشار هرتزل في إحدى رسائله إلى فيليبسون بأن «الكونغو تمتلك أراضي كافية نستطيع استخدامها من أجل استيطاننا ونستطيع تحمل جزء من المسؤوليات المالية كدفع جزية

سنوية إلى الحكومة البلجيكية، مقابل إعطائنا الحق في إقامة حكم ذاتي تحت إشرافها..»[93] ولكن فيليبسون رفض الموافقة على الاشتراك في هذا المشروع، بالرغم من أنه شجع هرتزل على التوجه نحو مناطق أخرى في أفريقيا، ولعل ذلك يعود إلى تخوف فيليبسون على مصالحه الاستثمارية الواسعة في الكونغو من خطر منافسة الرأسمالية اليهودية فيما لو فتحت أمامها أبواب هذه المنطقة.

ويشير أحد المصادر الأوروبية[94] إلى أن هرتزل في أوائل عام 1904 وقبيل وفاته بشهور قليلة، طرح على الحكومة البريطانية فكرة توطين اليهود في منطقة الحمام بمريوط الواقعة في صحراء مصر الغربية. غير أن هذا المصدر لا يشير إلى تفاصيل أخرى حول هذا الموضوع. وليس بمستبعد أن يكون هرتزل قد انتهز فرصة ازدياد التنافس البريطاني الفرنسي على مصر في هذه الفترة ليتقدم إلى الحكومة البريطانية بفكرة توطين اليهود في جزء من مصر للمساهمة في حماية المصالح البريطانية من خطر التهديد الفرنسي. غير أن توصل بريطانيا وفرنسا إلى عقد الوفاق الودي في ذلك العام، قد جعل عرض هرتزل-فيما لو تأكدت صحته-عديم الجدوى.

وقد حاول هرتزل أيضا خلال عامي 1903 و 1904 إقناع السلطان العثماني عن طريق مستشاره بالسماح لليهود بالاستيطان جنوب العراق، ولكن السلطان على ما يبدو رفض فكرة الاستيطان اليهودي بشكل جماعي وإن كان قد أبدى موافقته على الاستيطان اليهودي بشكل فردي وفي مناطق مختلفة داخل العراق أو خارجها شريطة أن يحصل المستوطنون اليهود على الجنسية العثمانية [95].

وفي عام 1905 كرر ديفيز تريتش محاولاته الاستيطانية بأن طلب من السلطان العثماني السماح لليهود بالاستيطان في القطاع الساحلي من أضنه، الذي يتاخم الشاطئ السوري ويضم مدن مرسين وطرسوس بالإضافة إلى المصبات الخصبة لنهري سيحان وجيحان وتبلغ مساحة المنطقة حوالي عشرة آلاف كيلو متر مربع. وحينما أبدى السلطان العثماني رفضه لهذه الفكرة انتقل تريتش إلى التفكير بجزيرة رودس التي كان يسكنها في ذلك الوقت حوالي خمسة آلاف يهودي من أصل 30 ألف نسمة مجموع سكان الجزيرة. ولعل موقع هذه الجزيرة على الطريق البحري بين أوروبا الشرقية

وفلسطين كان أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت تريتش يفكر بالحصول عليها. غير أن نصيب هذه الفكرة لم يكن أفضل من سابقتها [96].

مشروع الاستيطان اليهودي في ليبيا:

بدأت ليبيا تتعرض للأطماع الصهيونية منذ مطلع القرن العشرين. فقد كانت هي الجزء الوحيد المتبقي من التركة العثمانية في الشمال الأفريقي. فالجزائر وتونس سقطتا في يد الاستعمار الفرنسي عامي 1830 و 1881 على التوالي. ومصر وقعت تحت الاحتلال البريطاني عام 1882. أما المغرب فمع أنها كانت خارج دائرة النفوذ العثماني إلا أن فرنسا كانت تتربص بها الدوائر خاصة بعد تسوية مشاكلها مع بريطانيا عام 1904. ولم تكن ليبيا بأحسن حالا من سابقاتها. فالاستعمار الإيطالي كان ينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليها، بينما كانت بريطانيا ترقب تطورات الأمور بحذر خوفا من مغبة السيطرة الإيطالية على ليبيا، وما يمكن أن يسببه هذا من تهديد للوجود البريطاني في مصر.

تعود المحاولات الصهيونية لاستيطان ليبيا إلى مطلع عام 1904 حين اكتشف هرتزل ما كانت تبيته إيطاليا من نوايا استعمارية تجاه البلاد الليبية، فتقدم إلى الملك الإيطالي-كما سبق ذكره في الفصل السابق-باقتراح يرمي إلى تحويل مسار الهجرات اليهودية من أوروبا الشرقية إلى طرابلس الغرب ليستوطنها اليهود ويقيموا فيها حكما ذاتيا في ظل «القوانين والمؤسسات الليبرالية الإيطالية». وكان الرد الذي تلقاه هرتزل من الملك الإيطالي يتضمن عدم إمكانية بلاده تقديم الدعم للمنظمة الصهيونية في هذا المجال لأن «طرابلس الغرب وطن للآخرين» ولا سلطان لإيطاليا عليها [97]. ويبدو أن الملك الإيطالي آثر عدم تقديم أي تعهد ملزم للمنظمة الصهيونية خوفا من افتضاح نوايا إيطاليا الاستعمارية تجاه ليبيا وما يمكن أن يسببه هذا من مشاكل في علاقاتها مع الدول الأوروبية الأخرى وخاصة بريطانيا وفرنسا بالإضافة إلى الدولة العثمانية.

تجددت المحاولات الاستيطانية في ليبيا في أعقاب وفاة هرتزل، بإشراف المنظمة الصهيونية الإقليمية [98] التي كان يتولى رئاستها إسرائيل زانغويل[99] Israel Zangwill. كان الهدف الذي تسعى هذه المنظمة لتحقيقه هو إيجاد

بقعة استيطان مناسبة ليهود أوروبا الشرقية يتوفر فيها المناخ الملائم والتربة الصالحة للزراعة وأن تكون منطقة ساحلية واقعة بمحاذاة البحر. وإذا ما تم تأمين هذه البقعة الاستيطانية، فعلى المستوطنين اليهود العمل من أجل إقامة حكم ذاتي في ظل الدولة المسيطرة عليها. وقد دعت المنظمة إلى ضرورة صهر المستوطنين اليهود في بوتقة واحدة بحيث يتم القضاء على أية فروق أو خلافات بينهم من الممكن أن تؤثر على مجرى العمل الاستيطاني. كما دعت المنظمة أيضا إلى ضرورة إقامة صلات وثيقة مع الحكومات الأوروبية عل اختلاف أنواعها ومع شتى المؤسسات العامة والخاصة سواء أكانت يهودية أم غير يهودية بغية تأمين مصادر تمويل كافية تضمن الإنفاق عل عملية الاستيطان [100].

بدأ اهتمام المنظمة الصهيونية الإقليمية بموضوع الاستيطان في ليبيا في أعقاب زيارة ناحوم سلوش [101] Nahum Slouschhz لطرابلس الغرب في يوليو عام 1906 حيث قدم تقريرا إلى زانغويل تضمن انطباعاته الإيجابية عن تلك الزيارة واستعداد السلطات العثمانية هناك لقبول فكرة إنشاء مستوطنات يهودية في منطقة الجبل الأخضر بولاية برقة.. وقد أوعزت الحكومة البريطانية إلى قنصلها العام في مدينة تونس السير هارى جونستون بأن يقترح على[102] زانغويل فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في منطقة الجبل الأخضر وإرسال بعثة لدراسة أحوال المنطقة مؤكدا له استعداد والي ليبيا العثماني رجب باشا (1904-1909) لتقديم جميع التسهيلات الممكنة لأفراد هذه البعثة[103].

قام زانغويل وأعضاء منظمته بدراسة تقرير سلوش واقتراح جونستون ووجدوا في الجبل الأخضر مكانا يصلح للاستيطان اليهودي، واتفقوا على إرسال بعثة خاصة من الخبراء الصهيونيين لدراسة أحوال المنطقة. وقد أعلن زانغويل منذ البداية أن ولاية برقة تتمتع بمزايا ومواصفات تتفق وأهداف منظمته. فالمنطقة تقع على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط مما يسهل عملية جلب المهاجرين اليهود إليها من روسيا ورمانيا. كما أن قرب برقة من فلسطين أدى إلى تصور الكثيرين من اليهود أن بمقدورهم الانتقال منها في مرحلة لاحقة إلى «أرض الميعاد» وبالإضافة إلى ذلك فإن برقة تتمتع بمكانة خاصة من التراث اليهودي القديم حيث كانت المنطقة مأوى

لعدد كبير من اليهود منذ أيام الإسكندر المقدوني والبطالمة. وبالتالي فهي بالنسبة للكثير من اليهود أوثق اتصالا بالتاريخ اليهودي من قبرص أو يوغندة أو غيرهما من البلدان التي اقترحت للاستيطان اليهودي. ونظرا لقلة السكان الأصليين في برقة فقد رأى زانغويل أنه من السهل تحقيق غلبة النفوذ اليهودي وضمان تفوقه العددي عن طريق جلب أعداد كبيرة من اليهود إلى برقة، ودفع السكان الأصليين للهجرة باتجاه الصحراء. ومما ساعد على نمو الأطماع الصهيونية في ليبيا ازدياد خطر الغزو الإيطالي المسلح وتشجيع بريطانيا للوالي العثماني رجب باشا بالسماح لليهود بالتغلغل الاقتصادي والاستيطاني في ليبيا، لإيجاد قوة تستطيع الوقوف في وجه الغزو الإيطالي. وقد أبدى رجب باشا موافقته على هذه الفكرة وخاصة أن الأوضاع الاقتصادية في ليبيا كانت سيئة، ورأى في النشاط الاقتصادي اليهودي وسيلة لتحسين هذه الأوضاع [104].

وهناك وثيقة في دار المحفوظات التاريخية بطرابلس الغرب وهي عبارة عن رسالة كتبت أصلا باللغة التركية خالية من التوقيع ومن اسم الشخص المرسلة إليه، وقد ترجمت هذه الوثيقة إلى اللغة العربية ونشرت في جريدة طرابلس الغرب في عددها الصادر بتاريخ 1962/9/26 ثم أعيد نشرها في جريدة الرائد بتاريخ 1967/8/3 ثم قامت جريدة الطليعة بنشرها مرة ثالثة في عددها الصادر بتاريخ 1969/11/18. ويعتقد أن الرسالة موجهة من ناحوم سلوش إلى يعقوب كريجر [105]، السكرتير الخاص للوالي العثماني رجب باشا. وتتضمن الوثيقة شكر وتقدير أعضاء المنظمة الصهيونية الإقليمية للتسهيلات التي قدمت «لسلوش» أثناء زيارته لليبيا عام 1906 بالإضافة إلى القرارات التسعة التالية التي تم اتخاذها على ما يبدو بمشاركة سلوش:

1- تقوم المنظمة بتأسيس بنك يهودي لشراء أراض واسعة.

2- يقبل المهاجرون اليهود الحصول على الجنسية العثمانية شريطة السماح لهم بتكوين هيئة دينية خاصة بهم ويقومون بدفع ما يتوجب عليهم من ضرائب ورسوم بشكل جماعي لا فردي وبمبلغ مقطوع يحدد فيما بعد.

3- تقوم المنظمة بتأسيس ميناء في موقع مناسب على الساحل الليبي وإنشاء سكة حديدية وتأسيس شركة للملاحة على أن ترفع جميع هذه

المؤسسات العلم العثماني ويكون هدفها رفع شأن الدولة العثمانية وتنمية ثروتها.

4- التدابير التي تتخذها المنظمة لإقرار أو فسخ هذه القرارات تتم بطريقة سرية ويتولى ذلك مجموعة تتكون من أربعة من أعضاء المنظمة، بالإضافة إلى رئيسها زانغويل.

5- لدى وصول هذه المجموعة إلى صقلية فإنها تقوم بإعلام «كريجر» بموعد وصولها إلى مالطا، ليقابلها هناك ويزودها بالمعلومات وكل التفصيلات اللازمة.

6- في أعقاب التفاهم مع «كريجر»، يقوم أربعة من أعضاء المنظمة بما فيهم خبير شؤون الزراعة بالتوجه إلى بنغازي وهم متنكرون ويقومون بجولة في المنطقة حتى درنة بحجة تأسيس مدارس يهودية في البلاد. ويقول صاحب الرسالة: «إذا أوجستم خيفة من افتضاح أمرنا فإننا ننزل خلسة في موقع خال ليس به أحد مرتدين الزي الوطني ولكي لا تعترضنا بعض المصاعب يجب أن يكون المسؤولون الرسميون على علم بذلك. وبإذن الله سوف تنتهي مهمتنا في ظرف عشرة أيام. إن أول ما نطلبه إعطاؤنا رخصة في الزراعة وتعمير الأراضي لأنه إذا لم يسمح لنا بالرخصة الزراعية فإن المنظمة ستدخل في مفاوضات مع كندا واستراليا في هذا الشأن. لذلك أرجو أن تشرح هذه المسالة لحضرة صاحب الدولة المشير وصاحب السعادة بكير بك، وتبين لهما الجهود التي بذلتها منذ ستة أشهر سعيا لتحقيق المشروع وعن رغبتي الأكيدة في جلب السعادة والبركة لتلك البقاع، وإن هدفي إدخال واستثمار رؤوس الأموال اليهودية في الممالك العثمانية. إننا واثقون من نجاحنا ونرجو ألا يبديا أية مصاعب. لقد أقنعت المنظمة بالفكرة، فإذا كانت الحكومة المحلية لا ترفض مشروعنا الزراعي فأعلمنا تلغرافيا. إننا متأهبون لمباشرة العمل حينما تصلنا برقيتكم».

7- لدى رجوع أعضاء المنظمة من زيارتهم لبنغازي إلى صقلية فإن زانغويل سيتوجه فورا إلى استنبول للمفاوضة هناك حول الامتيازات وتأسيس البنك والمصالح الأخرى.

8- إعلام رجب الباشا بأن المنظمة قررت باتفاق الآراء استعدادها لتقديم كل ما فيه خير وسعادة البلاد العثمانية، وتلتمس منه دراسة هذا المشروع

الحيوي الذي سوف يخلص اليهود المساكين من العذاب والمشاق التي يلاقونها.

9- تتضمن الرسالة الحث على بذل المساعي لإنجاح آمال أعضاء المنظمة الذين ينتظرون ردا عاجلا وبرقيا على هذه القرارات [106].

لعل هذه الوثيقة خير دليل على جدية المحاولات الاستيطانية الصهيونية في إقليم برقة واتخاذها نقطة انطلاق لعمليات استيطانية على نطاق واسع. وتكشف الوثيقة خطورة العمل الصهيوني الذي يتبع أسلوب التغلغل الاقتصادي تحت شعار وهمي هو المنفعة الاقتصادية المتبادلة، وتكون النتيجة وقوع ذلك البلد ضحية استعمار اقتصادي يستعبدها أيما استعباد، ولعل في هذا عظة لمن يتصور ولو لبرهة أن بإمكان بلده التعايش بسلام مع أي بلد يتبع مثل هذا الأسلوب.

وفي منتصف يوليو عام 1908 وصلت بعثة الخبراء الصهيونية مدينة طرابلس الغرب، وكان يرأسها البروفيسور جريجوري. Prof. G W. Gregory أستاذ الجيولوجيا بجامعة جلاسجو البريطانية [107]. وقد قام القنصل البريطاني العام في طرابلس جوستين الفاريز Justin Alvarez بمهمة استقبال أفراد البعثة، وتقديمهم إلى الوالي العثماني رجب باشا الذي قابلهم بمنتهى الود، وسمح لهم باصطحاب سكرتيره لتسهيل مهمتهم مع السلطات العثمانية المحلية في برقة. وأمضت البعثة مدة ثلاثة أسابيع في برقة أجرت خلالها عمليات بحث ودراسة في طبيعة المنطقة تركزت على أحوالها الزراعية ومواردها المائية وعادت في نهاية المدة إلى لندن لإعداد تقريرها عن مدى صلاحية إقليم برقة للاستيطان اليهودي.

صدر التقرير في يناير عام 1909 وأطلق عليه اسم الكتاب الأزرق. [108] وقد حوت مقدمة الكتاب التي كتبها إسرائيل زانغويل معلومات في غاية الأهمية عن الأطماع الصهيونية في ليبيا بشكل عام ومنطقة الجبل الأخضر في برقة بشكل خاص. فقد تحدثت عن المؤامرات التي حاكها الصهاينة ضد السلطان عبد الحميد لمعارضته الاستيطان اليهودي الجماعي في فلسطين وغيرها من الممتلكات العثمانية كما أشارت إلى الدور الصهيوني في ثورة جماعة الاتحاد والترقي.

وقد تضمن التقرير مجموعة من المقترحات كان أهمها:

1- العمل على خلق وضع مستقر في المنظمة عن طريق إقامة علاقات وثيقة مع الأتراك العثمانيين، ليوفروا للمستوطنات اليهودية الحماية الكافية في مراحل إنشائها الأولى، نظرا لما تكلفه عملية الحماية من نفقات باهظة. كما دعا التقرير إلى إقامة علاقات ودية مع السنوسيين لتأمين عدم مناهضتهم لمشروع الاستيطان اليهودي خاصة في مراحله المبكرة.

2- التركيز على جلب مستوطنين صغار في السن على شكل جماعات صغيرة تضم عشرة أو عشرين أسرة يهودية كل بضعة أسابيع، بحيث لا تسبب إحراجا للوالي العثماني ولا ردود فعل لدى أهل البلاد. ودعا التقرير إلى ضرورة قيام المستوطنين أنفسهم بالأعمال اللازمة لمستوطناتهم، والامتناع عن إدخال عناصر غريبة لتعمل بينهم (المقصود هنا بالطبع أهل البلاد الأصليين).

3- إن رفع شعار «الاستقلال الذاتي» أمر قد يكون في مصلحة المستوطنين في الفترة المبكرة، ولذا فإن التقرير نصح بالاكتفاء بالمطالبة بالحرية المالية والدينية «للمستوطنين اليهود».

4- الاستيطان بالمنطقة الشمالية من إقليم برقة وعلى السهل الساحلي بالذات، نظرا لسقوط أمطار كافية في فصل الشتاء ورطوبة الندى في فصل الصيف وتبلغ مساحة هذه المنطقة حوالي 6 آلاف ميل مربع.

5- تقسيم الأرض الزراعية إلى مساحات تتراوح بين 20- 30 فدانا بحيث تؤمن كل مساحة معينة احتياجات أسرة واحدة. وقد دعا التقرير إلى استخدام الطرق الزراعية المتقدمة ونظام الدورات الزراعية.

6- حماية ثروة الغابات لضمان مورد للأخشاب لاستعماله في الوقود وأغراض اقتصادية أخرى نظرا لارتفاع أسعار الفحم.

7- ضرورة بناء البيوت بشكل خاص بحيث يتيح تخزين مياه الأمطار في خزانات خاصة لاستعمال الأفراد اليومي. كما دعا التقرير إلى بناء الخزانات الكبيرة لجمع مياه الأمطار ومنعها من التسرب إلى البحر. وبالإضافة إلى ذلك فقد بين التقرير ضرورة القيام بدراسة وافية لمواقع العيون المائية للاستفادة منها والعمل على حفر الآبار الارتوازية.

8- ضرورة شراء العيون المائية الموجودة بحوزة أهل البلاد وهذا يحقق للمستوطنين هدفين: الأول الاستفادة من مياه العيون والثاني حرمان السكان

من المياه مما يضطرهم إلى الرحيل بعيدا عن مناطق الاستيطان بحثا عن مصادر مياه أخرى.

9- إنشاء وسائل مواصلات حديثة، فقد دعا التقرير إلى شق وتعبيد مجموعة من الطرق أهمها طريق يصل بين شحات وسوسة وطوله 13 ميلا وتبلغ تكاليفه حوالي 12 ألف جنيه إسترليني، وطريق آخر يصل بين طلميثة والمرج وطوله 17 ميلا وتبلغ تكاليفه حوالي 16 ألف جنيه إسترليني، كما اقترح التقرير مد سكة حديد ضيقة من سوسة إلى شحات تبلغ تكاليفها حوالي 35 ألف جنيه إسترليني، وأخرى من طليمثة إلى المرج وتبلغ تكاليفها حوالي 45 ألف جنيه إسترليني، وثالثة من المرج إلى بنغازي وتحويلها إلى ميناء صالح لاستقبال حركة المهاجرين اليهود وتوطينهم وقدرت تكاليف إصلاحها بحوالي 320 ألف إسترليني. واقترح أيضا إصلاح ميناء سوسة وقدرت تكاليف الإصلاحات بحوالي 250 ألف إسترلين.

وبالرغم من أن رئيس البعثة البروفسور جريجوري عبر في رسالة إلى زانغويل عن شكوكه في نجاح المشروع نظرا لعدم انتظام سقوط الأمطار في المنطقة مما يعرقل قيام حياة زراعية ناجحة لا سيما أن حفر الآبار وتطبيق وسائل الزراعة الحديثة تكلف مبالغ باهظة. وبالرغم من كل ذلك فإن زانغويل وأعضاء منظمته لم تهن عزيمتهم وظلوا مصممين على تنفيذ المشروع. غير أن وفاة رجب باشا [(109)] وانشغال الاتحاديين بالمشاكل الداخلية الحادة، جعل أمر الدعم العثماني للاستيطان اليهودي في ليبيا أمرا غير ذي بال. ومما زاد الموضوع تعقيدا تصاعد الأطماع الإيطالية التي انتهت بغزو ليبيا واحتلالها عام ١٩١١ رغم احتجاجات بريطانيا والصهاينة. وقبل أن يتاح المجال لمعالجة الموقف كان العالم برمته يندفع في غمار الحرب العالمية الكبرى.وهكذا قضي على مشروع إنشاء الوطن المجودي في ليبيا وإن بقيت الفكرة تختمر في ذهن البعض من الصهاينة تنطلق متى يلوح لها المجال [(١١٠)].

ولدى وقوع ليبيا في قبضة الاستعمار الإيطالي لجأت المنظمة الصهيونية الإقليمية إلى البحث عن مناطق جديدة للاستيطان اليهودي. وقد نجح زانغويل في إقناع الحكومة البرتغالية بفكرة توطين عدد من يهود روسيا وأوروبا الشرقية في مستعمرة أنجولا التي كانت تفتقر إلى أعداد كافية من

المستوطنين البيض. ولدى عرض المشروع على مجلس الكورتيز (البرلمان البرتغالي) وافق عليه بالإجماع شريطة توافد المستوطنين على شكل أفراد وليس جماعات، وأن تظل السلطة العليا بيد الحكومة البرتغالية وحدها. وقد تم الاتفاق على إرسال بعثة من الخبراء لدراسة الأوضاع المعيشية في أنجولا وتحديد مدى قدرة المستعمرة على استيعاب مستوطنين من اليهود. وفي عام 1913 توجهت إلى أنجولا بالفعل بعثة خبراء برئاسة البروفيسور جريجورى الذي سبق وتولى رئاسة البعثة التي اتجهت إلى إقليم برقة بليبيا. وقد أعدت البعثة تقريرها لترفعه إلى المؤتمر العام للمنظمة الصهيونية الإقليمية الذي كان مقررا عقده في زيوريخ بسويسرا في أغسطس عام 1914. ولكن التقرير لم يتعد نطاق سكرتارية المؤتمر نظرا لاندلاع نيران الحرب العالمية الأولى وتأجيل عقد المؤتمر إلى أجل غير مسمى.

وقد أشار زانغويل فيما بعد إلى أن مشروع أنجولا لم يكن مأمون الجوانب نظرا لعدم استقرار أوضاع المستعمرة البرتغالية، وعدم توفير البرتغاليين ضمانات كافية لحماية المستوطنين اليهود لا سيما وأن المستعمرة مجاورة لمناطق النفوذ الألماني والبريطاني والتنافس كان على أشده بينهما. فتخوف زانغويل من وقوع المستوطنين وسط هذا الصراع الذي كان من الممكن أن يهدد استقرار المنطقة بأكملها. وكان من نقاط الخلاف الرئيسية بين زانغويل والبرتغاليين حجم الحكم الذاتي الذي قررت الحكومة البرتغالية منحه للمستوطنين اليهود. فبالرغم من موافقتها على حرية مزاولة شعائرهم الدينية فإنها أحجمت عن السماح لهم بممارسة الاستقلالية في شؤونهم المالية والاقتصادية. وقد قررت المنظمة الصهيونية الإقليمية عدم المضي في متابعة هذا المشروع آملة أن تعود إليه في المستقبل إذا اقتضت الحاجة ذلك [111].

مشروع الدولة اليهودية في منطقة الخليج العربي:

ورد هذا المشروع ضمن رسالة تقدم بها إلى الحكومة البريطانية طبيب يهودي روسي كان يقيم في باريس واسمه الدكتور م. ل. روتشتين Dr. M.L. Rothstein وذلك في الثاني عشر من سبتمبر عام 1917. وقد تسلم الرسالة نيابة عن الحكومة البريطانية سفيرها في باريس السير فرنسيس بارتي

Sir Francis Bertie وكان الهدف الذي يسعى لتحقيقه صاحب المشروع إقامة دولة يهودية في الجزء الشمالي من منطقة الخليج العربي بما فيها البحرين والاحساء فيما عدا الكويت [112]. واقترح روتشتين أن تقوم بريطانيا فورا وبالتعاون مع حليفتها فرنسا وروسيا بتدريب وتسليح جيش يهودي يتكون من 30 ألف مقاتل يختارون من العناصر الشابة ليهود أوروبا الشرقية ويجرى تزويد الجيش بالمدربين الأوروبيين الأكفاء والمستشارين العسكريين لقيادة الجيش الذي يتخذ من البحرين قاعدة له. وقد أشار روتشتين إلى أن نفقات تدريب وإعداد الجيش تعتبر دينا تدفعه الدولة اليهودية بعد إنشائها ويلتزم هو شخصيا بصفة مؤقتة بسداد الدين على أن يأخذ هذا الالتزام صفته الرسمية والنهائية بمجرد إعلان قيام الدولة وأخذ موافقة مجمع الحاخامات اليهودي الذي هو بمثابة السلطة العليا في الدولة المقترحة. وركز روتشتين على ضرورة إعداد الجيش بسرية تامة دون أن يعلم أحد حتى أفراد الجيش بحقيقة المهام المنوطة بهم. ولتحقيق هذا على أكمل وجه اقترح روتشتين أن يتولى هو شخصيا قيادة الجيش.

ولدى استكمال الجيش تدريباته وتجهيزاته تبدأ مراحل المشروع الأخرى فينطلق الجيش اليهودي من البحرين إلى «الاحساء التركية» لاحتلالها وإقامة نواة الدولة اليهودية فيها. وفور إعلان الدولة تقوم بريطانيا وحليفاتها بالاعتراف بها وتعقد معها معاهدة تحالف وصداقة. وبهدف إثارة مزيد من الاهتمام البريطاني-عل ما يبدو-فإن روتشتين أشار إلى أن قيام هذه الدولة يضمن لبريطانيا حماس وولاء اليهود بشكل عام ويهود الدولة العثمانية وألمانيا بشكل خاص بحيث يقوم هؤلاء بدور طابور خامس يعمل على إضعاف جبهة الأعداء وتصدعها. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يبدأ تدفق هائل للأموال اليهودية والقوى المتطوعة من يهود العالم لتثبيت دعائم دولتهم الناشئة، مما يضمن لها أيضا سداد ديونها لبريطانيا والوصول بعدد الجيش اليهودي إلى ما لا يقل عن 120 ألف مقاتل لتمكين الدولة من توسيع حدودها لتشمل مزيدا من أراضي منطقة الخليج العربي.

ومن جملة المهام المنوطة بالجيش اليهودي قيامه بحماية منطقة الخليج وثرواتها من أي خطر يتهددها، سواء أكان ذلك على شكل حملات عسكرية تشنها الدولة العثمانية أو ألمانيا أم على شكل اضطرابات وقلاقل داخلية

يقوم بها سكان المنطقة العرب. وقد تضمن المشروع استعداد الجيش اليهودي للمشاركة في القتال إلى جانب الحلفاء والقيام بأية مهمة توكل إليه حتى تنتهي الحرب وينتصر الحلفاء.

كان موقف المسؤولين البريطانيين في الهند متشددا برفض هذه المحاولة رغم أن موقف لندن كان أميل إلى الاعتدال. ولدى طرح وزارة الخارجية البريطانية فكرة هذا المشروع على وزير شؤون الهند، ادوين مونتاجو[113] Edwin Montague لإبداء رأيه فيه جاء رده متضمنا رفضه القاطع للفكرة للاعتبارات التالية:

1- إن إدخال اليهود منطقة الجزيرة العربية لن يكون أمرا مقبولا لدى عرب الجزيرة مما سيخلق مشاكل معقدة للبريطانيين في هذه المنطقة.

2- عدم ملاءمة الأماكن التي تم اختيارها لإقامة الدولة اليهودية.

أ-فالبحرين كانت خاضعة للنفوذ البريطاني وحكامها مرتبطون بمعاهدة مع بريطانيا منذ عام 1820.

ب-والإحساء كانت من الناحية الواقعية بحوزة عبد العزيز بن سعود أمير نجد منذ عام 1913 وقد عقد معاهدة [114] تحالف وصداقة مع بريطانيا عام 1915 تعهدت فيها الحكومة البريطانية بمساعدته في حالة هجوم أي دولة أجنبية على بلاده [115].

ولدى قيامها بمزيد من البحث والدراسة في جدوى هذا المشروع، وجدت بريطانيا أن قيام دولة يهودية في منطقة الخليج وشرق الجزيرة العربية يعرض مصالحها لمخاطر لا مبرر لها حيث تضمن المشروع بندا ينص على الاستعانة بفرنسا وروسيا للمساهمة في إعداد وتدريب الجيش اليهودي مما جعل بريطانيا تتوجس خيفة من مغبة هذه الخطوة التي كان من الممكن أن تفتح أبواب المنطقة للمنافسة الاستعمارية من جديد بعد أن أضحى الخليج «بحيرة مقفلة على النفوذ البريطاني» وبالإضافة إلى ذلك فإن احتمال الغزو الألماني العثماني لهذه المنطقة بات بعيد الاحتمال وبالتالي فقد تهاوى أحد المبررات الأساسية لمثل هذا المشروع. وعلى أية حال فإن هذا المشروع سرعان ما تهاوى نهائيا في أعقاب صدور وعد بلفور في الثاني من نوفمبر عام 1917 حيث تسلم روتشتين رد الحكومة البريطانية المتضمن ضرورة توجيه الجهد اليهودي في هذه المرحلة نحو بناء «وطن

قومي» لليهود في فلسطين وليس في غيرها. [116]

يتضح من خلال هذا العرض التاريخي لمشاريع الاستيطان اليهودي مدى عمق التحالف المصلحي العضوي بين الإمبريالية البريطانية من جهة وبين الحركة الصهيونية من جهة ثانية. فبالنسبة لبريطانيا كان إنشاء المستوطنات الأوروبية في الأماكن الاستراتيجية من عالمها الاستعماري يعتبر جزءا أساسيا وحيويا في سياستها الرامية إلى توطيد دعائم إمبراطوريتها وتوسيع مناطق نفوذها. ولا شك أن جلب أعداد من يهود أوروبا الشرقية وزرعهم في مستوطنات يتم تشييدها تحت إشراف الحكومة البريطانية يوفر لهذه الحكومة المزيد من «الطوابير الخامسة» التي تستخدمها في حماية مصالحها من أي خطر يتهددها سواء أكان هذا الخطر خارجيا أم داخليا وتعمل في الوقت نفسه على تسخير قدرات هؤلاء المستوطنين لتزويد الاقتصاد البريطاني بما يحتاجه من مواد أولية أساسية وتأمين الأسواق اللازمة لمنتجاته بشكل مستمر وفعال. أما بالنسبة للحركة الصهيونية فإن أقطابها من يهود أوروبا الغربية كان يهمهم إيجاد مستوطنات تستوعب المهاجرين من يهود أوروبا الشرقية الذين كانوا يتدفقون بشكل كبير على أوروبا الغربية والعالم الجديد.

سلكت الحركة الصهيونية في التخطيط لمشاريعها الاستيطانية نفس السلوك الذي سلكته قبلها الحركة الاستيطانية العنصرية في جنوب أفريقيا. وكان هرتزل نفسه يتشبه-كما مر بنا-بسيسيل رودس في محاولاته لتأسيس شركة ذات ميثاق Chartered Company تعمل على إنشاء مستوطنات يهودية وفقا للنموذج الاستعماري الذي طبقته الإمبريالية البريطانية، بحيث يقوم بتمويل هذه الشركة والإشراف عليها مجموعات من رجال المال والمصرفيين اليهود ممن يتوقعون من عملهم هذا الربح الوفير. أما بالنسبة للسكان الأصليين فانهم في نظر الحركة الصهيونية لم يكونوا سوى مجموعات من الناس غير جديرة بالاحترام القومي الذي تستحقه الشعوب الأخرى، فهم مجرد أقوام بدائية يلوح لها الصهيوني بعملته فتتخلى عن بلادها وتقدمها للمستوطنين اليهود. وتطلق الحركة الصهيونية على مثل هذا التصور الاستعماري «اللاأخلاقي» تعبير «المنفعة الاقتصادية». والغريب أن هذا المنطق الاستعماري لا يزال ماثلا أمامنا حتى الآن فمقابل تشريد الشعب

العربي من فلسطين يتصور الصهاينة أن بإمكانهم حل هذه المشكلة عن طريق تقديم «الهبات المالية السخية» لهذا الشعب كي يتنازل عن حقه في أرضه ووطنه. وبقدر ما يبدو هذا المنطق غريبا بالنسبة للشعوب المتشبثة بأرضها فإنه منطق مألوف وطبيعي بالنسبة للحركات الاستيطانية العنصرية التي شهدها العالم في القرون الأخيرة.

الهوامش

(١) انظر: محمود، التوسع الاستعماري الغربي وفكرة الدولة اليهودية، ص ١٩-45 .

(2) Joseph Frankel Paul Friedman's Midian Project (Herzl Year. Book) (N.Y.1962) Vol IV PP.117-67

(3) ولد فريدمان عام 1840 في مدينة كونيغسبرغ الألمانية وكان أحد أجداده زعيما للطائفة اليهودية في برلين. وقد اعتنق فريدمان المذهب البروتستانتي فترة من الزمن ولكنه عاد إلى يهوديته مرة أخرى، وكان مهتما بدراسة التاريخ فنشر عام 1884 مجلدين عن «آن بولين» زوجة الملك الإنجليزي هنري الثامن.

(4) محمود، التوسع الاستعماري الغربي وفكرة الدولة اليهودية، ص 30

(5) لم يفت هرتزل في معرض امتداحه لجهود فريدمان أن ينوه بالأهمية الاقتصادية لمنطقة مدين: انظر: Frankel. P .86 وقد سبق لبعض المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى كالمقريزى أن أشاروا إلى اندلاع نيران شديدة في هذه المنطقة وقت الحر تظل مشتعلة مدة تقارب الأسبوعين وقد تكررت هذه الظاهرة مرارا مما يثير لدى القارئ تساؤلات حول طبيعة الثروات الكامنة في جرف هذه الأرض. ولعل هذا يفسر اهتمام العلماء اليهود في الوقت الحاضر بهذه المنطقة حيث نسمع بين الحين والآخر عن تحليق طائرات بحث واستكشاف أو جنوح سفينة-وذلك على ما يبدو- للقيام بمزيد من الدراسات لطبيعة هذه المنطقة. ومن المحتمل أن تكون المطامع التوسعية في هذه المنطقة لا زالت تختمر في مخيلة الأوساط الصهيونية بدليل الإصدار الصهيوني المستمر على بقاء هذه المنطقة مجردة من السلاح المتطور.

(6) The Jewish Encyclopedia VOL V. 193. P. 519

(7) البدء بأعداد قليلة من يهود غاليسيا وهنغاريا تتبعها أعداد كبيرة من يهود روسيا ورومانيا. والسبب في هذا، الرغبة في عدم إثارة الدولة العثمانية ضد المشروع الذي كان ولا يزال في بدايته.

(8) Fraemkel. P.79

(9) انظر: جريدة المؤيد، العدد الصادر بتاريخ 9 فبراير عام 1892 نقلا عن: خيرية قاسمية، قضية الحدود بين مصر وفلسطين، شؤون فلسطينية(بيروت: نوفمبر 1971) ص 165.

(10) قاسمية. شؤون فلسطينية ص 165، وانظر أيضا جريدة الحقيقة الإسكندرية 5 فبراير 1892

(11) ابتاعه من مدينة جلاسجو.

(12) يبدو أن الحكومة البريطانية كانت تشجع فريدمان على الحصول على تأييد أكبر عدد ممكن من الدول الأوروبية ولو من الناحية الشكلية فقط، بغية التمويه على الدولة العثمانية كي لا تكتشف حقيقة الموقف البريطاني المؤيد لهذه المغامرة.

(13) المؤيد، العدد نفسه.

(14) المصدر نفسه

(15) قاسمية، ص 65 وانظر أيضا المقطم، القاهرة عدد 2 مايو 1906

(16) المؤيد، العدد نفسه.

(17) قام فريدمان لدى إذعانه لطلب الانسحاب بعقد اجتماع عام حضره جميع المشاركين في الحملة فارتدى لباسا عسكريا ووضع على رأسه تاجا ذهبيا وتزين بعدد كبير من الأوسمة والنياشين وامتشق حساما بيسراه ومسدسا بيمناه.. ممثلا بهذا كله دور «ملك اليهود» «انظر» The Jewish Encyclopedia. VOL V. P.522.

(18) المؤيد، العدد نفسه.

(19) انظر هامش رقم 5 .

(20) انظر Fraenkel. P. 105.

(21) تشير الموسوعة البريطانية Encyclopedia Britannica إلي أن تعداد سكان الأرجنتين عام 1890 كان حوالي 4 ملايين نسمة تقريبا ومساحتها , 596 ، 1083 ميلا مربعا.

(22) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة انظر: فارس المنصورى، البارون هيرش والحركة الصهيونية، شؤون فلسطينية (بيروت: يوليو 1975) عدد رقم 47 ص 125-140.

(23) الكولونيل غولد سميد (1846-1904) بريطاني يهودي عمل برفقه أوليفانت وزار فلسطين عام 1883 وأشرف على إدارة المستوطنات اليهودية في الأرجنتين فيما بين عامي 1892-1893 ترأس جمعية أحباء صهيون وشارك في النشاط الصهيوني وكان أحد أعضاء البعثة التي قامت بدراسة أوضاع العريش ومدى صلاحيتها للاستيطان اليهودي. وكان يعتبر استيطان اليهود للأرجنتين مجرد محطة استراحة بين أوروبا الشرقية وفلسطين لا أكثر، حيث وصف ذلك بقوله: The Way Leads From (A)rgentine to (Z)ion

(24) تعرض هيرش لاتهامات كثيرة حول مشروع الخطوط الحديدية التي حصل على امتيازه من الباب العالي عام 1869. فقد بلغ طول الخط الموصل بين استنبول وادرنة 198 ميلا علما بأن المسافة بينهما لا تتجاوز 148 ميلا ولذلك اتهم بأنه بنى خطا مليئا بالانحناءات والمنعطفات كي يزيد من أرباحه. ونظرا لاختراق الخط منطقة الغابات الغنية بالأشجار ذات الخشب الثمين فقد اتهم بأنه تعمد ذلك لينهب الخشب وينقله إلى الخارج ونظرا لعلاقته مع ولى عهد بريطانيا (الذي اعتلى العرش باسم إدوارد السابع) فقد اتهم بأنه تعمد إرضاء بريطانيا عن طريق مراعاة مصالحها السياسية والاستراتيجية في منطقة البلقان. وقد اتهم ا أيضا بأنه استغل الرشاوى الهائلة من أجل الحصول على هذا الامتياز. انظر المنصورى ص125-140.

(25) Max Budenhoimer. Prelude to Israel. (Trans by Israel Cohen) (N. Y: 1963) P.62

غير أن صهره المليونير البلجيكي شوفسهايم Schaufsheim عارضه في فكرته هذه كي لا تؤثر على مسعى اليهود الأساسي للحصول على حقوقهم المدنية في الدول الأوروبية. انظر المصدر السابق.

(26) (1865-1940) محام وزعيم صهيوني انضم لجماعة أحباء صهيون وزار فلسطين برفقة هرتزل، وأصدر كراسا عام 1891 بعنوان «أين يذهب اليهود الروس» Wohin mit den E Rassischen Juden?

(27) انظر Budenheimer p. 73

(28) افيجدور (1841- 1895) مهندس مدني عمل مشرفا على بناء الخطوط الحديدية في سوريا، انظر: Sokolow Vol I. P. 239

(29) (1832-1911) كان من كبار رجال المال اليهود في إنجلترا حيث كان يمتلك مؤسسة مصرفية خاصة. وكان من زعماء حركة أحباء صهيون.

(30) كان يعمل في الزراعة وقد تخصص في موضوع الكيمياء وحقق صيتا كبيرا في هذا الموضوع

بين اليهود الألمان. انظر Budenheimer. p.87
(31) نقلا عن رزوق ص 157.
(32) (1870-1935) اقترن اسمه بالمحاولات الاستيطانية اليهودية في كل من قبرص وسيناء. ولد في سكسونيا بألمانيا غير أنه تركها وهاجر إلى نيويورك عام 1893 وبقي فيها حتى عام 1899 حيث حصل على الجنسية الأمريكية. ثم عاد إلى ألمانيا وأخذ يزاول نشاطه الصهيوني في برلين، واشترك منذ عام 1901 في تحرير المجلة الشهرية الشرق والغرب Ost und west التي كانت تهتم بالأمور المتعلقة بأوضاع اليهود، وقام عام 1902 بتأسيس مجلة فلسطين Palastina الشهرية. وهاجر إلى فلسطين عام 1932 وتوفي في تل أبيب.
(33) حول هذا الموضوع ا نظر Oscar K.Rabinowicz, a Jewish Cyprus Project, Treitsch's, Colonization Schme (N.Y.: 1962)
(34) Rabinowicz, p.5
(35) Horzl, Diaries, Vol I. P.383
(36) Horzl, Diaries, Vol I. P.644
(37) Rabinowicz, p.13 وانظر أيضا الكيالي، ص 31.
(38) وكان زعيم هذا الاتجاه ارون ماركوس (1843-1916) وهو يهودي ألماني وأول رجل دين ينضم إلى المنظمة الصهيونية. عرض على هرتزل عام 1896 إمكانية تكوين جيش من يهود أوروبا الشرقية يبلغ تعداده ثلاثة ملايين شخص انظر صحيفة دى فيلت عدد 43, 27 أكتوبر 1899 نقلا عن الكيالي ص 31.
(39) Rabinowicz, p.15
(40) (1856- 1914) من زعماء الحركة الصهيونية تولى مناصب هامة فيها كان عضوا في اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية وبعد وفاة هرتزل انتخب رئيسا لتلك المنظمة وكان من أشد المتحمسين لمشروع فلسطين الكبرى.
(41) (1871- 1937) يهودي ألماني شارك في معظم مشاريع الاستيطان اليهودي وكان رئيس اللجنة التي درست إمكانية توطين اليهود في يوغندا وينتمي إلى الصهيونية العملية وتولى رئاسة المنظمة الصهيونية عام 1911 وظل محتفظا بها حتى عام 1920 وساهم في تأسيس الجامعة العبرية.
(42) Rabinowicz, p.17
(43) Horel Diaries, Vol III, p.882
(44) الكيالي ص 33 .
(45) انظر تفاصيل المذكرة في رزوق ص 160.
(46) انظر Herzel, Diaries, Vol III, p. 882
(47) Rabinowicz p.17
(47) Herzel Diaries, Vol III, pp. 1023-1024
(49) المصدر السابق نفسه.
(50) Laqueur, p. 121 وانظر أيضا: أحمد طربين فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار 1897-1922 (القاهرة: 1970) ص 73.
(51) بدأ حياته ناشرا صغيرا ثم انتقل إلى الصحافة واشترى عام 1906 مجلة الجويش كرونيكل وأصبح رئيس تحريرها، وكانت تربطه صلة قديمة وقوية بتشمبرلن منذ كانا في برمنغهام.

(52) Herzel Diaries, Vol IV, p.1361

(53) المصدر نفسه. يبدو العطف الغربي هنا واضحا على اليونان بحجة تمتعهم بالبشرة البيضاء وانتمائهم إلى التراث المسيحي الغربي. وبالطبع تحمل هذه الجملة في طياتها حقدا على الشعوب التي لا تتوافر فيها مثل هذه المواصفات من لون البشرة أو الانتماء للتراث نفسه.

(54) Ibid, p.1362 ، افترض هرتزل أن القبارصة يهجرون قراهم بمجرد التلويح لهم بصرر المال. إن الفلاح القبرصي أثبت فيما بعد وهو يناضل من أجل تحرير بلاده من الاستعمار البريطاني أنه لا يقل عن أي فلاح آخر انتماء والتصاقا بالأرض. وها هو نفس الأسلوب يتكرر مع الفلاح الفلسطيني الذي لا يزال حتى هذه اللحظة متشبثا بالعودة إلى أرضه رغم جميع التحديات التي تواجهه.

(55) المصدر السابق نفسه.

(56) لمزيد من التفاصيل انظر Rabinowicz, pp.74-75 فقد عرض تريتش في رسالته للمندوب السامي البريطاني في قبرص استعداده لتكوين شركة يهودية استثمارية تعمل على تطوير الجزيرة وإنعاشها وتقوم هذه الشركة بإرساء دعائم نهضة زراعية شاملة مقابل حصولها على قطعة من الأرض تستوطنها كفاءات يهودية عالية تجلب الخير معها للجزيرة.

(57) Stein,p.25

(58) Herzel Diaries, Vol IV, p.1363

(59) المصدر نفسه.

(60) لدى سماع هرتزل بمعارضة ممثل السلطان العثماني أبرق إلى غرينبرغ قائلا: «يمكنك أن تعد المندوب العثماني بألفي جنيه بعد أن يتم توقيع الاتفاق...» انظر Ibid, p .1417. وقد تكرر هذا المثال مرارا في تعامل هرتزل مع الشرقيين سواء أكانوا أتراكا أم عربا فقد كان دائما يتصور أن الرشوة تفتح له الأبواب الموصدة.

(61) عمل فترة طويلة في جنوب أفريقيا حيث اكتسب خبرة في أحدث الطرق المتبعة آنذاك في سياسة الاستيطان العنصري، وتولى رئاسة الجمعية الصهيونية في الترانسفال (1899- 1900) ثم تولى عام 1900 نيابة رئاسة الاتحاد الصهيوني في جنوب أفريقيا.

(62) أوردت دائرة المعارف اليهودية أسماء أعضاء اللجنة على النحو التالي:

1- Kessler 'Engineer
2- Marmork Architect
3- Goldsmid Captain
4- Stephens Engineer
5- Laurant Professor
6- Soskin S, Dr.
7- Hillel Joffe, Dr
8- Humphreys The Jewish Encyclopedia, Vol 12, p. 678

(63) Herzel Diaries, Vol IV, p.1368

(64) كان هرتزل يريد الحصول على الأراضي الممتدة حتى خط عرض 29. ويقطع هذا الخط سيناء عند القسم الأسفل فيشطر خليج السويس إلى شطرين تقريبا ويمر بالقرب من النقطة المعروفة ب «عين حضيرة» ليشمل خليج العقبة ويتقاطع مع سكة حديد الحجاز انظر رزوق ص 118.

(65) Fraenkel, p. 114

(66) اعتبر تريتش رفض العرض الذي قدم لهرتزل باستيطان مناطق متفرقة خطأ فادحا انظر Rabinowicz, P.114

(67) Herzel Diaries, Vol IV, p.1450

(68) وكان مما دونه هرتزل.. «لعل أعظم ما أثار اهتمامي هو العدد الكبير من الشبان المصريين الوطنيين.. إنهم سادة المستقبل في مصر ومن الغريب أن الإنجليز لا يبصرون ذلك فهم يعتقدون انهم سيتعاملون مع فلاحين إلى الأبد: انظر المصدر السابق.

(69) Ibid,p.1486

(70) Ibid,p.1487

(71) Ibid وعلى اثر فشل المشروع قام هرتزل بإرسال رسالة إلى صادوق خان حاخام فرنسا الأكبر في الثالث من يوليه عام 1903 جاء فيها: ... «إن تقارير بعثتنا كانت تامة ومهيأة للإرسال، ولكن حدث تطور جعل إرسالها أمرا لا فائدة منه في الوقت الحاضر. كنا قد تسلمنا تأكيدات شفوية وكتابية من الحكومة وكانت خطتنا مقبولة مبدئيا ولكن في آخر لحظة قررت دائرة الأشغال العامة أن ليس بالإمكان إعطاؤنا ما نحتاج إليه من ماء النيل لإنجاز خطتنا إنجازا صحيحا. ولذلك اضطررنا في الوقت الحاضر إلى التخلي عن كل المشروع. وهذا مؤلم جدا لي...» ولمزيد من التفاصيل وقراءة النص كاملا انظر محمود، التوسع الاستعماري الغربي وفكرة الدولة ا ليهودية، ص 42.

(72) رسالة كرومر إلى الخارجية البريطانية بتاريخ 4/ 5/ 1903، انظر /F. O. 78-5479

(73) وقد استمرت العلاقة بين هرتزل ووايزمن تتسم بالنفور والجفاء حف وفاة هرتزل. انظر: Chaim Weizmann,(Trial and Error) (London:1944), PP.120- 121

(74) تجددت عام 1908 محاولة ثانية لإنشاء مستوطنة يهودية شمال سيناء وكان يتزعم هذه المحاولة نائب القنصل البريطاني في غزة اسكندر كنزوفيتش الذي تمكن في نهاية عام ١٩١١، من شراء حوالي عشرة آلاف دونم بغية استعمالها في توطين أعداد من اليهود على أمل أن يعمل هؤلاء المستوطنون على دعم المصالح البريطانية في المنطقة، غير أن السلطات البريطانية تدخلت لوقف عمليات شراء الأراضي نتيجة صدور احتجاجات قوية من الدولة العثمانية والحركة الوطنية المصرية. انظر: F. O. 371/1110/179.

(75) Herzel, Diaries Vol IV, P.1473 ولم يشر تشمبرلن إلى مكان معين ولكنه رأى أن أكثر الأراضي المناسبة هي تلك الواقعة بين نيروبي وقمة جرف «ماو».

(76) نظرا لاستعمال اسم «مشروع يوغندة» في معظم الأوراق والوثائق الرسمية فإن الباحث سيستمر في استعمال هذه التسمية بهذا الشكل.

(77) Desmond Stewart, Theodor Herzel (New York: 1974), P. 362

(78) طربين ص 80.

(79) وكان في طليعة هؤلاء ماكس نورداو الذي مر بنا ذكره في الفصل السابق، وهو مفكر ألماني يهودي وزعيم صهيوني سياسي ولد في بودابست بالمجر وتربى في كنف الثقافة الألمانية على غرار هرتزل-بعيدا عن التقاليد اليهودية وانصرف إلى العمل في الكتابة للصحف والمجلات، وكان من أشد المؤيدين لهرتزل وقد عارض الصهيونية الثقافية والعملية وكان في طليعة المؤيدين لمشروع يوغندة.

(80) قام هرتزل بزيارة روسيا في أعقاب الأحداث التي وقعت في مدينة كيشينيف خلال الفترة الواقعة بين 6- 8 أبريل عام 1903 وقد أسفرت هذه الأحداث عن مقتل 47 يهوديا وإصابة مئات آخرين بجروح، كما أضحى آلاف اليهود دون مأوى، ودمر حوالي 1500 مسكن ومتجر يهودي. ويبدو أن هرتزل حاول استغلال هذه الفرصة أيضا لتوجيه الهجرات اليهودية صوب منطقة شرق

أفريقيا. انظر جريس ص 167.

(81) يصف هرتزل حلما له في صباه قائلا: «وجدت نفسي طائرا على أجنحة الريح يطوقني المسيح-الملك بذراعيه حيث كان يتخذ شكل رجل مسن تبدو عليه إمارات العظمة والجلالة... وحينما التقينا بموسى التفت إليه المسيح قائلا: «من أجل هذا الصبي كنت أصلي». ثم التفت إلي وقال: «اذهب وأعلن لليهود بأن موعد مجيئي قد اقترب...» دلالة على قرب إنشاء الدولة اليهودية التي ارتبط موعدها بعودة المسيح. انظر: Alex Bein, Theodor Herzl (Philadelphia: 1945), pp.13-14

(82) وقد اشتمل جدول أعمال المؤتمر على مجمل الاتصالات السياسية التي قام بها هرتزل منذ المؤتمر الصهيوني الأول. لقد تحدث عن مفاوضاته مع السلطان العثماني ومباحثاته مع الحكومة البريطانية بشأن قبرص والعريش. وكان امتداحه لموقف الحكومة الروسية تجاه اليهود مفاجئا للكثيرين... ولعل سر ذلك يعود إلى الاتفاق الذي عقده هرتزل مع بليهفيه وزير الداخلية الروسي والذي تضمن تهجير عدد من اليهود الروس إلى يوغندة كما مر بنا ذكره في الفصل السابق..

(83) The London Times, Aug 24, 1903 ونشرت أيضا في Die Welt في عددها الصادر بتاريخ 29/ 1903/8

(84) انظر جريس ص 171.

(85) انظر خالد القشطيني، مشروع إنشاء المستعمرة اليهودية في يوغندة، شؤون فلسطينية (بيروت: مايو 1971) ص 108.

(86) المصدر السابق نفسه.

(87) Bein,P.443

(88) The London Times, Aug 29, 1903

(89) Stewart, P.378

(90) المصدر نفسه.

(91) Herzel, Diaries, Vol IV, P. 1487

(92) رأسمالي صهيوني بلجيكي عاش في الفترة ما بين 1851-1929 كان صاحب مصالح واستثمارات احتكارية كبيرة في الكونغو. وهو صاحب ومؤسس بنك فيليبسون في بلجيكا.

(93) Herzel, Diaries, Vol IV, P. 1512 وانظر أيضا: G. H. Janson, Zionism, Israel and Asia: (Beirut, 1971), p.75.

(94) J.C.Ewald Falls,(Three Years in the Libyan Desert)(London: 1913) p.335 وصاحب الكتاب هو عالم أثري مشهور جاء إلى مصر مع ابن عمه كوفمان للقيام ببعض الأبحاث الأثرية وهما اللذان اكتشفا آثار «ابومينا» المسيحية في مريوط

(95) انظر: Herzl, Diaries, Vol IV,p. 1503 وانظر أيضا: Laqueur,p. 100

(96) انظر رزوق، ص 178-179.

(97) Herzl, Diaries, Vol IV, P. 1600 والتعبير الذي استعمله الملك الإيطالي هو: Ma e encara Casa di altri, ويعني «وطن الآخرين» أو «بيت الغير»

(98) وتعرف باسم I. T. O. وهي الحروف الأولى لاسمها الإنجليزي International Territorial Organization وقد انشقت عن المنظمة الصهيونية العالمية عام 1905 احتجاجا على رفض المؤتمر الصهيوني السابع لمشروع يوغندة لا سيما أن غالبية أعضاء المؤتمر السابق كانوا إلى جانب المشروع. وقد أعلن زانغويل زعيم المنظمة أن الهدف الأساسي الذي تسعى منظمته لتحقيقه هو

الحصول على أي «إقليم» لتوطين اليهود الذين لا يستطيعون أو لا يريدون البقاء في البلاد التي يقيمون فيها، وخاصة يهود أوروبا الشرقية.

(99) زانغويل (1864-1926) ولد في لندن ونشأ بها وأصبح من أكثر الصهاينة نشاطا فيها. كتب مجموعة من الروايات تبين ضيقه بالعقلية الجيتوية اليهودية، وقد انعكس هذا على دعوته الاستيطانية الرامية إلى اختيار أي منطقة في العالم «لإنقاذ يهود شرق أوروبا»، دون الإصرار على الرابطة الأسطورية الجيتوية بين اليهود وفلسطين. ولكننا نجده في أعقاب صدور وعد بلفور يصبح من أكثر الناس تحمسا للاستيطان في فلسطين.

(100) انظر: Richard J.H. Gottheil, (Zionism) (Movements in Zionism) (Philadelphia: 1914) p. 137

(101) ولد في باريس عام 1872 وعمل في كلية الآداب بجامعة باريس حيث تخصص في دراسة تاريخ اليهود في الشمال الأفريقي. وقد دفعته دراساته للقيام بعدة رحلات عبر الشمال الأفريقي لزيارة الكثير من الأماكن ذات القيمة التاريخية التي لها علاقة بتاريخ يهود أفريقيا، وكان عضوا في اللجنة التي أرسلها زانغويل لدراسة منطقة برقة ومعرفة مدى صلاحيتها للاستيطان اليهودي. ونشر عام 1937 خلاصة دراسته ليهود شمال أفريقية في كتاب اسماه «رحلات في شمال أفريقيا»، Travels in North Africa (Philadelphia: 1937.

(102) وهو ينتمي إلى أسرة يهودية، وعرف عنه تحمسه لمشروع إنشاء وطن قومي لليهود إما في فلسطين وإما في منطقة الجبل الأخضر بولاية برقة. وهو نفس الرحالة الذي مر بنا ذكره قبل قليل، وقد اشتهر بمؤلفاته الكثيرة عن أفريقيا وأوضاعها الجغرافية والسياسية. انظر مصطفى بعيو، المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا، (ليبيا-تونس: 1972) ص 58-59 .

(103) J. W. Gregory, Report of the Commission sent out by the Jewish Territorial: Organization for the purpose of a Jewish Settlement in Cyrenaica (London: 1909) pp. VII, VIII

(104) بعيو ص 84-85 .

(105) وكان يلقب أيضا بالترجمان العام للولاية، وهو يهودي الأصل كشف إسرائيل زانغويل عن خدماته الكبيرة وحماسه الشديد لمشروع إنشاء «وطن قومي لليهود» في إقليم برقة.

(106) الوثيقة الأصلية غير موجودة في دار المحفوظات ولعلها أرسلت إلى الباب العالي أو فقدت خلال الغزو الإيطالي لليبيا. ويمكن الرجوع-على أية حال-إلى الترجمة العربية للوثيقة التي لا زالت موجودة في الدار. وقد نشرت هذه الترجمة في الجرائد الليبية التي أشير إليها سابقا، كما يمكن الرجوع إليها في بعيو ص 86-91 ورزوق المصدر السابق ص 185-189.

(107) وقد ضمت البعثة جون تروتر John Trotter الزميل بالجمعية الزراعية للأراضي المرتفعة في اسكتلندة والمدير المساعد السابق للمجلس الزراعي بالسودان وقد نيطت به مهمة دراسة الأوضاع الزراعية ببرقة. وضمت البعثة أيضا ريجنالد مدلتون Reginald Middleton وولر هنترWalter Hunter وماثيو دف Mathew B. Duff وشارك هؤلاء الثلاثة في دراسة المواد المائية. كما ضمت البعثة أيضا كدر M. M. Keder الذي نيطت به مسؤولية دراسة الأحوال الصحية في برقة. أما الدكتور ناحوم سلوش فكانت مهمته دراسة الخلفية التاريخية لليهودية واليهود في برقة كأساس لقيام الوطن اليهودي في برقة.

(108) يحتوي على 65 صفحة تشمل الأقسام السبعة التالية: 1- مجموعة من الخرائط 2- مقدمة تاريخية وسياسية أعدها زانغويل 3- التقرير العام وقد أعده جريجوري 4- تقرير خاص بالأحوال الزراعية لبرقة أعده تروتر 5- تقرير خاص بموارد المياه وأعده ميدلتون وهنترودف 6- رسالة من

جريجوري إلى زانغويل 7- ملحق عن اليهود واليهودية في برقة القديمة أعده ناحوم سلوش.

(109) نقل رجب باشا من ليبيا عام 1909 على أثر الانقلاب الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني. وقد اختاره رجال الاتحاد والترقي الذين قاموا بالانقلاب وزيرا للحربية ولكنه مات فجأة يوم تعيينه.

(110) برزت فكرة الوطن القومي لليهود في ليبيا ثانية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وكان صاحب الفكرة هذه المرة ونستون تشرتشل رئيس وزراء بريطانيا. ففي صحيفة الابزرفر البريطانية في عددها الصادر بتاريخ 1961/5/7 ورد خبر تحت عنوان: Churchill's Home for Jews مضمونة أن تشرتشل أخبر ستالين أثناء انعقاد مؤتمر بوتسدام بأنه فكر في توطين «اليهود المشتتين» في إحدى المستعمرات الإيطالية السابقة، ولكن جميع زعماء اليهود الذين حدثهم، في هذا الموضوع لهم يبدوا أي اهتمام به. ولعل ذلك مرجعه إلى أن أولئك الزعماء كانت أنظارهم موجهة نحو فلسطين في تلك الفترة. وبالرغم من أن تشرتشل لم يذكر اسم ليبيا صراحة في حديثه إلا أنه كان واضحا تماما لمن تتبع سياق الحديث أن المكان الذي قصده تشرتشل لم يكن سوى ليبيا. ولمزيد من التفاصيل انظر: The Observer Sunday (London:7 May 1961), p. 11 وانظر أيضا بعيو، المصدر السابق.

(111) انظر رزوق ص 186: وانظر أيضا: Sykes, p. 167.

(112) Dr. Rothstein's Proposal for Creation of Jewish Army at Bahrain, F.O. 371/3053/18242 وانظر أيضا جمال زكريا قاسم، الخليج العربي: دراسة لتاريخ الإمارات العربية 1945-1914 (القاهرة: 1976) ص 526-522.

(113) كان من أقوى المعادين للفكرة الصهيونية وهو الابن الثاني لصموئيل المالي اليهودي الكبير وعضو حزب الأحرار في البرلمان. كتب في مطلع عام 1917 قبل أن يعين وزير دولة لشؤون الهند: «إن الصهيونية تبدو لي دائما منصبا سياسيا خاطئا، لا يتمسك به أي إنجليزي وطني في بريطانيا... ولو وقعت عينا يهودي إنجليزي على جبل الزيتون ثم تاق لليوم الذي ينفض فيه تراب الأرض البريطانية عن حذائه ليعود إلى ممارسة الزارعة في فلسطين، لبدا لي أنه يريد أشياء لا تتفق ومنطق الجنسية الإنجليزية التي يحملها ويصبح غير مناسب للمساهمة في الحياة العامة في بريطانيا ولا يستحق أن يعامل كإنجليزي». انظر: Stewart, pp. 251 -250.

(114) وتدعى معاهدة أو اتفاقية دارين وقد وقعت في 26 ديسمبر عام 1915 وقد نصت المادة الثانية من الاتفاقية على أنه «إذا تجاوزت إحدى الدول على أراضي ابن سعود أو أعقابه من بعده (والاحساء واحدة منها) دون إعلام الحكومة البريطانية ودون أن تمنح الوقت المناسب للمخابرة مع ابن سعود لأجل تسوية الخلاف، فالحكومة البريطانية تعاون ابن سعود ضد هذه الحكومة وفي مثل هذه الظروف يمكن للحكومة البريطانية بمساعدة ابن سعود أن تتخذ تدابير مشددة لأجل المحافظة على استقرار الأمور». انظر قاسم ص 528.

(115) F. O. 371/3053/18242.

(116) F. O. 371/3395/189079.

6 فلسطين بين الحركة الصهيونية والإمبريالية الغربية خلال الحرب العالمية الأولى

شهدت فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى موجتين رئيسيتين من الهجرات اليهودية. فالموجة الأولى(1882-1903) التي تراوح عددها بين 25-30 ألف مهاجر، يعود إليها الفضل في التمهيد لإرسال الأسس التي قامت عليها حركة الاستيطان اليهودي المنظم في فلسطين. وكان من أهم المستوطنات الزراعية التي أنشئت في هذه الفترة ريشون ليتسيون (الأولى لصهيون)، وروش بينا(رأس الزاوية)، وزخرون يعقوب (تخليدا لذكرى والد البارون روتشيلد الفرنسي) ونيس تسيونة (راية صهيون)، وعكرون (التي غير اسمها فيما بعد إلى مزكيرت باتيه (تخليدا لذكرى والدة البارون روتشيلد)، وغديرة (وكانت تعرف باسم قطرة) [1]. ولم يكن لدى هؤلاء المستوطنين الأوائل أية فكرة عن أصول الزراعة فلجؤوا إلى العرب وأخذوا

يستعينون بخبراتهم. وكانوا يعتمدون في أمورهم المالية على مساعدات البارون ادموند دى روتشيلد الذي قام في المقابل بوضع هذه المستوطنات تحت إدارته وإشرافه، وأرسل إليها عددا من مستخدميه لتنفيذ تعليماته.(2) وتلقت المستوطنات أيضا مساعدات مالية من الجمعية اليهودية للاستعمار بفلسطين (البيكا). وقد نجح هؤلاء المهاجرون، خلال عقدين من الزمن، في إقامة 22 مستوطنة بلغت مساحتها حوالي 275 ألف دونم وقاربت تكاليفها مليوني جنيه إسترليني. وبالرغم من ذلك فإن نشاطهم الاستيطاني لم يحقق النجاح المرجو، وبدأ يتعثر ويصطدم بمشاكل متلاحقة. ومن أهم تلك المشاكل اعتماد المستوطنين المطلق في إدارة شئونهم على مساعدات الممولين اليهود المادية والفنية مما أدى إلى إضعاف حوافز العمل الذاتي لديهم، وظلت حياتهم ومصيرهم معتمدين على مشيئة أولئك الممولين كما أن تكيفهم مع الواقع الجديد للبيئة لم يكن أمرا ميسورا، لا سيما وأن عرب فلسطين كانوا ينظرون إليهم نظرة شك وريبة وبدؤوا يهبون للدفاع عن أرضهم ويقومون بهجمات متتالية على المستوطنات اليهودية.

أما الموجة الثانية (1904-1914) فقد تراوح عددها من 35-40 ألف مهاجر، واقتصرت تقريبا على المهاجرين اليهود الروس ممن شكلوا طليعة الصهيونية الاشتراكية، وخرج من بين صفوفهم الرواد الصهيونيون الأوائل أمثال دافيد بن غوريون ويتسحق بن زفي وليفي أشكول. ورفع هؤلاء الرواد شعارهم العنصري «غزو العمل» الذي دعا إلى مقاطعة الأيدي العاملة العربية واستبدال الأيدي العاملة اليهودية بها. «فالعمل العبري»-في نظرهم-هو الذي يؤدى في النهاية إلى التفاعل والتمازج بين العمال اليهود «والتراث اليهودي». كما أصر هؤلاء الرواد على استعمال اللغة العبرية كلغة قومية منطوقة بين المستوطنين اليهود. ومن أهم المستوطنات التي أنشئت خلال هذه الفترة: «بيت جان، بئير يعقوب، بن شيمن، تل أبيب، ديغانيا، مندال، روحامه، كفار ميلال، مرحفياه» (3) واستحدث خلال هذه الفترة أيضا نوعان من المستوطنات الزراعية في فلسطين وهما الكيبوتز(الملكية المشتركة للأرض) والموشاف (المزارع التعاونية). ونجح مستوطنو هذه الموجة في إقامة مؤسساتهم الخاصة بهم في شتى المجالات: الحزبية، والسياسية، والثقافية، والاجتماعية، والاستيطانية وحتى العسكرية، مما ساعد على

استقرارهم وتنفيذ مخططاتهم.

وفي عام 1908 أنشأت المنظمة الصهيونية مكتب فلسطين Palestine Office ليتولى مسؤولية الإشراف على المستوطنات الزراعية، ويقوم بتقديم الخدمات للمستوطنين والمهاجرين الجدد وبالمساعدة في شراء الأراضي واستصلاحها. وبلغ عدد المستوطنات في عام 1914 تسعا وخمسين مستوطنة وصل عدد سكانها إلى حوالي 12 ألف نسمة. وكان هنالك بالإضافة إلى هذا العدد، حوالي 70 ألفا يقطنون في المدن وخاصة مدينة القدس. ومن بين الثمانين ألفا تقريبا التي كانت موجودة في فلسطين من اليهود، كانت الأغلبية وتتراوح بين 55 ألفا و 60 ألفا قد جاءت إلى البلاد في غضون الثلاثين عاما الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية الأولى (4).

هذه لمحة موجزة عن الحضور اليهودي في فلسطين عشية قيام الحرب العالمية الأولى.. أما الهجرات اليهودية وتناولها بمزيد من الإسهاب والتفصيل فهو موضوع خارج عن نطاق الدراسة الحالية. ولذا فستنتقل الدراسة الآن إلى مناقشة المواقف التي اتخذتها الدول الكبرى من قضية الاستيطان اليهودي في الأراضي الفلسطينية.

اشتعلت الحرب العالمية الأولى في أواخر يوليه عام 1914، وأخذت دول العالم الكبرى تنتظم في كتلتين متصارعتين ضمت الأولى كلا من بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية وانضم إليها في العام التالي إيطاليا ثم الولايات المتحدة الأمريكية عام 1917، وأطلق عليها أسم مجموعة دول الحلفاء. أما الكتلة الثانية فقد ضمت كلا من ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية وأطلق عليها اسم مجموعة دول الوسط. وأدى قيام هذه الحرب إلى انقسام المنظمة الصهيونية العالمية إلى مجموعتين رئيسيتين: الأولى مؤيدة لألمانيا ودول الوسط وكان يتزعمها اوتو واربورغ وارثور هنتكه وليختهايم، بينما الأخرى اتخذت موقفا مؤيدا لبريطانيا ودول الحلفاء وكان يتزعمها حاييم وايزمن الروسي الأصل وأستاذ الكيمياء في كلية اوين Owens بمانشستر.

العلاقات الألمانية الصهيونية خلال الحرب:

كان مقر اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية عند نشوب الحرب في برلين، وكان يتولى رئاستها اوتو واربورغ، ونظرا للتحالف الألماني العثماني،

فإن المنظمة الصهيونية كانت حريصة على علاقتها مع ألمانيا واستغلال نفوذها لدى العثمانيين من أجل مساعدة المستوطنين اليهود في فلسطين وتثبيت وجودهم فيها. غير أن القادة الصهيونيين في ألمانيا كانوا حريصين أيضا على عدم القيام بأية تصرفات عدائية تجاه روسيا التي دخلت الحرب إلى جانب الحلفاء. فالغالبية العظمى من المهاجرين اليهود إلى فلسطين كانت تفد من روسيا، ولم يكن من مصلحة القيادة الصهيونية. إثارة ما يمكن أن يسبب عرقلة مسار هذه الهجرات أو تعثرها. ولعل ذلك كان واحدا من أهم الأسباب التي دفعت اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية إلى نقل مقر رئاستها في ديسمبر عام 1914 إلى مدينة كوبنهاجن عاصمة الدانمرك المحايدة، وذلك أيضا لتسهيل الاتصالات مع مختلف فروع المنظمة الصهيونية في مختلف أرجاء العالم [5]. ولكن المقر الجديد في كوبنهاجن حافظ على صلته مع ألمانيا أكثر من صلته مع الحلفاء[6]. وبالإضافة إلى مكتبي المنظمة في برلين وكوبنهاجن، كان هنالك مكاتب أخرى هامة، أحدها في الآستانة برئاسة دافيد جاكوبسون وآخر في لندن برئاسة ناحوم سوكولوف ثم حاييم وايزمان، وثالث في نيويورك برئاسة لويس براندايس الذي كان يعمل مستشارا للرئيس الأمريكي ولسون ثم أصبح قاضيا في محكمة العدل العليا[7].

بقيت الاتصالات مستمرة طيلة الحرب بين الصهاينة والحكومة الألمانية. وبالرغم من أنه لم يتمخض عن هذه الاتصالات موقف ألماني واضح ومستقر تجاه قضية إنشاء كيان سياسي للمستوطنين اليهود في فلسطين، إلا أن الصهاينة نجحوا في توفير الحماية اللازمة لأولئك المستوطنين عن طريق نفوذ ألمانيا الدبلوماسي في الآستانة. ويمكن تفسير هذا الموقف الألماني المتعاطف مع الصهيونية إلى رغبة ألمانيا في المحافظة على مصالحها الاقتصادية مع البرجوازية اليهودية. بالإضافة إلى أنها كانت حريصة على كسب تأييد الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تولى النشاط الصهيوني في فلسطين الكثير من اهتمامها ورعايتها. وبدأت ألمانيا أيضا ترى في إقامة كيان يهودي سياسي على شكل دولة يهودية تحت السيادة العثمانية ضرورة استراتيجية على الصعيد العسكري، للدفاع عن مصالح دول الوسط في منطقة الشرق العربي [8]. ومما زاد من أهمية هذا الاتجاه «توتر العلاقات

العربية العثمانية وتحالف القوميين العرب مع بريطانيا» بحيث إنه بات من الضروري «... إقامة جزيرة يهودية في فلسطين كي تجابه 600 ألف عربي يقطنون فيها وتصد في نفس الوقت احتمالات الغزو من جانب القوات العربية البريطانية المتحالفة[9]». ومما قاله الزعيم الصهيوني الألماني كورت بلومنفيلد حول أهمية التعاون الصهيوني الألماني: «يشكل اليهود حلقة الوصل الطبيعية بين ألمانيا والشرق، وبناء على ذلك فإن المستوطنين اليهود في فلسطين سيشكلون معقلا للنفوذ الألماني في ذلك الجزء من العالم. وإذا ما أتيح لهم المجال فيمكن الاعتماد عليهم لنشر الثقافة الألمانية وتغلغل الاقتصاد الألماني في شتى أرجاء الإمبراطورية التركية». [10] وقد بذل يهود الدونمة جهودا واسعة في إيجاد مزيد من التقارب بين الصهاينة من جانب والألمان والأتراك من جانب آخر[11].

تزايد اهتمام ألمانيا بالحركة الصهيونية في أوائل عام 1916 نتيجة لفشلها في إحراز نصر حاسم وسريع على جبهات القتال. وأخذ أملها يشتد في أن تنجح بمعونة الحركة الصهيونية من كسب الولايات المتحدة إما إلى جانبها أو على الأقل إبقاؤها بعيدة عن جبهة الحلفاء. وفي محاولة منها لكسب الصهاينة إلى جانبها، سارعت ألمانيا بالإيعاز لسفارتها في الآستانة كي تصدر تعليمات سرية إلى القناصل الألمان في سوريا وفلسطين لحماية المستوطنين اليهود والمحافظة على ممتلكاتهم ، بالإضافة إلى بذل الجهود للسماح بمزيد من هجرة اليهود واستيطانهم في فلسطين «للمدى الذي لا يتعارض والمصالح الوطنية لتركيا»[12]. غير أن الصهاينة طالبوا ألمانيا بتصريح مشترك تصدره مع الدولة العثمانية ويعلنان فيه علانية تعاطفهما مع «الأماني والأهداف الصهيونية القومية». ولكن ألمانيا لم تستطع تلبية هذا المطلب الصهيوني بحجة المعارضة التي كانت تبديها آنذاك الدولة العثمانية. فقد بدأ العثمانيون يتشككون في مرامي وأهداف الحركة الصهيونية في أعقاب اكتشافها شبكة تجسس يهودية لصالح بريطانيا والحلفاء، كانت تعمل وراء الخطوط التركية. وبالإضافة إلى ذلك فإن العثمانيين أيضا كانوا يتخوفون من إثارة المزيد من عداء العرب الذين كانوا لا يزالون تحت نفوذهم [13].

وفي أعقاب دخول الشريف حسين بن علي الحرب إلى جانب الحلفاء وتولي طلعت باشا الحكم في العام التالي، سارعت الدولة العثمانية إلى

تقديم بعض التنازلات وأعلنت مرارا أنها لن تعارض استيطان اليهود في فلسطين ومنحهم قسطا من الحكم الذاتي شريطة أن تظل هذه البلاد تحت السيادة العثمانية. ولكن التغير الكبير في الموقفين الألماني والعثماني إزاء الصهيونية حدثا بعد صدور وعد بلفور في 2 نوفمبر عام 1917. ففي مطلع عام 1918 صدر تصريح لطلعت باشا يتضمن عدة بنود أهمها: 1- تسامح تركيا مع مواطنيها اليهود 2- إزالة القيود الإدارية المفروضة على الاستيطان اليهودي. 3- تنسيق الهجرة اليهودية بحيث تكون ضمن حدود إمكانية البلاد على إعاشة سكانها. 4- ضمان الحرية الثقافية والدينية والروحية لليهود. 5- إمكانية منح اليهود حكما ذاتيا كاملا[14].

وفي أعقاب تصريح طلعت باشا مباشرة صدر تصريح مؤيد له على لسان وكيل الخارجية الألمانية رحب فيه بتصريح المسؤول العثماني وأكد فيه للصهاينة أن الدولة العثمانية فعلا جادة في نيتها دعم (النشاط الاستيطاني اليهودي في فلسطين عن طريق تشجيع الهجرة الحرة. ومنح المستوطنين اليهود الحكم المحلي الذاتي واحترام حقهم في ممارسة حياتهم الثقافية والفكرية بمنتهى الحرية والاستقلالية. [15] وسن انهيار الدولة العثمانية والهزائم المتتالية التي مني بها الألمان جعل مركز الثقل في النشاط الصهيوني ينتقل كلية صوب بريطانيا.

العلاقات البريطانية الصهيونية خلال الحرب:

حينما قامت الحرب العالمية الأولى بدأ الاهتمام البريطاني بمشاريع الاستيطان اليهودي يتخذ اتجاها جديدا يتسم بطابع أكثر جدية عما كان عليه في السابق. ففي التاسع من اليهودي 1914 عرض هربرت صموئيل Herbert Samuel (وكان أحد الوزراء في حكومة اسكويت Asquith وأول يهودي يدخل الحكومة البريطانية) على اللورد غراى Lord E. Gray وزير خارجية بريطانيا آنذاك، قضية إنشاء دولة يهودية بمساعدة بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ومما ورد في تلك المذكرة: «... إن إثارة موضوع مستقبل الهيمنة على فلسطين أمر وشيك الوقوع، وقد يتسبب اختلاف الدول الكبرى في صعوبة تخصيص فلسطين لدولة بعينها. ولعل الفرصة أصبحت الآن متاحة لتحقيق تطلعات الشعب اليهودي القديمة وإعادة بعث الدولة اليهودية..

وإنه لمن الضروري على إنجلترا أن تقوم بدور رئيسي في إنشاء مثل هذه الدولة، إذ إن وضع فلسطين الجغرافي ومجاورتها لمصر، يجعلان صداقتها لإنجلترا أمرا له أهميته بالنسبة للإمبراطورية العثمانية»[16]. وفي شهر يناير عام 1915 بعث صموئيل إلى رئيس الوزراء اسكويت بمذكرة اقترح فيها إقامة محمية بريطانية في فلسطين، يسمح لليهود بالهجرة إليها لإقامة «مركز ثقافي وروحي لليهودية» على أن يتمتع اليهود في فلسطين بحكم ذاتي يتطور فيما بعد ليصبح دولة موالية لبريطانيا. وكان اللورد غراى، ولويد جورج-وزير العتاد-الوزيرين الوحيدين اللذين وافقا على اقتراح صموئيل الداعي إلى الربط بين سيطرة بريطانيا على فلسطين وبين دعمها للمشاريع الصهيونية. غير أن موقف رئيس الوزراء البريطاني اسكويت من اقتراحات صموئيل [17] كان يتسم بالسلبية مما أدى إلى تجميد هذه الاقتراحات طيلة فترة حكم اسكويت حتى نهاية عام 1916.

وقد لعبت الصحافة البريطانية وخاصة صحيفة المانشستر غارديان دورا مهما في الدعوة للاستيطان اليهودي في فلسطين وتبيان فوائده الاستراتيجية والسياسية بالنسبة لبريطانيا. فبالإضافة إلى سكوت Skott رئيس تحرير المانشستر غارديان قام سايدبوتام لـH. Sidebotham الخبير العسكري في الصحيفة بدور كبير في هذا المضمار. وكانت مجمل أفكاره التي قام بنشرها فيما بعد في كتاب بعنوان إنجلترا وفلسطين England and Palestine تدور حول إظهار الصلة الوثيقة بين فكرة الدولة اليهودية في فلسطين ومصالح الإمبراطورية البريطانية. وكان يؤكد في مقالاته باستمرار على أن «اليهود هم الفئة الوحيدة المهيأة لاستعمار فلسطين، فهم-دون غيرهم-باستطاعتهم أن يقيموا شرقي البحر الأبيض المتوسط نفوذا جديدا مرتبطا بهذا البلد (بريطانيا) وسيشكلون درعا لحماية (مصالحنا) في الشرق ووسيطا بيننا وبينه. وسيكونون حضارة متميزة عن حضارتنا، ولكنها ستكون مشبعة بأفكارنا ومبادئنا السياسية... وإن (وجود) هذه الدولة الحاجزة في سوريا الجنوبية يتيح لها المجال لأداء الدور بنفس الفعالية كما حدث في الهند إن لم يكن بشكل أفضل. إن إنشاء هذه الدولة الحاجزة في سوريا سيضع حدا للعديد من الاعتراضات المألوفة ضد التوسع في التزاماتنا العسكرية. وسواء كان مستقبل هذه الدولة الحاجزة واحدة من الدومينونات

أو مستعمرة أصيلة، فإن وجودها يعتبر مصدرا من مصادر قوتنا في شرقي البحر المتوسط، على الصعيدين السياسي والعسكري، لأن اليهود في النهاية هم الفئة الوحيدة المحتمل أن تستوطن فلسطين على نطاق كبير»(18). وقد قامت المنظمة الصهيونية عن طريق أحد زعمائها وهوسوكولوف بتقديم مذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية في الثاني عشر من أبريل عام 1916 مطالبة فيها أن تتولى بريطانيا إقامة دولة يهودية في فلسطين نظرا لما ستحققه هذه الدولة من خدمات جليلة للمصالح البريطانية، وكان مما ورد فيها «.. ستزدهر فلسطين بمضي الوقت مشكلة قوة لبريطانيا ومثبتة مركزها على شواطئ المتوسط.. وستنشط التجارة هناك، ويتولى اليهود تأسيس وكالات تجارية، تعود بالخير العميم على بريطانيا قبل غيرها..» وتنتقل المذكرة إلى نقطة هامة وخطرة حين تستطرد في تبرير وجود الدولة اليهودية بقولها: «.. إن إنشاء كومنولث يهودي في فلسطين تحت حماية إنجلترا سيقيم جدارا فاصلا بين عرب آسيا وعرب الشمال الأفريقي.. وهذا سيكون فيه خدمة كبرى لدولة تضم في حوزتها عربا في الجانبين.. كما أنه سيكون لليهود فضل كبير في إدخال الحضارة الأوروبية مما سيؤدي إلى توعية شعوب المنطقة وتحسين أوضاعها وفقا لما تقتضيه المصالح البريطانية»[19]. وبدأت هذه الأصوات المؤيدة لإقامة دولة يهودية في فلسطين تجد لها آذانا صاغية حينما تولى لويد جورج رئاسة الوزارة في ديسمبر عام 1916 وأصبح بلفور وزيرا للخارجية.

لقد برزت خلال هذه الفترة صعوبات عسكرية بالنسبة للحلفاء في الجبهة الغربية، ولذا فقد رأت بريطانيا أن الوسيلة الوحيدة لإيجاد انفراج عسكري في هذه الجبهة هو تصعيد الحرب في منطقة الشرق العربي، وأصبح «احتلال فلسطين» في رأى لويد جورج «ضرورة ملحة وعاجلة لا تحتمل التأخير». [20] وكانت بريطانيا قد نجحت بمقتضى اتفاقية سايكس-بيكو المنعقدة في مايو عام 1916، من إبعاد روسيا عن فلسطين وباقي الشرق العربي بالتسليم لها بأطماعها في الدردنيل والبسفور والأجزاء الشمالية من الدولة العثمانية. أما بالنسبة لفرنسا فإن بريطانيا فشلت في إخراج فلسطين من دائرة الأطماع الفرنسية، فبالإضافة إلى حصول فرنسا على منطقة الجليل الأعلى من فلسطين مقابل منح بريطانيا مينائي حيفا

وعكا، فإن الأجزاء الباقية من فلسطين اتفق على وضعها تحت إدارة دولية يكون لفرنسا دور أساسي في تحديد ملامحها. ولذا فلا عجب إذا كانت مخاوف لويد جورج في فلسطين والشرق العربي مصدرها ليس التحالف الألماني العثماني بقدر ما هو الأطماع الفرنسية [21]. فلقد كانت استراتيجيته السياسية البريطانية تقوم على مبدأ عدم السماح لأية قوة أخرى باحتلال فلسطين وتهديد النفوذ البريطاني في مصر وقناة السويس. ولكن ما أن تسلم لويد جورج مقاليد الحكم حتى أوضح لرجال حكومته أن «بريطانيا ستحتل فلسطين وتستقر فيها، وما على فرنسا وغيرها من الدول إلا الانصياع لهذا الواقع وقبوله». [22]

وتمهيدا لتحقيق هدفه في احتلال فلسطين، لجأ لويد جورج إلى تعزيز صلته بالحركة الصهيونية. لقد كان يدرك مدى النفوذ الذي يتمتع به اليهود في فرنسا وقدرتهم على التأثير في السياسة الفرنسية. فبالإضافة إلى إمكاناتهم المالية الهائلة المتغلغلة في الاقتصاد الفرنسي، كان حكام فرنسا الليبراليون يدينون لليهود بانتصارهم الكاسح على قوى اليمين المحافظة إبان فضيحة دريفوس. [23] لقد استغل الليبراليون براءة دريفوس من التهم التي سبق أن وجهتها إليه القوى اليمينية المحافظة التي استغلت «سيطرتها على الجيش والكنيسة للنيل من سمعة الليبراليين» بحجة أنهم كانوا متعاطفين مح اليهود مخططاتهم التآمرية. [24] ولدى كشف بطلان وزيف التهمة التي وجهت لدريفوس، عملت وسائل الإعلام الليبرالية الفرنسية جاهدة عل تأليب الرأي العام ضد القوى اليمينية المحافظة،مما أدى إلى تعزيز قوة الليبراليين ونجاحهم في السيطرة على السلطة العسكرية والسلطة الدينية. وتمكنوا من فصل الكنيسة عن الدولة وأصبحوا بالتالي هم القوة الأولى في فرنسا. ولا شك أن انتصار الليبراليين قد أفاد يهود فرنسا أيما فائدة، بحيث أصبحوا يتمتعون بمكانة تؤهلهم لممارسة أي ضغط يرونه في صالحهم على الحكومة الليبرالية الفرنسية. فلا غرابة إذن إذا وجد لويد جورج أن بلاده ستضمن عن طريق تبني إنشاء كيان سياسي يهودي في فلسطين-ولاء الحركة الصهيونية لها واستعدادها لتحريك يهود فرنسا بما لديهم من إمكانيات وقوة، للضغط عل الحكومة الفرنسية كي تتخلى عن مطامعها في فلسطين.

ويشير لويد جورج إلى أن أحد العوامل الأخرى التي جعلته يتبنى فكرة إنشاء مثل هذا الكيان اليهودي السياسي في فلسطين، هو تخوف حكومته من المساعي الجدية التي كانت تبذلها الحكومة الألمانية منذ عام 1916، لكسب ثقة وتأييد الحركة الصهيونية، عن طريق الضغط على الدولة العثمانية لإصدار وعد يحقق رغبات اليهود في فلسطين ويسهل استيطان اليهود هناك في ظل السيادة العثمانية. [25] ومما زاد من تخوف بريطانيا قيام ألمانيا-كما مر ذكره سابقا-بنشاط واسع في فلسطين، إذ أنفقت الكثير من الأموال هناك سعيا وراء زيادة نفوذها. وقامت بتأسيس مصرف وعدد من المستعمرات الزراعية والمدارس والمستشفيات. [26] وخشيت بريطانيا في حال التزامها بتمويل فلسطين أن يستمر التغلغل الألماني في هذه المنطقة الحساسة مما يهدد مصالحها الرئيسية في قناة السويس ومصر. لذا كان لا بد من هدم الجسور نهائيا بين الحركة الصهيونية والحكومة الألمانية.

وبالرغم مما قيل عن مثاليات السياسة الأمريكية في هذه الفترة، فإن الولايات المتحدة الأمريكية بدأت عشية الحرب العالمية الأولى تحدد مصالحها البترولية في الشرق العربي. فبالنسبة لفلسطين حصلت الولايات المتحدة عام 1914 على سبعة امتيازات في تصنيع البترول في منطقة النقب. وأخذت أمريكا تلعب دورا بارزا في النضال العالمي من أجل البترول ومن أجل بترول العراق بالدرجة الأولى. ولذا فإن مستقبل الشرق العربي أصبح يشغل حيزا هاما في مجال السياسة الخارجية الأمريكية. وكانت فكرة الانتداب الأمريكي على فلسطين فكرة مقبولة لدى كثير من الساسة الأمريكيين، مما سبب رد فعل حاد بالنسبة لبريطانيا. وقد أشار لويد جورج إلى ذلك في كتابه حقيقة معاهدات السلام بأن «وجود الأمريكيين في فلسطين لن يكون ذا نفع أو فائدة بالنسبة لسياستنا في مصر، بل بالعكس فإنه سيضع أمامها العثرات والعراقيل». [27] وفي ضوء ذلك برزت أهمية الحركة الصهيونية بالنسبة لبريطانيا ليس في قدرتها على جر أمريكا للحرب إلى جانب الحلفاء فحسب، وإنما أيضا للضغط عليها كي تتخلى عن أية مطامع لها في مد نفوذها على فلسطين.

ومن ناحية أخرى، وجدت بريطانيا في اليهود الروس عنصر رهان هاما جدا في أعقاب نجاح الثورة في روسيا في فبراير عام 1917، وتولي الحكومة

المؤقتة زمام السلطة. لقد أدركت بريطانيا أن بإمكان اليهود الروس القيام بدور رئيسي في التأثير على تطور الأحداث الداخلية في روسيا. وكان في تصور لويد جورج أن جميع اليهود الروس مندرجون تحت لواء الصهيونية وأن بإمكانهم عرقلة المحاولات البلشفية للوصول إلى الحكم. وعلى صعيد آخر كانت الخشية واضحة في الأوساط البريطانية من تسلم البلاشفة السلطة خاصة بعد أن أعلنوا معارضتهم الشديدة للصراع الدموي ورغبتهم الأكيدة في الانسحاب من الحرب. والواقع أن السذاجة كانت واضحة لدى أولئك الذين تصوروا أن اليهود الروس بحوزتهم المفتاح السحري لانتصار البلاشفة بزعامة لينين أو انتصار الليبراليين بزعامة كيرنسكي، أي بعبارة أخرى الانسحاب من الحرب أو الاستمرار فيها. لقد تصورت بريطانيا أن إصدار وعد كوعد بلفور يحقق لها مكاسب حقيقية على الصعيد الروسي.[28] فقامت لدى إصداره بنشره بمختلف اللغات التي كان يتحدث بها اليهود، وقامت بتوزيعه بأقصى سرعة على شتى التجمعات اليهودية وخاصة في روسيا، حيث كانت تقوم الطائرات البريطانية بإسقاط المنشورات المتضمنة نص الوعد على مراكز تجمعات اليهود. وسارع الزعماء الصهاينة بإرسال البرقيات لزملائهم الموجودين في روسيا لبذل أقصى جهودهم من أجل خلق موقف يهودي متحد في تأييده ودعمه لبريطانيا. وكان من ضمن هذه البرقيات تلك التي أرسلها وايزمان إلى أحد الزعماء الصهاينة في روسيا، قائلا فيها: «... لا تنس أبدا الالتقاء التام بين مصالح بريطانيا ومصالحنا والذي كرمتنا به العناية الإلهية... إننا في هذه اللحظات المصيرية نتوجه إليكم طالبين منكم بذل أقصى جهودكم وعمل كل ما يمكنكم تنفيذه والقيام به في سبيل خدمة (مصالحنا المشتركة)...»[29]

وهكذا ازداد لويد جورج وباقي الساسة البريطانيين اقتناعا، بأن إصدار وعد رسمي لليهود بإنشاء كيان سياسي لهم في فلسطين يحقق لبريطانيا فوائد جمة. فبالنسبة لفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة وروسيا، فان باستطاعة الحركة الصهيونية التكفل بها جميعا بممارسة الضغوط عليها لتنتزع منها تأييدها لمثل هذا الوعد البريطاني. وحينما يتم الحصول على مثل هذا التأييد، فإنه يسهل على بريطانيا بعد احتلالها فلسطين وضمانها ولاء الحركة الصهيونية، أن تستأثر دون غيرها من الدول الأخرى بفلسطين

لتصبح منطقة نفوذ تابعة لها.

وبالإضافة إلى كل ما سبق، فإن الساسة البريطانيين أيضا كانوا يرون في إنشاء كيان يهودي سياسي في فلسطين توطيدا لمصالحهم في الشرق العربي، من خلال استخدام هذا الكيان لمواجهة حركة التحرر القومي العربي التي أخذت تنمو في هذه الفترة نموا كبيرا وتتحول شيئا فشيئا إلى حركة شعبية جماهيرية خاصة في سوريا والعراق. فكان إنشاء مثل هذا الكيان بمثابة (اسفين) يدق في قلب المشرق العربي لشق هذه الحركة تمهيدا لتمزيقها وفصلها عن مصر وباقي العالم العربي في أفريقيا.

أما بالنسبة لمصير عرب فلسطين فقد دعا عدد من الساسة الإنجليز إلى ترحيلهم إلى المناطق الممتدة شرقي نهر الأردن. فالسير إليك كيركبرايد الذي عمل مسؤولا في فلسطين وشرقي الأردن فترة من الزمن، أشار في مذكراته إلى أن الأراضي الواقعة «إلى الشرق من نهر الأردن كان مخططا لها أن تقوم بدور أرض احتياطية تستخدم في إعادة توطين العرب حالما يصبح الوطن القومي لليهود في فلسطين أمرا واقعا». [30] كما أعلن اللورد بوثبي-السياسي البريطاني الصهيوني-في مناسبة أقامتها «هيئة الإذاعة البريطانية» عام 1964 تكريما لذكرى وايزمان أن «تصريح بلفور الأصلي تضمن ترحيل عرب (فلسطين) إلى مكان آخر..»[31] وحينا أثار الصهاينة ضجة حول تصريحات بوثبي لم يملك سوى أن يكتب إلى مجلة «الجويش اوبزرفر» قائلا «إنني افهم طبيعة الخط الصهيوني الحالي، فمن مصلحته الآن عدم البحث في موضوع حساس كهذا، ولكنني متأكد من أن الصهاينة والإنجليز فكروا في يوم من الأيام بنقل السكان العرب خارج حدود فلسطين».[32] ومن الجدير بالذكر أن الضفة الشرقية الحالية للأردن كانت محط أطماع الصهاينة منذ مطلع هذا القرن. وقد تزايدت حدة هذه الأطماع بعد تسرب تقارير سرية لخبراء أمريكيين وبريطانيين ممن ساهموا في أعمال صندوق استكشاف فلسطين البريطاني والجمعية الأمريكية لاستكشاف فلسطين. وقد تضمنت بعض هذه التقارير التي نشرتها عدد من الصحف الغربية معلومات عن وجود النفط بكميات كبيرة في الضفة الشرقية، بالإضافة إلى وجود كميات هائلة من الثروات الدفينة في أعماق البحر الميت ومنطقة الأغوار. [33] ولذا فان تأسيس إمارة شرق الأردن عام

1921 جاء مخيبا لآمال الصهيونية التي كانت تسعى جاهدة لبسط نفوذها على هذه المنطقة.

صدور وعد بلفور:

أخذت الأحداث في النصف الثاني من عام 1917 تتوالى بسرعة، ففي العشرين من شهر أكتوبر اقتحمت القوات البريطانية حدود فلسطين الجنوبية بهجوم على غزة أتبعته بهجوم آخر على منطقة بئر السبع، وفي التاسع من ديسمبر دخلت القوات البريطانية مدينة القدس لتمهد الطريق بعد يومين لدخول الجنرال الليبي قائد القوات البريطانية العاصمة الفلسطينية. وفي الوقت الذي كانت فيه القوات البريطانية تقتحم فلسطين، كانت المفاوضات-من ناحية أخرى-قائمة على قدم وساق بين الساسة البريطانيين وزعماء الحركة الصهيونية، حيث تمخضت في الثاني من نوفمبر من نفس العام عن صدور ما يسمى بوعد بلفور نسبة إلى جيمس آرثر بلفور وزير خارجية بريطانيا آنذاك. وقد جاء الوعد على شكل رسالة وجهها بلفور إلى اللورد روتشيلد الزعيم الصهيوني. الكبير في بريطانيا: «يسرني جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود الصهيونية، وقد عرض على الحكومة وأقرته: إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف والرضا إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى. أكون ممتنا لو أبلغتم هذا التصريح إلى الاتحاد الفدرالي الصهيوني»[34] وهكذا جاء وعد بلفور ليكشف بكل وضوح حقيقة التحالف بين الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية لخدمة مصالحهما وأهدافهما المشتركة. وبالرغم من أن الوعد استبدل بتعبير دولة تعبير وطن، إلا أنه كان واضحا أن الدولة ستظهر إلى حيز الوجود في نهاية المطاف. ولقد كان وعد بلفور أول اعتراف دولي بالصهيونية السياسية ومشاريعها الاستيطانية.

إن العامل الجوهري في إصدار وعد بلفور هو مصلحة الإمبريالية

البريطانية التي دفعتها للتحالف مع الحكومة الصهيونية وتسخيرها لخدمة أهدافها وأغراضها . إن كبار المتحمسين للصهيونية من الساسة البريطانيين كانوا يتخذون من هذا الحماس وسيلة لخدمة مآرب الإمبراطورية التي كانوا في صدد بنائها وتثبيت دعائمها . فبلفور الذي كان يبدي عطفا شديدا على الحركة الصهيونية عام 1917 هو نفسه الذي أصدر عام 1950- حينما كان رئيسا للوزراء-قانون الهجرة الذي حدد بمقتضاه هجرات يهود شرق أوروبا إلى بريطانيا مبررا ذلك «بالخوف من الأخطار والشرور التي بدأت تتعرض لها بريطانيا من توافد المهاجرين الذين كانوا في غالبيتهم يهودا».[35] وحتى لويد جورج نفسه لم يكن يخفي قلقه من تزايد نفوذ اليهود في بريطانيا . ولدى مناقشته مشروع يوغندا في مجلس العموم البريطاني عام 1904 علق لويد جورج على تهجير عدد من اليهود إليها بقوله: «إن العالم يحوي عددا كافيا من اليهود بحيث يستطيع الاستغناء عن الكثيرين منهم ليذهبوا إلى يوغندا». وقد اتهم أحد زملائه اليهود في مجلس العموم وهو السير الفرد موند بأنه «متعجرف كباقي أفراد الجنس الذي ينتمي إليه».[36] أما ريتشارد ماينرتزهاجن الذي شغل منصب رئيس دائرة فلسطين في وزارة الخارجية البريطانية والذي عرف عنه حماسه الشديد لمشاريع الصهيونية في فلسطين قال في مذكراته: «إذا ما تزايد نفوذ اليهود في إنجلترا في مجالات الحرف والتجارة والجامعات والمصارف، فإن علينا (نحن الإنجليز) أن نقاوم هذا النفوذ بكل قوة».[37]

وفي الوقت الذي يتضح فيه أن مصالح بريطانيا دفعت ساستها لاتخاذ مواقف مؤيدة للحركة الصهيونية نجدها من ناحية أخرى تدفع هؤلاء الساسة لاتخاذ مواقف معادية للحقوق العربية القومية. فالعرب الذين كانوا يشكلون عام 1917 ما لا يقل عن 91٪ من سكان فلسطين أشير إليهم في وعد بلفور بمجرد «الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين»، والحقوق القومية والسياسية استعيض عنها ب «الحقوق المدنية والدينية». أما الأقليات اليهودية المنتشرة في دول العالم فقد أشير صراحة إلى «الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى» وذلك في معرض تطمين اليهود الذين كانوا يتمتعون بمراكز متميزة في أماكن سكناهم بأنهم لن يضطروا لمغادرة هذه الأماكن دون رغبتهم. إن من أبرز سمات هذا الوعد هو إهماله

وتجاهله التام لعرب فلسطين، فجاء ذلك مؤشرا إلى ما كان يضمره التحالف الإمبريالي الصهيوني من مخطط لحرمان هذا الشعب من ممارسة حقه في تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة، تمهيدا لاقتلاعه من أرضه وطرده من وطنه تحت وطأة الاضطهاد والتعذيب.

وهكذا يتضح مما سبق أن فكرة الاستيطان اليهودي وتطورها كانت بمثابة امتداد لسياسة التوسع الإمبريالي الغربي لتصبح بعد نضوجها فيما بعد أداة من أدواته في الشرق العربي تؤمن مصالحه وتحرس مواقعه. [38] وكانت بريطانيا هي التي فازت بهذه الأداة عام 1917 وبقيت محافظة عليها حتى قيام «الدولة» عام 1948 حين تجدد تنافس الدول الكبرى ثانية للاستثمار بهذه الأداة، ففازت بها الولايات المتحدة الأمريكية ولا زالت تحتفظ بهذه الأداة حتى الآن..

الهوامش

(1) ريشون ليتسيون:
تبعد عن مدينة الرملة حوالي 14 كم وتأسست عام 1882، وتبلغ مساحة أرضها حوالي 6600 دونم وبلغ عدد سكانها عام 1897 حوالي 400 شخص.
روش بينا:
تقع على بعد 11 كم من صفد تأسست عام 1882، وتبلغ مساحة أرضها حوالي 6000 دونم، وعدد سكانها حوالي 350 شخصا.
زخرون يعقوب:
وهي جزء من أراضي قرية زمارين جنوب حيفا، تأسست عام 1882، وتبلغ مساحة أرضها حوالي 6000 دونم وعدد سكانها حوالي 220 شخصا.
نيس تسيونه:
وهي جزء من أراضي وادي حنين جنوب شرق يافا، تأسست عام 1883 وتبلغ مساحة أرضها حوالي 4090 دونما، وعدد سكانها حوالي 670 شخصا.
عكرون:
تقع قرب قرية عاقر في قضاء الرملة، تأسست عام 1883، وتبلغ مساحة أرضها حوالي 4090 دونما، وعدد سكانها حوالي 160 شخصا.
غديرة:
وهي من أراضي قرية قطرة تبعد عن الرملة جنوبا بحوالي 10 كم، تأسست عام 1884 وتبلغ مساحة أرضها حوالي 3000 دونم وعدد سكانها حوالي 100 شخص. انظر جريس ص 133-134.
(2) كان روتشيلد يختار مستخدميه إما من بين اليهود الفرنسيين الذين تربطهم صلة قوية به، وإما من بين العاملين في المدرسة الزراعية مكفيه يسرائيل.
(3) بيت جان:
تقع ضمن منطقة طبريا، تأسست عام 1904 وبلغ عدد سكانها 124 شخصا.
بئير يعقوب:
تقع غربي الرملة، تأسست عام 1907 وبلغ عدد سكانها 452 شخصا
بن شيمن:
تقع بين الرملة واللد، تأسست عام 1907 وبلغ عدد سكانها 100-شخص.
تل أبيب:
تأسست في 30 أيار عام 1905 إلى الشمال من مدينة يافا فوق منطقة رملية كانت تسمى تل الربيع وأصبحت فيما بعد أهم مدينة في «إسرائيل».
ديغانا:
تقع إلى الغرب من مدينة سمخ. اشترى اليهود أرضها من مالكها الدمشقي سليم العمري،

تأسست عام 1909 وبلغ عدد سكانها 328 شخصا.

مغدال:

تقع إلى الشمال من طبريا، تأسست عام 1910، وبلغ عدد سكانها حوالي 250 شخصا.

روحامة:

تقع قرب غزة، تأسست عام 1911 وبلغ عدد سكانها 171 شخصا.

كفار ميلال:

تقع إلى الشمال من يافا على مقربة من كفار سابا، وتأسست عام 1911 وبلغ عدد سكانها 415 شخصا.

مرحفياه:

تقع إلى الشرق من العفولة على بعد 15 كم من الناصرة، تأسست عام 1911 وبلغ عدد سكانها 298 شخصا.

(4) R. Patai, Israel Between East and West (Philadelphia: 1953), pp. 13-14

(5) David Yisraeli,Germany and Zionism,Germany and the Middle East.(Tel-Aviv: 1975),p.143

(6) Ben-Halpem, p.163

(7) محافظة ص 162.

(8) Palestine, 9.6. 1917, p.160

(9)

(10) M. Perlmann, Chapters of Arab-Jewish Diplomacy. 1918-1922 Jewish Social Studies, Vol XI, No. 2 April 1944, p.128.

(11) قاسمية ص 281.

(12) Yisraeli,p.144

(13) S.E. Weltman, Germany, Turkey and the Zionist Movement, 1918-1914. The Review of Politics (Indiana: April 1961),Vol XXIII,P. 256

(14) Great Britain, Foreign Office, Attitude of Enemy Governments towards Zionism, 371/3388/29730/1495.

(15) Friendman, pp. 382-383.

(16) Herbert Samuel, Memoirs (London:1945) p. 149, وانظر أيضا قاسمية ص 294.

(17) لم تحدث اقتراحات صموئيل انطباعا إيجابيا لدى اسكويت، وقد كان تعليقه عليها كما يلي: «مما يلفت النظر أن الداعية الثاني المتحزب لهذا الاقتراح هولويد جورج، ولا حاجة بي إلى القول أنه لا يبالي مطلقا بأمر اليهود أو ماضيهم ومستقبلهم، بل يعتبرها إهانة مسيئة أن تترك الأماكن المقدسة لكي تنتقل إلى ملكية فرنسا الملحدة أو توضع تحت حمايتها» انظر:

Earl of Oxford and Asquith, Memories and Reflections (London: 1928) Vol II, p.65

(16) H. Sidebotham, England and Palestine (London: 1918) p.186, ولمزيد من الإيضاحات حول هذا الموضوع باللغة العربية. انظر: قاسمية ص 298-296.

(19) Freign Office, 371/2488/51705 Great Britain

(20) Stien,p.145

(21) منذ مطلع الحرب العالمية الأولى وفرنسا تسعى جاهدة للحصول على سوريا الطبيعية

بأكملها بما فيها فلسطين. وقد أعلن وزير خارجيتها عام 1914 بأن «الحكومة الفرنسية تعتبر البلاد السورية كلها من الحدود التركية إلى الحدود المصرية دائرة نفوذ فرنسية». ودلالة التصريح أن فرنسا كانت تريد اقتسام المشرق العربي بينها وبين بريطانيا بحيث تحصل على القسم الغربي منه وهو سوريا مقابل حصول بريطانيا على القسم الشرقي وهو العراق.

(22) The Diary of lord Bertie of Thame (London: 1924), vol II, P. 122, as quoted. in Sharif, P كــــان اللورد بيرتاي يعمل سفيرا لبريطانيا في فرنسا.

(23) انظر هامش رقم 4 في الفصل الرابع.

(24) المصدر نفسه.

(25) Elie Kedouri, England and the Middle East, The Destruction of The Oftoman Empire 1914-1921(London: 1956), P.51

(26) رزوق، إسرائيل الكبرى، ص 233 .

(27) David Lioyd George, The Truth about the peace Treaties (London:1938), Vol . 11, P.30 7 وبالرغم من أن الولايات المتحدة لم تكن ضمن عصبة الأمم. إلا أنها مارست ضغوط على الكثير من الدول الأعضاء لتأخير اعترافها بالانتداب البريطاني على فلسطين. وقد نجحت في تأخيره حتى عام 1922، أي بعد مرور عامين على حصول بريطانيا على الموافقة لانتدابها في مؤتمر سان ريمو.

(28) كانت بريطانيا تحاول أيضا استمالة التجار اليهود في جنوب روسيا حيث دأبوا على تزويد ألمانيا بالكثير من الموارد التموينية. ولذا فان الحكومة البريطانية بدأت تسعى لكسب ولاء هؤلاء التجار تمهيدا لإيقاف تعاملهم مع ألمانيا.

(29) Jon Kimche, The Unromantics: The Great Powers and the Balfour Declaration (London: 1968), p. 45.

(30) Alec S. Kirkbride, A Creackle of Thorns(London:1956),pp. 20-19.

(31) The Jewish Chronicle, (London:3 February,1964).

(32) المصدر نفسه.

(33) The Truth (London: 27 April, 1915)

(34) تقرير اللجنة الملكية لفلسطين (لندن: 1937)، ص 31 من النص المطبوع بالقدس.

(35) Sokolow, Vol II, P.14

(36) Stein,p.143.

(37) Richard Meinertzhagen, Middle East Diary, 1917- 1956 (N.Y.:1959), p. 17

(38) إن شيئا واحدا كان يهم ساسة بريطانيا في ذلك الوقت وهو ما عبر عنه تشمبرلن بقوله: «إن العنصر البريطاني سيكون أعظم عنصر حاكم يشهده العالم منذ الخليقة». انظر:

S. H. Jeyes, Joseph Chamberlain (London: 1896), p.245, as quoted in Sharif, p. 141.

مصادر الدراسة

1 - الوثائق البريطانية الرسمية الموجودة في مكتب السجلات العامة Public Records Office وتشمل:

أ- ارشيف وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office

ب- أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية Colonial Office

2- بعض الوثائق الصهيونية الرسمية الموجودة في:

أ- الأرشيف الصهيوني (القدس).

ب- الأرشيف الصهيوني (نيويورك).

3- المؤلفات العربية:

- أبو عسل، ايلى ليفى. يقظة العالم اليهودي. القاهرة: 1934.
- أمين، بديعة. المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية. بيروت: 1974.
- ايفانوف، يورى. احذروا الصهيونية. موسكو: 1969.
- بعيو، مصطفى. المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا - تونس: 1972.
- توما، أميل. جذور القضية الفلسطينية. القدس: 1976.
- جريس، صبري. تاريخ الصهيونية. بيروت: 1977، جزء 1.
- حسن، قاسم. العرب والمشكلة اليهودية. بيروت 1969.
- حسين، محمد عبد الرحمن. العرب واليهود. الإسكندرية: 1967.
- حلاق، حسان علي. موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909. بيروت: 1978
- حيدر، لطف الله. «الجذور الطبقية للحركة الصهيونية.» شؤون فلسطينية. بيروت: أغسطس 1974، عدد 36.
- دويتشر، اسحق. دارسات في المسألة اليهودية. (ترجمة مصطفى

الحسيني). بيروت: 1971.

- رزوق، أسعد. إسرائيل الكبرى. بيروت: 1973.

- رزوق ، أسعد. الصهيونية وحقوق الإنسان العربي . بيروت: 1968، جزء1.

- سعد، إلياس. «ملاحظات أولية حول الأيدلوجية الصهيونية من حيث نشأتها وأصولها المجتمعية.» شؤون فلسطينية. بيروت: أغسطس 1972، عدد 12.

- سليمان، محمد. «قانون التنظيمات العثماني وتملك اليهود في أرض فلسطين.» صامد الاقتصادي. بيروت: نوفمبر 1981، العدد 33.

- الشريف، ريجينا. «الصهيونية غير اليهودية في إنجلترا»، الصهيونية العنصرية. بيروت: 1977 مجلد 2.

- الشريف، ماهر. «أسس الأيدلوجية الصهيونية» شؤون فلسطينية. بيروت: يوليو 1975، عدد 47.

- صايغ، أنيس. يوميات هرتزل. (ترجمة هلدا شعبان صايغ). بيروت: 1973.

- صفوة، نجدة فتحي. «هجرة اليهود من روسيا القيصرية». يهود العالم والصهيونية وإسرائيل. بيروت: 1974.

- طربين، أحمد. فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار 1897-1922. القاهرة: 1970.

- عبد الرحمن، أسعد. المنظمة الصهيونية العالمية. بيروت: 1967.

- العظم،. صادق جلال دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية. بيروت 1970.

- العظم، صادق جلال. الصهيونية والصراع الطبقي. بيروت: 1975.

- علوش، ناجى. الحركة الوطنية أمام اليهود والصهيونية 1882-1948، بيروت: 1974.

- عودة، عودة بطرس. القضية الفلسطينية في الواقع العربي. القاهرة: 1970.

- عوض، عبد العزيز. الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914. القاهرة: 1969.

- غرايبة، عبد الكريم. سوريا في القرن التاسع عشر 1840- 1876. القاهرة: 1961-1962.
- فهمي، وليم. الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة. القاهرة: 1971.
- قاسم، جمال زكريا. الخليج العربي: دراسة لتاريخ الإمارات العربية 1914-1945. القاهرة: 1973.
- قاسمية، خيرية. قضية الحدود بين مصر وفلسطين. شؤون فلسطينية. بيروت: نوفمبر 1971. عدد 9.
- قاسم، خيرية: نشاطات صندوق استكشاف فلسطين 1865-1915 شؤون فلسطينية بيروت يوليو 1980 عدد 104.
- قاسمية، خيرية. النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908-1918 . بيروت: 1973.
- القشطيني، خالد. مشروع إنشاء المستعمرة اليهودية في يوغندة. شؤون فلسطينية. بيروت: مايو 1971، عدد 7
- الكيالى، عبد الوهاب. المطامع الصهيونية التوسعية. بيروت: 1966 .
- لينين، فلاديمير. الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية. موسكو 1976، القسم السادس.
- ليون، إبراهيم. المفهوم المادي للمسألة اليهودية. (ترجمة دار الطليعة). بيروت: 1970.
- محافظة، علي. العلاقات الألمانية الفلسطينية: 1841-1945. بيروت: 1980.
- محمود، أمين عبد الله. التوسع الإمبريالي الغربي وفكرة الدولة اليهودية. دراسات، عمان: الجامعة الأردنية، مايو 1978.
- محمود، أمين عبد الله. مشاريع الاستيطان اليهودي: البدائل الأخرى. مجلة كلية الآداب والتربية: جامعة الكويت، ديسمبر 1978، عدد 14.
- المسيرى، عبد الوهاب محمد. الأيديولوجية الصهيونية. الكويت: 1982، جزءان.
- المسيرى، عبد الوهاب محمد. في نهاية التاريخ: دراسة في بنية الفكر الصهيوني. بيروت: 1979.
- المسيرى، عبد الوهاب محمد. موسوعة المفاهيم والمصطلحات

الصهيونية. القاهرة: 1975.
- مصطفى، أحمد عبد الرحيم. موقف الدولة العثمانية من الهجرة الصهيونية إلى فلسطين. المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام. عمان: أبريل 1980.
- المنصورى، فارس. البارون هيرش والحركة الصهيونية. شؤون فلسطينية. بيروت: يوليو 1970، عدد 47.
- مؤسسة الدراسات الفلسطينية القضية الفلسطينية والخطر وقيادة الجيش اللبناني الصهيوني. بيروت: 1973.
- هلبروك، ستيفن. الجذور الفبقية في العقيدة الصهيونية. المختار من مجلة الدراسات الفلسطينية. (بإشراف شاكر مصطفى) الكويت: 1974.
- الهندي، هاني. حول الصهيونية وإسرائيل. بيروت: 1971.

4- المؤلفات الأجنبية:

- Amery, Julien. The Life of Joseph Chamberlain. London 1951.

- Antonius, George. The Arab Awakening. London: 1938.

- Awnery, Uri. Israel Without Zionists. London: 1970

- Baron, Salo W. A Social and Religious History of the Jews. New York: 1937.

- Baron, Salo W. The Russian Jew under Tsars and Soviets. New York: 1964.

- Bein, Alex. Theodor Herzl. Philadelphia: 1945

- Budenheimer, Max. Prelude to Israel (Trans. by Israel Cohen). New York: 1963.

- Buelow, Von B. Memoirs. London: 1931, Vol II

- Cohen, Israel. The Zionist Movement. New York: 1946.

- The Diary of lord Bertie of Thame. London: 1924, Vol II

- Earl of Oxford and Asquith. Memories and Reflections. London: 1928, Vol III

- Epstein, Isidore. Judaism. London: 1975

- ESCO Foundation. Palestine: A Study of Jewish, Arab and British Policies, New York: 1970

- Falls, J.C. Ewald. Three Years in the Libyan Desert. (Trans. by Elizabeth Lee). London: 1913.

- Fraenkel, Joseph (Paul Friedman's Median Project.) Herzl Year Book. New York: 1962.

- Friedman, Isaiah. Germany. Turkey and Zionism 1897-1918, Oxford: 1977.

- Friedman, Isaiah. (Lord Palmerstone and the Protection of Jews in Palestine, 1839-1851) Jewish Social Studies. January 1968.

- Gonen, Jay Y. A Psycho-History of Zionism. New York: 1975.

- Gottheil, Richard J. Zionism (Movements in Zionism). Philadelphia: 1904.

- Halpen, Ben. The Idea of the Jewish State. Cambridge. Mass: 1961.

- Hertzberg, Arthur. The Zionism Idea; New York: 1959

- Hess, Moses. Rome and Jerusalem. New York: 1918, 1945.

- Herzl, Theodor. The Complete Diaries. New York: 1960, 5 Vols.

- Herzl, Theodor. The Jewish State. London: 1934.

- Jansen, G. H. Israel and Asia. Beirut: 1971.

- The Jewish Chronicle 1841-1941. A Century of Newspaper History. London: 1949.

- Jeyes S. H. Joseph Chamberlain. London: 1896.

- Kedouri, Elie. England and the Middle East, The Destruction of the Ottoman Empire 1914-1921. London: 1956.

- Kalidi, Walid (ed). From Haven to Conquest. Beirut: 1971.

- Kimche, Jon. The Unromantics: The Great Powers and the Balfour Declaration. London: 1968.

- Kirkbride, Alec S. A Crackle of Thorns. London: 1956.

- Kobler, Franz. The Vision Was There: A History of the British Movement for the Restoration of the Jews to Palestine. London: 1956.

- Laqueur, Walter. A History of Zionism. London: 1972.

- Lewisohn, Ludwig (ed). Therodor Herzl. Cleveland: 1955.

- Lloyed George, David. The Truth about the peace Treaties. London: 1938, Vol II

- loewe, L. (ed). Diaries of Sir Moses and Lady Montefiore. London: 1952, Vol I

- Lowenthal, Marvin. The Diaries of Theodor Herzl London: 1958.

- Lowenthal, Marvin. The Jews of Germany. Philadelphia: 1944.

- Marx, Karl. (On the Jewish Question). Karl Max, Early Texts. (Trans. & ed. by D. Mclellan). Oxford: 1972.

- Meinertzhagen, Richard. Middle East Diary, 1917-1959. New York: 1959

- Mendelsohn, Erza. Class Struggle in the Pale; the Formative Years of the Jewish Workers Movement in Tzarist Russia. London: 1970.

- Morton, Frederick. The Rothschilds, New York: 1962.

- Olipahznt, Lawrence. The land of Gilead. London: 1880.

- Parkes, James. A History of the Jewish People. London: 1946.

- Patai, Raphael (ed). Herzl Year Book. New York: 1958, 1959, 1960, 1962, 1963, 1965, 6 Vols.

- Patai, Raphael. Israel Between East and West. Philadelphia: 1953

- Perlmann, M. (Chapters of Jewish Arab - Diplomacy, 1918-1922. Jewish Social Studies. April 1944

- Philipson, David. The Reform Movement in Judaism. New York:1907

- Rabinowicz, Oscar K. A Jewish Cyprus Project, Davis Treitsch's Colonization Scheme. New York: 1962.

- Sachar, Howard M. The Course of Modern Jewish History. New York: 1958.

- Samuel, Herbert. Memories. London: 1945

- Seltzer, Robert. Jewish People, Jewish Thought. New York: 1980.

- Sharif, Regina. (Christians for Zion, 1600-1919). Journal of Palestine Studies. Spring, summer 1976.

- Sidebotham, Herbert. England and Palestine: Essays towards the Restoration of Jewish State. London: 1918.

- Simon, M. (ed.). Speeches, Articles and Letters of I. Zangwill. London: 1937.

- Slouschz, Nahum. Travels in North Africa. Philadelphia: 1937.

- Sokolow Nahum. History of Zionism. New York: 1964, 2 Vols.

- Stein, Leonard. The Balfour Declaration. London: 1961.

- Stevens, Richard (Zionism as a Phase of Western Imperialism) in the Transformation of Palestine. (Ed. by I. Abu-Lughod). Evanston, Mass.:1971.

- Stewart, Desmond. Theodor Herzl. New York: 1974.

- Sykes, Christopher. Two Studies in Virtue. London:1953.

- Temperley, Harold. England and the Near East: The Crimea. London: 1936.

- Tibawi, A. L. British Interests in Palestine 1800-1901. London: 1961.

- Tuchman Barbra. Bible and Sword: England and Palestine from the Bronze Age to Balfour. London: 1957.

- Vital, David. The Origins of Zionism. London: 1980.

- Vital, David. Zionism: The Formative Years. Oxford: 1982.

- Watson, C. M. Fifty Years' Work in the Holy Land. London: 1915.

- Weizmann, Chaim. Trail and Error. London: 1944.

- Weltman, S. E. (Germany, Turkey and the Zionist movement, 1914-1918). The Review of Politics. Indiana: April: 1961.

- Wolf, Lucien. Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question. London: 1919

- Yale, William. The Near East. Ann Arbor: 1958.

- Yisreaeli, David. (Germany and Zionism). Germany and the Middle East. Tel-Aviv: 1975.

- Zimmerman, Alfred. The War and Democracy. London: 1914.

5- الصحف والدوريات العربية:

- الحقيقة. الإسكندرية: 5 فبراير 1882.
- دراسات. عمان: الجامعة الأردنية، مايو 1978.
- شؤون فلسطينية بيروت: مايو، أغسطس، نوفمبر، 1971، أغسطس 1972، أغسطس 1974 يوليو 1975 يوليو 1980.
- صامد الاقتصادي. بيروت: نوفمبر 1981.
- مجلة كلية الآداب والتربية. الكويت: جامعة الكويت، ديسمبر 1978.
المقطم. القاهرة: مايو 1906.-المؤيد. القاهرة: 9 فبراير 1892.

6- الصحف والدوريات الأجنبية:

- Encyclopedia Britannica. London
- Herzl Year Book. New York: 1958, 1959, 1960, 1962,1963, 1965.
- The Jewish Chronicle. London: 3 Feb. 1964.
- The Jewish Encyclopedia. New York: 1901, Vol 5.
- Jewish Social Studies. New York: January 1968.
- Journal of Palestine Studies. Beirut. Spring/Summer, 1976.
- Observer. London: 7 May 1961
- The Truth. Alexandria: 27 April 1915
- The Standard Jewish Encylopedia. London: 1959
- The Times. London: 17 Aug. 1840.

المؤلف في سطور:

د. أمين عبد الله محمود

* من مواليد عام 1940 في مدينة «بيت لحم» بالوطن المحتل.

* حصل على الدكتوراه في التاريخ الحديث من جامعة جورجتاون بواشنطن.

* أمضى الفترة بين عامي 1969-1972 زميل بحث وتدريس في قسم التاريخ بجامعة جورجتاون.

* عمل منذ عام 1973 بالجامعة الأردنية، وشغل فيها منصب رئيس قسم التاريخ عام 1981-1981.

* له عدة دراسات وأبحاث وترجمات باللغتين العربية والإنجليزية أهمها:

أ- فكرة الدولة اليهودية والتوسع الاستعماري الغربي.

ب- المسألة اليهودية في كتابات ليو-بنسكر.

جـ- الأوضاع الداخلية في روسيا، وأثرها على سياستها الخارجية 1905-1907.

د- الحكومة العربية في سوريا 1918-1920.-يعمل حاليا في قسم التاريخ بجامعة الكويت.

الكتاب القادم

مفاهيم قرآنية

تأليف: د. محمد أحمد خافالله